أبناء الحرام

أبناء الحرام

ناصر متعب الجابري



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1568-2

توزيع



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

الإهداء

إلى شمسِ الحُب الطالع على وديان قلبي

وقمر الليل المتلبّس كنزة السماء

إلى عينِ ملاكٍ تلبّس إنسيّة

ووجهِ جنّة استحال إلى بشر..

أهيمُ في دربِ الجوى عاشقا

وعن حبّكِ لا أتململُ

فأشربُ من خندريسِ الهوى كأسا

وهل عن عشقكِ يُسألُ؟

أحبّكِ!

قال تعالى

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾

[طه: 124-126].

"كُن ميّتا بالحياة لا حيّا بالموت".

القدّيس مار إسحق السرياني

إلى هيَ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أما بعد..

قال الله تعالى في سورة المزمّل **﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾**.

من قلب نهشه البُعد يأتي هذا الكتاب معطّرا برائحة الفراق، ومخلوطا بمزيج الذكرى، وممسوحا من حُب ذهب أدراج النسيان، أكتُبه لكِ من يدٍّ أدمنت ارتعاشاتِ الخطيئة، وبعين مغموسة في بحيرة الفجيعة، وأطبعه بورق الخذلان المسجّى في مدافن الانتظار، وبالعشق الملتصق بالأرض كالتصاق الجذر في أعماق التربة. إن الذين يدخلون قلوبنا من باب الحُب، لا يخرجون منه إلا من باب الانكسار، ولا أمل في أن لا أكتُب فوجع مثل هذا كفيل أن يُنجب آلاف الكلمات، ويجعلهم يتساءلون ثانية إن كُنتِ واقعا أدفع ثمنه على كتابات، أم خيالا أجدته فبات يُغالب الحقيقة ويستبدلها، ولا يعلمون أنكِ هُنا تشاهدين ما أكتُب، أنتِ هُنا بعيدة وقريبة، واجعة وموجوعة، تسكُنين مباني الألم الشاهقة، وتحلّين ضيفة عليّ في أعياد الحنين الضارب بكُل ثقله على السائر في دروبِ المتيّمين، ستتلصّص المخلوقات من شرفاتِ السماء لكلماتٍ تظنّها كلمات، وهي تدوي فتملأ العاشقين تساؤلا عن كاتبٍ يطفئ ظمأ الأحباب بقصّة خُلقت

من رحم ألفيّتنا الثالثة، أولئك الذين يسابقون الليل بقصائد معلّبة، وأغاني طُهيت سريعا في مطبخِ الكذب، وأنا هداياي روايات، فمن أهدى حبيبته رواية؟ ومن كان حبيبها كاتبا يجنُّ كائن الجنون من غرامه.

من الكاذب الكاتب.....

شهقت بتأفف، عاد الكاذب لرسائله من جديد بعد أن دخلَ في غيبوبة غياب لشهور ماضية، لعنته كثيرا فلا تكفي كذباته حتى يعود مجددا للعادة القديمة، هُو شاعر وروائي وصحافي وكما تقول الكتّاب هم أكثر الناس كذبا فهُم كالسّحرة، يستعيضون بالكلمات عن الأرانب، هم ينظمون سيرك الحروف في مدينة الأدب، "الآن يريد أن يفضحني المجنون... آآآخ من المجانين، عادت لتُكمل الكتاب وفي عينيها كُل الغضب، والاحتقار للكاذب الكاتب.

"حين كُنّا معا، تبادلنا الحُب بضراوة في سهرات الليل، وحدّثتك عن قلبي، وأمنياتي، ورُحت أغازلك فتضحكين لي خائرة القوى لجمال ما أقول، كُنت أصفُّ كلماتي ارتجالياً بلا موعدٍ مُسبق، فأروي نفسي قبل أن أرويكِ، وأجعل منكِ بطلة صوتي، تكلّمنا عن الحُب، والفراق، والكتابة، والأطفال، والأغاني، عن العباءات، ومنزلك، ونسيتُ أن أقول من أنا، ولأن الأوراق البيضاء هي كمساحات الأراضي التي بلا ملاّك، سأحكي لكِ من أنا، عن طفلٍ صغير رُمي من مُجتمه قبل أن يُعزل في غُرف التوحّد، ذلك الغلام الذي يسير هادئا كسحابة، ويُمطر كغيمة شتائية تُناجي حقول العالم، سأحكي لكِ عن شبابي المُستمر الذي لم تأخذ منه خصيلات السواد سوى مهابة إضافيّة، هل حكيتُ لكِ عن سرِّ

الوجود؟ عن لماذا خُلق الحُب؟ هل كانت ليالي الحُب تلك كافية لأتحدث عن أنا وهيَ، الإنسان والتعمّق فيه؟ لما لقلبي لهفة تمرّد عن أسوار العواطف، ومن أي التُّرب جاءت هيَ؟".

أغلقت الرواية بعد أن قرأت مقدمتها، وذهبت تتأمل من غرفتها نجوم الليل الهادئة، "كُل هذا و لم يخبرني من هو؟! لقد اكتفيت من معاناتي معه، وعذاباتي المتتالية، والآن يُريد مني أن أتمعّن في فصول حكايته". في تلك اللحظة تذكرت تلك الليلة التي جمعتها به أول مرة، وجاء شبح الليلة الأخيرة التي حادثها فيها ليُزيل الذكرى الجميلة، كانت تشعر بالوجع يزداد، وبالحيرة المرسومة على وجهها، تصارع فضول ماذا قال الكاذب الأكبر، وفي الوقت ذاته تخاف من جراح تُبعث من مدفنها البعيد مرة أخرى، ذهبت لتقرأ سورة يوسف، وقرّرت أن تقرأ، لا لأجل الرجوع المُستحيل إليه، بل للرجوع إلى وهج الغموض البرّاق بين دفّتي رواية.

"ابن الحرام، هكذا كان يُناديني قبل أن يُطلق عصاه لتخرّ على ظهري العاري، كُنت استقبل ضرباته متيقّنا بأن ضربة ما ستوقف تعداد الأيام لدُنياي، وستفتّت جسدي المكتوي بتربة الأرض، مع الزمن وُلدت عندي مناعة تجاه ضرباته، في البداية كُنت أبكي وأصرخ، بعد شهر أصبح بكائي دمعا يوازي دمي النازف، وبعد سنة بتُّ أبكي بصمت، بات قلبي ينوح دون أن يدري أحد، وبقي قلبي زجاجا محطّما لا يقوى حتى على كرهه، لم يكن برودي أمامه قوة، كان مجرّد هدوء الضحيّة التي تنسحب بهدوء من كومة الدنيا، الأقوياء هُم من يبكون يا هيَ، الضعفاء يستأمنون الصمت، ويلوذون به ليحميهم، كُنت قويّا بضعفي".

أنا ضعيفة!!، هكذا صرخت في الغُرفة، شعرت بـأن عباراتـه تستفز قلبها، لم تعد أحزانه همّها، بل هي متيقنة أن ما يكتبـه مـن حُزن هو دليل آخر على حسن قرارها بالرحيل منه، هؤلاء ينكّـدون عليك العيشة، في لحظة سكنتْ، تذكّرت دمعته أمامها، حين صـدّ عنها، فصرخت فيه مدوّية (ابكي، لا عليك)، (دعني أرى دموعك)، بكى أمامها، و لم تعرف أن ذلك البكاء هو وداع، في داخله كـان يشعر أن الأشياء الجميلة لا تكتمل، كُل شيء رائع في حياته كـان يغادر على درجات القدر الأولى، حتى فرحتـه بـالخروج مـن دار الرعاية اغتيلت بضربات السوط، وهيَ أجمل الأشياء عنده هـاجرتْ إلى بلاد البُعد.

ذهبت لتعد كوبا من الشاي بعد أن هربَ النوم من غُرفتها، لا تزال غاضبة، وعدت نفسها للمرّة الألف بأن لا تُخدع بشـاعريته، وأكملت القراءة.

"كلنا سنُنسى يوما، لا أحد عصي على النسيان، أكثر النـاس الذين بكيناهم بالأمس، هم أولهم خروج من الذاكرة، كُنت في كل يوم أذهب إلى المقبرة خلسة دون أن تصـل عيـونهم إليّ، كـانوا يحذرونني، تارة بالضرب، وأخرى بخناجر التخويف، لكني لم أكـفّ عن نبشِ القبر في كل يوم، حارس المقبرة كان يعـود ليجـد القـبر منبوشاً، ويتساءل كيف استطعت الدخول، هو وحده كان يعلـم، وكان يردم القبر من جديد، ذلك القبر الذي كُنت سجينه وأنا فوق التراب، والقبر الذي أنتِ سجينته الآن وأنا هارب من قبضة الحُـب، سجن الخيال الذي لا يُرى بمجهر... العالم الموازي... أن تكون ابن حرام هذا يعني أن تُمنع من الحياة والموت معا، يسلبونك الهويـة في

الدنيا، ويقذفونك بالإثم في الآخرة، وُلدت وقدري مكتوب سلفا في قاموس ظنونهم".

لم تفهم شيئا من هذه الكلمات، قبور وقبور، ذكّرها ذلك بقوله ذات ليلة بأنه يشعر بأن موته قريب، كلّما سمعته يكرّر ذلك هرته، إلى يوم تيقّنت فيه أن هذا الرجل لا أمل في تغييره، حاولت أن تفك شيفرة الكلمات، إن كان النسيان فعلا للجميع، إذن لماذا لم ينسها ويخلّصها من عقدة حبّه "أليست هي من كتبتها يوما؟ لا تذكُر"، تساؤلات كثيرة جاءت في مخيلتها، هذه المرة قطعت على نفسها عهدا أن تبقى لساعة زمان تقرأ في روايته، دون أن تشغل بالها في التحليل، كان لها شديد الوضوح حينما كانت معه، ولا تزال تؤمن بأن كلماته واضحة لها، وأكملت تقرأ...

"أنتِ مثلا طالبة في الطب، في هذه البلاد من تُريد أن تُصبح طبيبة لا تزوّج، فالزواج والعمل شعاعان متوازيان لا يلتقيان، أذكُركِ حين توهّج خدّكْ وأنتِ تُسارعين الأحرف في وصفِ أحلامك، أنا الرجل الذي عبثِ عليه رجولته لكذبه، ذاته من وجدتِ فيه مُخلّصا ومُنقذا للوصاية على الأنثى، أحببتُكِ.. كُنتِ مأواي في مُجابهة العيون التي ترتمي عليّ وأنا أخرج من حافلة دار اللقطاء، يهمسون ما بينهم أبناء الحرام وصلوا، كُنت أسمعهم دون أن أنبس بكلمة واحدة، ولا أشكو إلا لبقعة من التراب الذي يُخفي عظاما أكلها الدود، خُلقت لأكون عبثا لألسنتهم، حتى السجن الذي تعفّنت فيه حسناتي لدهر لم يغير من ابتغائي الأنثى سبيلا، قال لي حكيم في السجن: "لا شيء يخلّص الرجل من الألم بقدر وجود الأنثى، وليس هُناك ألم مثل رحيلها عنه". التقيتُ بكِ مباشرة بعد أن عفا عني أصحاب الدم،

عُدت إلى الدنيا من بعد السجن وأنا تائه أطوف الأرض كالعصافير المُصابة، هذه المرّة لم أكن اللقيط فقط، بل صاحب سوابق، لقيط وصاحب سوابق!

من أين يأتي العمل؟ ونحن مُجتمع نطلب الغفران من الله ونرفض أن نغفر لأنفسنا، وندعو الله بالرحمة ونقسو على بشريّتنا، لا نريد من الرّب أن يعاقبنا لقصور، ونعاقب بعضنا، صرخت كثيرا وأن أتوسّل وظيفة، ولكن لا وظائف لنا، كنت أمضي اليوم في سرداب ضيّق محشور في الطابق الأسفل لبيته، جُدران بيضاء زُخرفت فيها أوجاعي، وسرير تهتز مملكته وأنا جالس فوقه أفتّش عن دواء يُعيد الشفاء لعيني، في كل يوم يذكّروني بخطأ لم أرتكبه، وبمنّة لم يمنوا بها عليّ، فأن يكون لي منزل فهذا حق يُعطى، وأن تتم معاملتي على أساس البشر فذلك حق آخر أهم، ولكن من يفهّمهم بأننا مثلهم.

- إلى الحافلات هيّا، يا أبناء الـ...!
- كلنا سواسية عند الله.
- ما بني على باطل فهو باطل!

لكمته بقوّة، كاد أن يشتم، سقط أرضاً بلا حراك، جاءوا إليّ أمسكوني من الخلف، أحدهم من الأمام ضربني على بطني، دوى فيّ ألم جبّار من شدّته لم أصرخ، حدّقت في وجهه كالشارد، كالضائع الذي يتفحّص ملامح الحياة، وكُنت في ذلك الموقف استكشف الحياة التي يقولون عنها إن البشر فيها سواسية، ضربوني أضعاف اللكمة التي وجهتها بحق، كُنت أتمنى أن أكون شجاعا لأقول إننا شجعان في محاسبة الناس على أخطاء لأسباب حقيقية، وجبناء أمام أخطاء أكبر لأسباب وهمية، توقف لساني يا هيَ، ووقّعت بعد ذلك تعهداً

خطياً أن لا أتعدى على المواطنين الأمنين في بيوتهم، وأن لا أحـــرّض على العنف في الشوارع، باختصار كما قال لي المحقّق: "هذا الـــذي ينقصنا، ابن حرام ويتكلّم". وكأن السكوت إثم، والكلام فضيلة عُليا لا نصل إليها.

عوقبت بعدها في غُرفة سمّيت "الكاذب الأكبر"، كانت أشـــبه بجدران أربع بلا سجّاد، وبدون مكيّف، مروحة عتيقـــة تكـــاد أن تسقط إن دارت دورتين، وشُرفة مغلقة، كانت مخصصـــة لعقـــاب المتمردين من أبناء الدار، يمضي فيها المذنب أسبوعا كاملا ينعزل فيها عن عالمهم الحقير الذي يسمى دنيا، ولأننا أطفال فيجب أن نكتـــب "لن أكرر أفعالي مرة أخرى" ألف مرة، لم يكلف مسؤول الدار نفسه أن يتحرّى عن أسباب ذلك، أو أن يجلس معنا ليخاطب عواطفنـــا، كان مشغولا باللقاءات الإعلامية التي تطغى، وفي عقله ألف فكـــرة لتسلم منصب أعلى يترقى له، كان حلمه أن يصبح وزيـــرا لحقـــوق الإنسان من خلال التباكي على عواطفنا، لولا أن سمير قطع لســـانه ذلك اليوم، لكان اليوم معالي الوزير، بدلا من مدير الدار الســـابق، ليت سمير لم يفعلها، فقدري كان يخبئ مع المـــدير الجديـــد جريمـــة أخفيتها بالتعاون معه، وأخرى أخفيتها لكي لا ينال منّي، والأخـــيرة أخفيتها لكي لا ترحلين عني!

....

ركضت وفي أفكاري سيف القصاص يضربُ عنقي، إن قبضوا عليّ فلا قريب تاجر يستطيع أن ينقذني بدفع الأموال، ولن ينظم لي أحد حملة فلستُ ابنا لقبيلة معروفة، سيُحكم عليّ بالقصاص بـــإسمي (عادل) وسيكتبون إضافة لاسمي في صحفهم (مجهـــول الوالـــدين)

لتؤكد التهمة عليّ، سيلتهمونني وسأصبح رقم في تعـداد المقتـولين باسم القانون يوميا، يُصبح تطبيق القانون الهاجس الأكبر، وأُصبح أنا السمكة التي تُطعّم منه، شعرت بحقد على أني سأحاكم برغمِ قضيّتي المسلوبة، أن أكون مجهول الوالدين فتلك قضيّة عليهم لا عليّ، لاحقا أثناء المحاكمة صرخت في وجه القاضي، طلب القاضي مـن أفـراد الأمن إسكاتي بالقوّة، وحكم بعد عدة جلسات عليّ بالإعدام، دون أن يتحقق من الدوافع أو المسبّبات لفعلتي، الظّلم لأجل العدالة هـو حق! لا حق لأبناء الحرام!

كُل حياتي وأنا أركض، ألهث هربا من عيون زمـلاء صـفّي المتربّصة بحالتي الشاذة، وأختبئ من أسئلة عـن القبيلـة والحسـب والنسب، وأتحجج بحجج واهية حين يسألون عن ماهيّـة المنـزل وأصلي وفصلي، رُحت أغيّر مواضيع مهنة أبـي وحـال أمـي، وقصص إخوتي، لم يكن الكذب وليد موقف، ولا حرامـا، فهـذا الكذب هو طوق النجاة، ركضتُ رهبة من فضول يُمسك بقلبـي كخنجر فيقصف روح الحياة فيه بقنابل التصـنيفات الإجتماعيّـة، وجدتُ في الكُتب ضالّتي يا هيَ، كذبتُ وسأكذب وقتما أقـول أن الكُتب صديقة، إن الكُتب أهل لمن لا أهل له، ووطن لمن يتنكّر لـه الوطن، وعادة قبليّة حين تُنسب لمجهول، وحبيبة لمن رحلـت عنـه حبيبته، إن الكُتب ملاذي الأخير، والورق أرحم من البشر، فالصّمت رحمة وقتما يكون الكلام رصاصاً! بعد انتهاء الدوام المدرسي، كُنت أختلس النظرات إلى المدرسة، وأقطع ثلاثة شوارع لكـي لا يـراني أحد، ثم أقف على جانب الطريق ملوّحا لأي سيارة أجرة لـتقلني، وأقول بهمسٍ كالذي يطلبُ الحشيش، "أريد الذهاب إلى دار الرعاية

لمجهولي الوالدين"، بعض السائقين ما إن يسمع هذه الجملــة حـــتى يحسبني صيدا سهلا لشهواته المريضة، منهم من حادثني في موضوعات البالغين وأنا مازلتُ في الإعدادية، وطابور طويل مـــن الـــذكريات لحالات من التحرّش، لا يأبهون لآية الكرســي المعلّقــة أمــامهم في سيّاراتهم، فالدين هُنا يعلّق أمام النّاس ليُخفي فضائح الخفاء.

حادثة لن أنساها، عندما كُنت عائداً من المدرسة، وفي ســيّارة الأجرة، ذهب السائق باتجاه منطقة معزولة، الآخرين كنت أقــنعهم ببعض المال فيسكتون، ويطلقون سراحي، فالمال الذي يدوم أهم لهم من شهوة سترحل، لكنه كان أعمى عن كل شيء، أقفل الأبــواب، وشعرت بأن عليّ الانتفاضة لكرامتي -إن كان لي كرامة- غافلتــه وضربته على رأسه، ركلته بقدميّ، فأمسكَ بملابســي بقــوّة، وراح يشدّها، وأنا أصرخ للنجاة، للحياة، لكُل ما فيّ من أمل يــائس، لله الحمد كانت هُناك سيارة شرطة قريبة من الموقف، اقتربـــت بعـــدما رأت حركة اهتزاز غريبة في السيارة، تركني، وجاء الشرطي يســأل عن السبب، وقبل أن أقول شيئاً.

- هذا الطفل اللعين، رفض أن يدفع المال، أخبرني بـــذلك في منتصف الطريق، لذلك أوقفت السيارة!
- هل هذا صحيح يا ولد؟
- لا تصدقه، لقد كان يحاول التحرّش بـــي، وكُنت أقاومـــه بشتى الطرق.
- هل تصدّق أبناء الحرام يا حضرة الشرطي؟
- أبناء حرام؟
- إنه من أبناء دور الرعاية يا سيّدي، اسأله.

- نعم أنا من أبناء دار الرعاية، لكن هذا ليس موضوعنا.

فأمسك بي الشرطي قائلا: "بل هذا موضوعنا، جميعكم سيئون". بعد ذلك اتصلت الشرطة بمدير دار الرعاية، والتهمة التهرّب من الدفع، وتمّت معاقبتي مرّتين، إحداهما في السجن، والأخرى في الدار.

في السجن كانت هناك غرف جماعيّة، وأخرى انفرادية، أُلقيت مثل الفضلات إلى غرفة ممتلئة، وحده السجن من شعرت فيه بالمساواة، فهنا مطلبهم الأول هو الحريّة، أمام الحريّة يخفت ضوء الحُب، وتنكسر آمال الرفاهيّة، يُصبح الكل فيه أبناء حرام، خرجتُ من الزيارة السريعة وأنا أعرف أمجد الذي كان سببا مباشرا في معرفتي بكِ.

كان أمجد قصير القامة، كثيف الشعر، أسفل عينه اليمنى أثر كدمة كبيرة، وخدوش من ندبات حب الشباب، ضعيف البنية، وصاحب أنف أفطس أكبر قليلا من الحجم المعتاد، كانت المرة الأولى التي أمضي فيها يوما كاملا في السجن، هو الوحيد الذي اقترب مني ليقاسمني الوجبة التي كانت عبارة عن رغيفي خبز، ولبن، مع كوب ماء، لاحظ تكوّمي على نفسي، فجلسَ عندي.

- أهلا يا أخ، ما قضيّتك.
- أنا مظلوم، يقولون عني سارق.
- الكُل هنا يقولون إنهم مظلمون.

فهمت الشك في جملته، استفزتني عبارته، ولكنه أفهمني بأن المساجين هنا وإن كانوا مذنبين فإنهم لا يعترفون بذلك، يخافون أن يشهد عليهم أحد المساجين، قبل شهور جاء أحد المساجين واعترف

بذنبه لسجين آخر، وفي وقتِ التحقيق وبعد عرضٍ مالي لذلك الذي اعترف له، شهد ضده في المحاكمة، فتحول من سجين على ذمة التحقيق والمحاكمة إلى مدان، بعد تلك الحادثة والحذر يعم المكان، ولكن أجواء التعاطف تبقى موجودة، بعدما أفهمني أردف بجملة أخرى.

- والحياة أيضا.
- لم أفهم.
- الحياة يا أخ، كلّنا نرى الدنيا بعينِ المظلومية، كلّنا مظلومين في الحُب، ومظلومين في نصيب الدنيا، وفي العُمر، لن تجد أحدا يقول أنه ظالم فتأنيب الضمير يعذّب عن طريق الصمت.
- لم تخبرني أنك مثقف وأديب لتخرج منك هذه الحكمة.
- خذ الحكمة من أفواه المساجين.

شدّتني طريقته في الكلام، لم تكُن المحاضرات التي تعقد لنا سوى مجرّد حيلة لمجيء الصحافة إلينا، وتذكرها فجأة لنا، خاصة في عيد الاستقلال كنّا نهلّل بإسم قائد المقاومة الذي تحول فيما بعد إلى رئيس للبلاد، ونهتف ونحيّي بإسمه، ونخرج لنعود إلى غرفنا دون أن نستفيد شيئا غير فنون التصفيق، أمجد مختلف، كان قياديّا بامتياز عكس وجهه الخارجي، لم تكن الساعات القليلة تلك إلا جرعة إعجاب إضافيّة، تحوّلت إلى رفقة عمر، ولكن كما جمعتنا قضيّة، فرّقتنا قضيّة أيضا، فبقينا معا إلى حين أن شنقه حبل الإعدام، وأكرمني حبل الله!.

تلك الحادثة كانت قبل أن أعرفك، بالتحديد قبل أن توجّهني الأقدار نحوكِ، كُنت قبل جريمة القتل بليلة مع أمجد نخطّط كيف نبدأ،

عن معابر الهروب بعد قتله، والنجاة، شهوة القتل كما الحُب تتسيّده اللحظة، واللحظة لا غير، فهمت من أمجد بأننا سنطلب منـــه لقـــاء عابراً للحديث عن سر نخفيه، سنتأكد من خلو البيت، ثم سيشـــغله أمجد ببضع كلمات، قبل أن آتي من الخلف وأهجم عليه بقوة وبضربة واحدة بسكّين مخبئة في جيبـــي، لم أبدِ اعتراضا، وكان الإتفـــاق أن نهرب معا إلى منطقة قروية بعيدة عن موقع الحادث، حيث لا يوجد حياة، ريثما نتمكن من جمع المال لندفعـــه رشـــوة لحـــرّاس المعـــبر الحدودي، لنسافر ونبتعد، لكن لم تجرِ الامور وفقا لما خططنـــا لـــه، كُنتِ السبب يا هيَ، أنتِ من أفسد الخطة، وجعلتِ أمجد معتقلا في الساعة الأولى بعد الحادثة، وجعلتني أركض لثلاث أيام قبل أن أسقط في فخّهم، من حيث لا تدرين، سبّبتِ وجودي في السجن ومن بعد ذلك كُنتِ السبب في خروجي.

.....

كانت جذّابة، في خدّيها وميض ملاك يتراءى مـــن شـــامتها المنبثقة من جانبها الأيسر، في حضرتِها يُذيع الجمال بيانـــا يشـــهد بضعفه، في مشيتِها عطر يذوب في أحشاء الأرض فيُنجب ابتسامات البشر، مدوّر وجهها كبحرٍ صافٍ يعكسُ بدرا في لبِّ شهر، أنفهـــا ككرسي إمبراطوري تلتف حوله أقاصي الدنيا، ســـيّدة النســـاء في عينيه، وكُل النساء داخل قلبه، يغرق في عينيها، يسقط من شـــلاّل الواقع ليهبط فيهما آمنا، يُبحر ضمنَ رموشها المنقوشة كبرواز لوحة ربّانيّة وُجدت من تُربة متأصّلة، لا يجد نفسه إلا هائما بهـــا ومنـــها، يتبرّك منهما حماية لقدرٍ يخضع اجلالا لقدرِ حفيدة حوّاء الشـــرعيّة، يعلم أن مثلها لا يُخلق إلا لمرّة، في سرّه كان يُخفي أمنية بأن يتذوّق

العنّاب النابت في أراضيها، كان يحلُم بذلك، كان يسعى لذلك، لكن منجلها القوي أبعده عنها، فبقيَ يستجمع أنفاسها إلى داخله، كأنها هواء رئتيه، تُغضبها شقاوته الرجوليّة، وتكتم ضحكة فتاة متيّمة برفيق قلبها، الحروف الثلاث من اسمها فرشَ لها سجّاد لسانه الأحمر، فلا يخطئ نطقها، ويجعل من كُل حرفٍ ثُلث عند أملاكِ عواطفه التي كتبها بإسمها.

كانت وعد. وعد الحُب المتبخّر بفعلِ صيفِ الخُذلان، ووعدَ قلبه الذي ما شاء إلا وأن يفترس أعماق الأرض رافضا محاولات الخلع من صحراءها، وعدٌ يأخذه معه في حلّه وترحاله، يأمن من شرور الدنيا بحُب الخالق لها، ثبتُت جملته وهو يقول: "وعد يا وعد".

كانت وعد منشغلة في ساعة القراءة لرواية عادل، لم تكُن تقرأ الرواية، كانت تقرأه هو، تُصارع دمعة تكاد تنكشف، شعرت بالشوق له، تُريد أن تكتُب له رسالة، تُريد أن تسقط صفحة الفراق من كتابِ وجودهما، وفي ذاتها صوت آخر يتعالى، هو صوت الكبرياء، الإباء، اللا تراجع، اللا عودة لماضٍ لا يزالان يتبادلان اللوم عليه، هل كان قراري صحيحا؟!... يقول عقلها نعم، يصرخ جزء من قلبها نعم، وتسمع حفيفَ حُب يتسلّق أنفاسها ليقول لا!. شُفيت أخيرا من قُربه، من بعده حقدت على كُل الرجال، وبقيَ من الرجال في عيونها الوالد وشقيقان أحدهما ميّت، وهي الأخت الوحيدة، هيَ التي وُلدت والوطن يعيش حرب قاسية للحصول على استقلاله، كان الوالد على جبهات القتال يُحارب مع ابنه، الأخ الآخر أوصل برسالة لهما بقدوم أخت جديدة انضمت للعائلة عبر رسالة ورقيّة أوصلت بعد أسبوع إلى ثكنات الجنود، مباشرة قال الأب لابنه

- اذهب إلى والدتك حالا وساعدها.
- والوطن!!
- الأمهات هُم الأوطان يا بني... هل تعدني بأن تصل سالما؟
- وعد!
- لقد اسميتها وعد.

وعاشت وعد السنين الثلاث الأولى في فترة الاستعمار، بعد الثورة دخلت البلاد في حالة ركود، انشغل الوالد في الأعمال الإدارية الروتينية، وذهبت هي لتُكمل دراستها، ولتمضي حياتها ما بين المدرسة والمنزل، ساكنة تلجم صراخ ذكريات كانت تحاول جيّدا محوها من نفسها، لم تنسَ حال أخيها عصام المُقعد بعد أن اخترقت قذيفة قدمه اليسرى، أمضى بقيّة الحياة ينزف من جرحِ الثورة التي جاءت بمن هو أشد دمويّة من الاستعمار الأجنبي، ونزيف دمٍ لا يتوقّف، كُتب له أن يُحارب العجز قاعدا، لم يشكِ من لسانه، لكن لسانه أصبح معطوبا ثقيلا على الاستعمال.

تحمّل الألم لخمس سنين، قبل أن يضطر إلى شرب السم وينتحر، يا الله! صرخت وعد وأهلها بقوّة اهتزّ لها عرش الملوك، لم تصدّق وعد أن يقتُل أخيها نفسه بعدما جاهد وصبر في سبيل الله، وفي الأخير قضى حياته في سبيل الشيطان! كيف لمن يقترب هكذا من الجنّة؟ أن تخطفه عصابات إبليس!.

- وعد...
- عصام!! (كانت تسمع صوته للمرة الأولى منذ سنين).
- يا صغيرتي، جميل هذا اليوم، انظري إلى العصافير التي تغرّد، إنها تُشير إليك.

- وما أدراك؟
- أرى ذلك في طريقة تغريدها
- حسنا... دعني أقول لك شيئاً
- ماذا؟
- أخي، جميل هو صوتك.
- بل الأجمل هو صمتي.

كان ذلك في ظهرِ اليوم الذي سبق الإنتحار، فرحتْ وعد كثيرا بأخيها الذي كان يميط اللثام عن صوته، كان بشوشا، فرحا وكأنه ينظر إلى مُستقبل طويل مليء بالنقاط المشرقة، يتهلّل النور من جسده، كيف لهؤلاء أن يدخلوا النار؟! سألت قلبها، ودخلتْ يومها في حالة نشيج.

في اليوم الموالي، وحسبَ التقارير الطبيّة، اشترى عصام سم فئران قاتل معروف عنه إغواء البشر اليائسين من الحياة، كانت حالات الإنتحار كثيرة. فاليائسون كُثر، وأبواب جهنّم مغرية للناظرين، موجة كبيرة من الانتحار اجتاحت البلد. كانوا يحلمون بتحقيق الأحلام بعد الاستعمار، وبواقع تُحيط به ورود الرفاهيّة. ولكنهم صدموا بأن سيقاهم فقدت لأجل العدم، ورحل أصحابهم ثمنا للخواء، وكان هو مثلهم فتشابهت الطرق، ولأنه مقعد استعان بصبي الحي إسماعيل الذي طلب منه عصام هذا السم بحجة وجود الكثير من الفئران في البيت، استجاب اسماعيل لطلبه الذي أرفقه بمنحة عبارة عن كيس حلويات إكراما له، بعد ساعات قليلة وُجد عصام وهو على مقعده، كان صامتا كعادته، مرخيا لرأسه، وابتسامة موتٍ باردة، رجال الدين انقسموا على حاله، قسم منهم اعتبر

انتحاره صك دخول للنار، وقسم آخر رأى في ابتسامته، ونضاله في سبيل الله كما قالوا تكفيرا لذنبه، والعلم عند الله.

شيء واحد حدث بعد وفاة عصام قلب الدنيا على عائلة وعد، بعد الجنازة وأثناء تقسيم الميراث، ظهرت امرأة تُدعى فجر برفقة ولد في الخامسة من العمر، ولأن وجوه القرية معروفة، كان وجودها غريبا.

- يا أهل عصام، هذا وريث عصام!... يا أهل عصام هذا وريث عصام!

نظرات فزعة ارتسمت على الملامح، منهم من أخذته الحميّة، فاقترب قاصدا أن يُمسكها من الخلف، مجموعة أخرى طلبت التزام الهدوء، وسماع التفاصيل منها.

- لقد كان عصام في جبهات القتال حينها، وكُنت أنا من النساء اللواتي يسعفن المصابين، تعرّفت عليه حينها، وتزوّجنا بشهادة إمام المسجد الذي كان بالقرب من موقع القتال، وصديق عصام الذي قُتل بعد شهادته على عقد القران بيومين، أما الإمام فاختفى في خضم الأحداث وبعدما وصلت الصواريخ إلى مقربة من بيته، وأنا مثلما ترون إمرأة لا أهل لها، مات جميع أفراد الأسرة في تلك الحرب البائسة، وتزوّجت بعصام، وشهد مولد ابنه، ولكن بعد الإصابة التي ألمت به كان من الصعب أن يبقى معي، هو كان في حيرة من أمره، كان يعلم بأحوال ما بعد الحرب، لم يُرد أن يسبّب مشكلة إضافية لكم، كان يحرص على أن يرسل المال لي من خلال صديق له، للأسف

انقطعت الأموال منذ ستة شهور، لسفر هـذا الصـديق، سمعتْ بموته وأنا في طريقي لقريتكم مـن خـلال قصـة الانتحار التي انتشرت سريعا.

- هذا كذب، إنها تريـد أن تسـتولي علـى إرث ابـنكم، الكاذبون كثر، فليرحل الكاذبون.

هتف جمع غفير من الأهالي، الأصوات تداخلت ببعضها بعضاً. كانت الصغيرة وعد واقفة، وبالرغم من فداحة الخسارة، كانت ترى كُل العيون مصوّبة تجاه فجر، وحدها كانت تنظـر إلى الصبـي، تضحك له، لا تهمها كلمات الجموع، لم تكن متأكدة إن كانـت تعي شيئا مما يقولونه، لكنها كانت تعي ذلك الرباط بينـها وبـين الصبـي، هم استكملوا جدالهم، وهي استكملت إنسانيتها.

هذه الحكاية، بقتْ سرا، لم تُخبر به حتى عادل، لم تعلم أن هذا السر هو أساس كُل الحكاية بعادل، إلى أن تصل لمفتاح السر الـذي سيقلب حياتهما معا، كانت تقرأ.

....

"قبل ذلك كله... قبل السجن وأمجد.. في طفولتي، كان يـتم تقسيم أبناء الدور على مجموعات، فنذهب فرادى أو مثنى أو ثـلاث لبيت أحد الأنقياء لنمضي معهم الأعياد، أو نمضيها في قصـر مـن قصور الأثرياء الذين يودون إسدال الستار على حياتهم بفعل الخـير، كنّا نُشاركهم الفرحة عندهم بدلا من أن يتعنّوا ليأتوا إلينا، في حقيقة الحال لم يكن ذلك لأجلنا نحن، ولكن الحقيقة أن العاملين في الـدار يريدون إجازة إضافية، وفي وجودنا الدائم لن تكون هناك إجازة لهم، كان فعل الخير ذريعة لتحقّق غنيمتهم، فلابد من سبب وجيه لإخلاء

الدار بأكملها، هذه الزيارات التي تستمر لأسبوع لا تخلُ من مواقف لا تُنسى.

ذات مرّة اخترتُ وحيدا لقضاء العيد مع أبو سامي، هابني منظر البيت الذي تصطف تحته السيارات الحديثة، كان شيئا خلابا تـــنحني له نفسي، خفتُ خاصة أني تذكرت أن هؤلاء الأثرياء لديهم أبنـــاء متحكّمين، متعجرفين، عكس آبائهم الأولين، قال لي ذلك أصدقائي الذين كان لهم نصيب إمضاء العيد معهم، بدا خوفي على وجهي مما جعل خادم من الخدم يقول لي:

- لا تخف يا صغير، ستمضي أجمل عيد.

قُلت له إن شاء الله، ولا تزال عينيّ تجولان في أرجـــاء المكـــان الواسع، أتأمّل مجموعة كلاب تمشي في الحديقة بدون لجـــام يقيّـــد حركتها، مسبح ضخم تلمحه من بعيد، الجو مشمس، هُنا الســـماء سقف لهذا القصر، والطيور حارساته، الطبيعة كلّها تتعاون على رسمِ لوحة القصر، السور الكبير الذي يحيط به، لم يمنع الناس عن التجوال بقربه، بل بعض السيّاح كانوا يلتقطون الصور على مقربة من البيت، عجوز طاعن في السن كان يمشي جوار الحائط، صوته مرتفع لا أعلم لماذا، وهو يقول: "لا بد أنه ابن حلال لذلك بارك الله له".

لم يعلم أن صوته وصل على الأغلب، ولم يعلم يقينا أن هـــذه الجملة شكّلت إهانة صامتة لي، أصابني الحُـــزن في حينـــها مـــرات مضاعفة، أردت أن أعبر، أوقف ممشاه وأطلب منه الاعتذار، أذكـــره بأن الأرزاق لا تقسّم بهذه الطريقة، أن الله ليس مثلهم، مـــؤمن أنـــا به، وموقن بأن الأرزاق تقسّم لحكمة خفيّة لا نعلمها نحـــن صـــغار الخلق.

في شرارة الغضب، طلب منّي الخـــادم العبــور إلى المنـــــزل، وجدتُ أحدهم في غرفة ضخمة يجلس، يقرأ كتاباً ما، من مظهـــره الخارجي يبدو أنه شخص صاحب مكانة رفيعة، تبسّم في وجهي فور أن رآني، جرى نحوي وحضنني بقوة، وقال: "كيف الحال يا بُنَيّ؟". لم أنطق بشيء، حدّقت فيه ببلاهة، ظن أن بـــي خطبا ما فســـألني مرة أخرى ودون أن أجيب، لم أعتد على أن يجري أحدهم نحوي إلا ليضربني، فما بالي وأنا أرى من يحتضنني هكذا بهذه القوة، شـــعرت بطعم الحضن للمرة الأولى، لا أعرف جيدا حضن الأمهات، يقولون عنه جميل، دافئ، يشفط الألم من الجسد، هو ما أحسست به تمامـــا وأنا ألتقي به.

تبدّلت ملامحه، نـــزل ليُصبح على مستوى واحد من الطـــول معي، أردفها للمرة الثالثة وبصرامة أكبر: "هل أنت بخير يـــا بُنَـــيّ"، وأجبته: "طبعا". استراح عندما سمع صوتي، وقال مازحا: "لا تخبـــئ عني صوتك الجميل". يا ترى ما الذي يحصّل، وما الذي يجعل الدنيا مقلوبة، لما بعض الأيام بها كُل الخير لدرجة الفائض، وبعضها يتصحّر السعادة منها إلى حدّ القحط؟! ابتسامة فحضن فمزحة! لا بد أنـــني أحلم. لالا.. لا بد أنني مت، وأنا الآن في الجنة.

هذا الرجل هو الذي قتلته مع أمجد، هو الســـبب المُباشـــر في تعلّمي الكتابة، وبفضله أصبحت صحافيا صغيرا في جريدة محليّة قابعة في أطراف العاصمة، فبعدما حضنني، أجلسني عنده، وقرّب منّي كُتباً كثيرة، المكتبة تتوسّط المجلس العامر، مقسّمة على أقســـام، لم أكـــن أعرف القراءة جيدا، ولكن أعتقد بأنها مجلدات ضخمة مرتبة بحسبِ المواضيع، التاريخ والروايات التي فوقها عبارة (رواية بلا حُب جوعى

قراءها)، والكتب التخصصية، فهذا ما يظهر عليها حتى من دون أن أعي ماهيّة المكتوب، ربما مئات أو آلاف الكُتب، غير العشرات التي تنتظر دورها العاجل بالقرب منه، طلب مني أن أقرأ بصوت عالٍ فحاولت (آل... الق.. القر......)!، تلعثمت كثيرا، تحرّجت منه، لمَ يُجب عليّ سوى أنه أخذ بالابتسام مجددا أمامي، ربّت على كتفي بهدوء مثل طبطبة الممرّضة على الوليد، واصل النظر إليّ بحنانِ المُحتضر، حاولت مجدّدا (القرا... القراءة) وعندما نطقت الكلمة الأولى، قال لي بحزم: "الأموات لهُم التراب مدفن لهم، والموجوعون لهُم الكتابة مدفن لهم!". كان الأول قبل أمجد الذي يُجيب عليّ بفلسفة ضخمة، وجه عباراته وضرب لي أمثلة بأن الكثير من الذين فشلوا في بداياتهم نجحوا فيما بعد، ببراءة الصغار أجبته (وماذا عن الوطن؟). فهم مغزى كلامي، تعجّب من بديهتي العالية، علم بأنني أقصد حال الوطن من بعد الثورة العارمة، والحالة المتردية، فقائدها أول من نهب نجاحها، وجنودها هم أول المنقلبين عليها. فهمس في أذني: "سيكون لك شأن كبير". ثم قام عني، ولم يدرِ أن ذلك الشأن هو أن أكتب موته، لقد كان يستحق ذلك، سأخبرك يا هيَ فيما بعد لماذا كان يستحق ذلك، وأردف بصيغة الأمر: "سيأتيك هذا الأسبوع الأستاذ رفيق ليعلّمك القراءة والكتابة، ستكون لنا لقاءات أخرى". رحل بعدها، وصدق في وعده، ولم أره إلا منكسرا بعدها بسنين!.

بعد ذلك اليوم تغيرت حياتي، فالحياة في عصر الأميّة تختلف تماما عن الحياة بعدها، كان الأستاذ رفيق حريصاً كُل الحرص على تعليمي، تفاجأت وقتما رأيته شاباً في العشرين يضع نظارة، يذهب

إلى كلية الأدب في الصباح، ويعلّم الأطفال مساء، قبـــل أن يصـــبح أستاذي، مجيئي في فترة العيد جعله يتفرّغ لي، بل ويقدمني على جميع المهام المطلوبة، هو صنف جديد من البشر بدأت التعرف إليه، أنـــاس في هذا العالم موجودون دون أن يراهم أحد، دون أن نحس بهم حقا، أناس يتسلّلون إلى داخل الفؤاد خلسة، لينصبوا خيام المحبّة بداخلنا، لا يتوقفون عن منحِ الطيبة كإكراميّة، واصل رفيق حتى بعد نهاية فتـــرة مكوثي في منـــزل أبو سامي الالتقاء بـــي على فتـــرات متقطعـــة ليتأكد من أنني أتابع دروسي في الدار، وأنني في حال جيدة، أخبرتـــه عن قصّتي كاملة بأني ابن حرام، سمعني باهتمـــام، كـــان مهووســـا بالسياسة، يرى في معاناتي سببا آخر للثورة على قائد الثورة، يحمـــل صورة جيفارا، يساري حتى الرمق الأخير من عمره، ويـــؤمن بـــأن الثورة تلد الثورات تباعا، في كُل جلسة لا بد أن يتحدّث عن حرب التحرير ونتائجها على البلد، والمآسي المسكوت عنـــها. ذات يـــوم سألته عن دفاعه المستميت عن أفكاره، فأجابني أن أفكاره جـــاءت بعد تحرٍ مطول عن الحقيقة، كان يمثل بالتمام صورة الشـــاب الثـــائر صاحب الصوت العالي، الذي ما إن يتحدث عما يشغله حتى ينفجر. إنه من سهّل نشر نصّي الأول في مجلّة الثقافة، ابتعد عنّي بعد حادثـــة القتل، انقطعت أخباره، أو بالأحرى اعتزل الناس جميعا، فقد الثقـــة بـــي وبغيري، الإنسان حين يفقد ثقته بالآخرين يعتـــزلهم، يغـــرق بالصمت ولا يشرب سوى كؤوس الذهول.

بعد أسبوع عُدت إلى الدار أحكي لكُل من فيه عمـــا جـــرى معي، وأخبرهم عن الكلاب والعصافير، والحديقة، والقصـــر، عـــن شخص حضنني! عن وجود بشر في هذا العالم – من أبناء الحـــلال–

بهذه الطيبة، أخذتُ أسرفُ في التعبير كمن عاد له النطق مجددا. حلم الجميع بما أخبرهم به، وتمنوا لو كانوا مكاني، وحدي كنت أتمنى أن تطول المدة مع أبـــي سامي، ولأن الأحلام مصيرها الانتهاء، جـــاء مدير الدار ليُفسد حفلة الأحلام، وشدّنا مجددا إلى أرضه البوار. أخذ يصرخ بعُنف ليُعلن عن فيضانات عودته إلى قريتنا البسيطة، لا يرحم أغصاننا الغضة، ولا يرأف بحالِ النفوس المستكينة من بعد عيد، يشتم ليأخذ عزرائيل أرواحكم، لعن الله الحرام وأهله. وذهب كل منّـــا في طريقه. في الحقيقة، ذهبنا جميعا في طريق واحد، الغرفة الميتم، وتبعنـــا هو وزبانيته من العاملين في الدار.

راح يسرد علينا قائمة طويلة من النقاط التي تعني أن الفارق كبير بين الحياة العشوائية في فترة الأعياد، والواقع الذي يليه، وأخذ يتحدث مجددا عن فضله علينا، فهو يترك أولاده، ليخدم في مأوى لأبناء الحرام، وفي هذا تعب وإرهاق شديد عليه، وكذلك يشكل ضــغطا نفســيا عميقا على صحته، حتى إن الطبيب نصحه بالتقاعـــد مبكـــرا نظـــرا لانعكاس عمله على وضعه الصحي، وأخبرنا عن صديقه الذي حذره من لعنة النحس المنتشرة هذه الأيام من طرفنا، يعدّد الأفضال والمناقب، وغيره من الكلام الذي حفظناه لتكراره الدائم، هذا المدير لا يتغيّـــر، دائم العصبيّة، شديد الحساسيّة من أي موقف، لديه هـــوس عجيـــب بالنظام، يخشى أن يتأخر دقيقة عن مخططاته، ولا يجيد التعامـــل مـــع الحالات الفجائية، ويريد تحقيق نظريته في الحياة التي تقـــوم علـــى أن يتحول البشر إلى ماكينات مضبوطة، كنا نضحك منه، ننجو من الألم بالضحك، ونضحك في الليل مختبئين تحت أسرّتنا، وســـيم يقلّـــد ردة فعله وصوته، نحاكي كل ما يقوم فيه بمسرحية، نعيد تمثيـــل المشـــهد

بصيغة كوميدية، نتضاحك على الألم. مرّات كثيرة كان قريبا جدا من ضبطنا بالجرم المشهود بتقليده، ولكن لحسن الحظ، كما كنا بارعين في تقليده، كنا بارعين أيضا في تمثيل النوم، ومع ذلك نخشى الغضب.

– لماذا يا وسيم سريرك متّسخ... الخادمات يشتكين منك؟!

قالها بعصبيْة لوسيم ذات مرة، كان غاضبا جدا، وسيم في تلك اللحظة فقد أعصابه، وصرخ في وجهه:

– الوساخة أنت.

علمنا بأن ضبط النفس في هذه الحالة مطلوب، اشتعل لسان المدير، عصاه التي لا تفارقه لوّح بها، قرّر أن يضربه على تحديه، حذّرنا من أن الإقتراب يعني العقوبة الجماعية.

– ليكن لكم عبرة، أتتحدّى الحلال يا ابن الزنا؟.

ابتعدنا جميعا، لم يتحمّل بعضنا رؤية ما سيحدث، خفنا على وسيم ولم نجرؤ على مساعدته، كان وسيم يعلم أن السكوت ليس علامة رضا، ولكنه إشارة ضمنية بأننا في حالة تردد قصوى، صرخ فينا بأن لا نقترب، كان حسابه عسيرا جدا، ضربه فسقط على وجهه كالمغدور من رصاصة، سال الدم والتحم مع سجّادة الأرض، وكأن بتلك السجادة صبغت باللون الأحمر، فتحوّلت من زُرقة البحر الذي رسمت عليها، إلى حمرة الدم المملّح بالدمع، بماذا كان وسيم يفكّر؟ بماذا كنّا نفكر نحن؟ الأمر عصي على أن نفكّر فيه، فالشكوى هنا لأبناء العائلات، والقانون خُلق لهم، وليس لنا نحن إلا فتات القانون... العقوبات!!.

تركتْ فينا الحادثة خدشا في ذكرياتنا، ومع ذلك مازلنا نضحك. كما قُلت لكِ يا وعد الضحك على الألم كملاعبة الثور،

لحظة واحدة قد تُحيي الجرح من جديد وخطأ واحد قد يلقي بالإنسان إلى البعيد.

آه كيف تذكّرت كُل هذا. صحيح إلى الآن لم أخبرك عن سمير كيف قطع لسان المدير، في صفحة ما سأخبرك.

....

لأول مرة يُخاطبها مباشرة يا وعد، اذن هو فضحها في روايته باسمها، سيتحجج بأن هُناك الآلاف من وعد، ولن يديِ أحد أنها المقصودة في كتابه، عذر واهن لن ينطلي عليها، مشكلتها أنها إن تحدثت فذلك يعني أن القراء سيعلمون أنها وعد المقصودة، وإن صمتت على لا مبالاته، فذلك قد يؤدي إلى تصرفات حمقاء أخرى منه، كل شيء متوقع من رجل يعترف بأنه كاذب وابن للحرام، يُريد الشهرة على حسابي، آخ من الكتّاب لا يتركون موقفا في حياتهم إلا ويؤرخونه في رواية، من قال لها أن تُحب كاتبا؟! والآن بعدما كان الكاذب الكاتب، أصبح القاتل.

لم يدر في خلدها يوما بأن يكون عادل قاتلا، قالت له يوم الفراق بأنه قتل قلبها، وقالت له عندما حاول الاقتراب منها، "سأقتلك". كانت تلك الكلمة الرصاصة الأخيرة التي أنهى بعدها عادل محاولاته، ذات الصوت الذي تلا أحبّك في ليالي الشتاء، هو من قال سأقتلك في نهاية مأساوية لحُب عارم في قلبه، شعر فعلا بأن كُل الطرق تؤدي إلى البُعد المر، وقرّر أن يبوح بكل شيء في فترة صمته، في الحقيقة كان صمته هو أكثر الأوقات ضجّة، يعترف لها بأنه قاتل، هكذا على بلاطة ليُدين نفسه مجددا، رفست الكتاب وأبعدته، وحضّرت كوب قهوة ريثما تفكّر فيما كتبه هذا المجنون.

"هو اذن لقيط! تعيدها مجددا... يا لغبـــائي؛ لقـــيط ومُجـــرم وكاتب، أي نوع من الفتيات أنا وقعت في حبه سابقا؟!، الحمـــد لله أنني منفصلة عنه الآن، فلو استمر معي لربما قتلني". قالتها بصـــوت عالٍ رغم أن الغرفة خالية، هل قالتها لتطمئن ضميرها، أم حاولـــت بصوتها أن تغطّي على صوت آخر بدأ في فرشِ أســـرّته في غُـــرف عواطفها؟ كان عادل مؤمنا أن النســـاء حـــين يُحـــببن، يتجـــاهلن الكذبات، يزيّفن الحقائق، يخفين العيوب، النساء وقت الحُب يُصـــبن بالغلو في حُب الرجال، أما في الكره فيخترعن من القصص الصـــغيرة تفاصيل عظمى، وتصبح كل كلمة كموطن ورم يجـــب استئصـــالها سريعا، لا يُمكن أن تكون النساءِ منطقيّات. أبدا لا في الحُب ولا في الكره.

أرادت أن تستريح قليلا من جو القراءة، والتفكير بعادل، شيء آخر شغل بالها اليوم، والدها كان يسأل عن رواية عادل! لم تعتـــد هذه التساؤلات منه، تلميحات وجهه تبين على أنه يخفي شيئا مـــا، سألته عن سبب اهتمامه، وأجاب بأنه متقاعـــد، وبـــدأ في اقتنـــاء الروايات ليشغل بها وقته، هي لم ترَ والدها يقتني رواية واحدة بعـــد تقاعده، فعن أي روايات اقتناها يتحدث؟!، لم تعلم بـــأن الإجابـــة ستكون قادمة من عادل نفسه!

بعد الحرب كان والدها يتنقّل ما بين عدد من الأعمال الإدارية، "الجنود ليس لهم حياة خارج ميادين الحروب"، دوما يقولها، شـــارك قائد الثورة حربه من أجل التحرير، واليوم هو في غاية النـــدم علـــى ذلك، يشعر بأن جزءا من ذنب وصول هذا الدكتاتور يعـــود إليـــه، خدعوا الشعب حينما صوروا بأن نتائج التحرير أفضـــل، يضـــحك

بمرارة فاستعمار الأجنبـــي أرحم بكثير من حُكم مواطن بلاده، لأنه محظوظ لم ينتحر، في هذه البلاد البقاء على قيد الحياة غريـــب، إن لم تُمت بسكتة قلبيّة، وإن لم تنتحر، قتلتك أحوال الحياة، حافظ والـــد وعد على صلابته، واستطاع أن يكون مختلفا عن أبناءه، هو الوحيـــد الذي ترى فيه القدوة المناسبة لتحتذي فيها، لأنه حرص كثيرا علـــى أن تتعلّم، اعتياده على الحروب منحه هيبة إضافية، ولادتها في أحوال الحرب الصعبة، جعل والدها يشعر بذنب كبير على ابتعادها عنـــه، حاول أن يعوضها كثيرا من خلال مســاعدتها في أمـــور حياتهـــا، وإكرامها بالحرية التامة لأنه يعلم بأن وعد على قدرِ الوعد.

ومع ذلك كُل شيء يحدث في يوم سيئ لوعد، بدأت تتشـــاءم من هذا اليوم الذي يحمل في طياته ما كتبه عادل المختفي منذ شهور طويلة، وسؤال الأب المشبوه، كما انها في الصباح كانت قادمة مـــن السجن الوطني الذي يمضي فيها أخيها أسامة عقوبة السجن جـــزاء تعاطيه للمخدرات، الزيارة التي تركت في نفسها أثرا ســـيئا بعـــدما رأت وجها سوداويا غارقا في الخـــراب، أســـامة أصـــبح مروجـــا للمخدرات بعدما وصلت البطالة له، شهادته الجامعية الـــتي حصـــل عليها من أرقى جامعات باريس لم تساعده علـــى الحصـــول علـــى وظيفة، بقي ينتظر دوره من القدر ولكن بلا جدوى، الجريمة خير من البطالة، كان يأتي كل يوم بالأموال، يصرف على نفسه ببـــذخ، في تلك الفترة كان الجميع سعداء بما يحققه أسامة، كانوا يقولون إنهـــا (التجارة الحلال) هي سبب الرزق الوفير، وحدها من ســـألته عـــن مصدر الثروة المفاجئة ما بين ليلة وضحاها، فأجاب بأن ذلـــك مـــن فضل ربـــي! "الحقير كان يستشهد بآية ليبرر فعلته"!!، تقول ذلـــك

وفي قلبها الكثير من الطعنات، تتذكّر جيدا اليوم الذي داهمت فيه الشرطة منزلهم للقبض عليه، خاف الجميع، لم تصدق وعد بأن أخيها هكذا.. أو إنها صدّقت لأنها ماعادت تثق بالرجال.. لماذا الأخ الأول خدعها وانتحر بعدما لاعبها، ولماذا الأخ الثاني طمأنها بأن طريقه حلال، لتُصدم بأن الحقيقة مختلفة، والأدهى لما حبيبها السابق يكشف الآن بأنه ابن حرام وقاتل، هل مُشكلتها بأنها ولدت إمرأة وسط رجال، أم كُل الرجال مخادعون؟

أسئلة وأسئلة، "رأسي سينفجر"، ضغطت بكلتا يديها على رأسها، أمسكت شعرها بقوة، ودمعت، بكتْ إلى حين، أحسّت برغبة ملحة بحاجة لاخبار أي كان عن الهم الذي يعتمل في صدرها يختلج، الجدران الصامتة تقتلها، ووالدها من المستحيل أن تخبره، ووالدتها العجوز لا تسمع شكواها، هي تحتاج فعلا لمن يداويها بالسماع، منذ شهور وهذا الشعور لم يأتها، لم تكن قوية بما يكفي لتحمّل كل صدمات هذا اليوم، أخذت هاتفها لتتّصل على رضوى صديقتها، هي من تحكي لها أسرارها منذ سنين طويلة.

كانت رضوى زميلة لوعد في مقاعد الدراسة، فتاة سُمرتها كتُربة شاطئ، قصيرة نوعاً ما، صاحبة شخصيّة حاسمة، شعرها طويل لا تخشَ من أن تظهره في كُل المناسبات، عنيدة بطبعها والشباب يحذرون عندما يتعاملون معها، لا تتردّد في قول اللا عند اللا، هذه الشخصية جلبت لها المشاكل خاصة بعدما قادت مظاهرة طلابيّة رفضا لأوضاع البلاد، من النوع الذي لا تجد عنده الحُب والعاطفة، بل القيادة والقضايا، كان عادل يكرهها، يرى بأنها ساديّة، لا تعترف بصوت القلب، هذا الكره المتبادل شكّل حرب باردة جمعتهما،

انتهت بانتصار رضوى التي أعادت القول "قُلت لكِ إن عادل كاذب، الآن صدقتِ بأن حدسي صحيح"، بعدها أصبحت وعد تتعامل مع أقوال رضوى كحكم قاطع لا يقبل الطعن فيه، وحقيقة مُطلقة لا مجال للشك حولها.

- رضوى، عادل كتب رواية.

قالتها كأنها تبعث ببرقية عزاء إلى صاحِبتها.

- الكاذب الأكبر سبحان الذي يُحيي الأموات، ألم يمت بعد، طيّب ماذا قال؟

كانت مصدومة إلى حدٍّ كبير، لم يعتد أحد بأن يخلّف الصمت لغماً مدوياً ينفجر بعد كل هذه الشهور، كانت تظن أن يأسه من بعد المحاولات، كافي ليُبعده للأبد، ولكن يبدو أن عادل مختلف عن غيره من الرجال، أسرّت في قلبها دعوة بأن يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وواصلت الاستماع لوعد التي تنتحب على الجانب الآخر من الخط الهاتفي.

- مازلت أقرأ الصفحات الأولى.. يقول إنه ابن حرام، وقاتل.. لا أفهم شيئا.

- هو ابن حرام منذ يومه الأول بدون أن يعترف.. لا عليك، سآتي إليك بعد قليل.

إلى حين وصولها، "لما بعد كُل ذلك هُناك حنين؟! هل يعقل أنني بدأت بالتعاطف معه؟". المشاعر التي وأدتها كثيرا تُظهر لسانها لها بكبرياء، هي التي عرفت جيدا كيف تكتم عواطفها، اعتقدت بأن بُعده سيأمّن قلبها من لحظات كهذه، لكن ما إن تقرأ سطوره حتى يخفق قلبها له، تارة بالحُب، وأخرى بالكره، قطع عليها الأفكار مجيئ

صديقتها، جاءت رضوى مُسرعة، وطول الطريق تلعن الرجال والذي جاء بهم على حد قولها.

ماهي إلا لحظات حتى التقت الصديقة بصديقتها، ارتمت وعد في حضنها باكية، ورضوى تردد: "لستِ بحاجة لأحد، لا تتأثرين بأوراق، والله الرجال هُم الرجال حتى لو أهدونا روايات".

وأخذت تذكرها بأنها أعلى مرتبة اجتماعيا من هذا العادل، وكونه ابن حرام فهذه الضربة الأخيرة لأي احتمال للعودة، لم تشعر رضوى بأن ما تقوله هو خلاف للشعارات التي تُنادي بها في المظاهرات، عن العدالة والمساواة، وأهمية الكرامة الإنسانية، ضربت كُل شعاراتها عرض الحائط في لحظة عري للحقيقة، الموقف الأخير الذي جمعهما كان في ممر لأحد الجامعات، حضر عادل لأمسية نظمتها رضوى، أراد أن يحضر ليواجه، لا يخشَ من أن ينطق الحقيقة في عقر دارهم، جلس في الصف الأول، واستمع إلى ما قاله الاتحاد الطلابي من موعظات حول أهمية الاحتجاج السلمي على القرارات في البلاد، فجأة صاحوا جميعا (الثورة الثورة)، أخذ ينظر إليهم بصمت، لا يعلّق، مُنتظرا أن ينهي الجميع كلماتهم وشعاراتهم قبل أن يُطلق مدفعه إلى أراضيهم.

وجه كلمته مباشرة إلى الحضور وإلى رضوى تحديدا، بأن كُل الأحزاب تُنادي بالوصاية على الآخر وتنسى نفسها، وبدلا من لوم الآخرين على اخفاقات البلاد يجب تصحيح الأوضاع من ذواتنا، وقال: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**...﴾، هذا القوم، أما الوطن فلن يتغير وإن كانت قيادته ملائكه وما دام شعبه إبليس، غضبت رضوى من هذه الكلمة، وصرخت: "هل

تصف الشعب بأنه إبليس يا مرتزق؟".، وأردفت: "انظروا إلى لاعقي أحذية قائد الثورة، يرى بأن قائده ملاك". وصرخت بسخرية، وقف عادل وغادر مردداً: "الاتهامات المعلّبة دائما جاهزة، لاعق سلطان، حذاء، بوق، كيف لثورات أن تنجح وهي تخشى من انتقادها؟! ثورة لا يُسمح فيها إلا بالمديح هي ثورة هشّة"، لم يلتقيا منذ ذلك اليوم، كُل منهما تحاشى مصادفة الآخر في الممر، وعد حاولت أن تُصالح بينهما دون جدوى فالهوة الفكرية بينهما سحيقة، واليوم استغلت رضوى هذا الماضي للتنبيش فيه، "الكاذب هو كاذب في كُل شيء، لابد أن آراءه تلك التي قالها في ندوتنا هي من وحي كذبه، ويريد من خلالها أن يحصل على صيت في أرجاء الجامعة"، لو رأيته لخلّصت الأرض من شروره، واصلت كلماتها عن أحقية الصديقة بالهدوء، حملت كتاب عادل، راغبة في تمزيقه، وحرق كل نسخه، في حرق عادل نفسه، فيكفي ما سببه لها وقتما كانا معا، والآن يزيد الوجع بأوجاع أخرى، لكن رضوى مثل وعد تُريد أن تقرأ، ففتحت الكتاب وراحت تقرأ الصفحة التي وصلت لها وعد، تقرأها بصوت يصل لوعد، حتى لا تتألم لوحدها، وجودها معها سيخفف العذاب.

....

"صُراخ أيقظنا ونحن نيام، فزعنا، حسبناه صاروخ قادم من البلد المجاور، يُريد أن يعيد الاستعمار من جديد، البعض استعجل وقال الحرب الحرب!

في تلك اللحظة، كُنت نائماً، أحلُم بما لا يُمكن تحقيقه، ما فائدة الأحلام لو كنّا نرى فيها المُمكن؟ وُجدت الأحلام لتكون أرض التحقيق لكُل مستحيل، حلمت بأن لي عائلة أحمل هويّتها،

ينظر إليّ الناس باعتزاز وقتما يسمعون اسمها، نتجمّع في الأعياد لنحتفل، نُدافع عن بعضنا في أوقات المصاعب، حلمت بوجودي في بيت، توقظني أمي لأقوم لأداء صلاة الفجر، ويربّت على كتفي أبي وهو يُهديني وسام النجاح، أخ أُشاركه كعكة أمنياتي، وأخت أضحك لها فتُضحكني نكاتها، لكن كُل هذا تبدّد في مُباغتة الصرخات، (ماذا حدث) أول ما قُلته وأنا أسمع الأصوات، كان يأتي الصوت من أسفل، يا الله هل هي جريمة قتل؟! أم أن هُناك من هرب من الدار؟ لم أعرف أن الأسوأ قد حدث إلا بعدما نزلت إلى الأسفل عبر الدرج، كانت الرابعة فجرا، الوقت مبكر على أن نقوم من النوم، السواد في كُل مكان، لا يُضايقه إلا بصيص نور، جميعنا صُعقنا للمشهد، في البداية لم أصدق ما رأته عيناي، خُيّل لي أنه حلم، قرصت نفسي و لم يتغير المشهد، هو ذاته لم يتغير.. دماء غزيرة تتسرْب من فم المدير، يحبي على الأرض متألما، لا يستطيع أن يتحرّك، لا أحد يساعده، الصدمة حلّت بنا فأصابتنا بشلل مؤقت في أطرافنا، هذا المدير الذي كان في الليل يهدّدنا بالعقاب الجماعي، أصبح بعد ساعات كحشرة تقاوم إصبع بشر، أتى الحارس الذي يسكُن في المحيط الخارجي للدار، حمله سريعا إلى المُستشفى، ونحنُ في سكُرتنا جامدين، كُل شيء كان متوقّفاً، "هل سيموت المدير"، همس بها أحدهم، وقال آخر: "من الفاعل، ماذا حصل"، لا أحد يدري، تطلّب منا استيعاب بأن سمير ليس معنا نصف ساعة، كُل شيء كشف، سمير هو الفاعل، فهو الوحيد الذي ليس هنا. متى هرب؟ لم يسأل أحد فكل أنظارنا كانت على المدير، ولا بد بأنه تسلل مستغلا تلك اللحظة ليهرب، خاصة أن الحارس قد ترك غرفته الخارجية.

سمير الهادئ الوديع، أكثرنا صمتا أمام المدير، الذي لا يتكلّم إلا بضرورة، كيف فعلها؟! من أين جاءت هذه القوة لتحمله على تهشيم لسان المدير، سُبحان الله صام وصام وفطر على لسانه.

جاءت الشرطة إلى المنزل: "يا أبناء الحرام، ماذا تعرفون عن الجريمة؟". لم نُجب.. كان يحمل سيجارة، بصقها وبكلتا قدميه دفنها تحت نعليه، وأعاد الصراخ: "يااااا أبناء الحرااااام، تكلّموا!!". طلب من مساعده إحضار العصا التي في سيّارته، لوّح بها أمامنا، جعلها ترقص في الهواء، ولأن الخوف تملّكنا، قال أحدنا بأننا كنّا نيام، ورأينا ما رأيناه بعد سماعنا الصراخ، وأن أحدنا ليس هنا، الأوامر عُمّمت أن يتم القاء القبض على الصبي الهارب من القانون، المشرّدون لا مأوى لهم، سلّم سمير نفسه بعد يوم واحد فقط، والسبب أن الجميع أرادوا استغلال حالته، حتى شيخ الدين الذي لجأ له، لمّح له بإشارات خارجة، فهم منها بأن البلاد لا دين فيها ولا أخلاق، "أولاد إبليس لم يساعدوني". قالها لنا من خلف القضبان، كنّا نُطلق على أبناء المجتمع *أبناء إبليس*، فلنكُن أبناء حرام، وليكونوا هم الأبناء الشرعيين لأشر خلق الله.

في داخلنا اعتبرنا سمير بطلاً قومياً، هُو مقاوم، استطاع أن يثأر لنا جميعا ويضحي بمستقبله لأجل راحتنا، "ليس لي مُستقبل حتى أخاف عليه". كان جوابه للمحقق عندما سأله عن دوافع الجريمة، حُكم عليه بالسجن المشدد لعشر سنين، لأنه قاصر في عُرف القانون فأقصى عقوبة له هي عشر سنين، لو كان بالغا لأمضى كُل حياته في السجن، عموما هو لم يعد في السجن الآن، فأول ما فعله بعد الإفراج عنه، هو الاشتراك في نهبِ بنك عام، غير متأكد بأن ما يفعله

جرم؟ أشعر بأن الدافع الحقيقي خلف ذلك هو الحنين إلى السجن، على الأقل هُناك لا ينظر له أحد بانتقاص.

كابن حرام أستطيع القول إن كُل شيء ضدنا، الإعلام ضدنا، كتبوا المقالات ضدّنا، (لا أهل لهم، لما نتحمّل آثامهم)، (الوطن أولى بأبناءه لا أبناء الحرام)، الناس ضدنا، هُم يحكمون علينا من ردّات الفعل، لا يسألون عن الفعل الأول، جرائم البعض منّا هي عين العدالة، نطبّقها بأنفسنا، عندما يعُم الظلم تُصبح الجريمة حلالاً.

"عاهة دائمة، خرس لا علاج له، لن يستطيع التكلم طوال حياته". ملخّص تقرير الطبيب الذي حُوكم على إثره سمير، المدير فقد حاسّة الكلام، وفقد الحياة، رأيته بعد ذلك بسنوات وقد أطال لحيته، "الملعون، الآن عرف حُكم ربه". أسررتها في نفسي، لم أره في صلاة قط، لكن الحادثة أعادت له ترتيب أولويات الحياة من جديد.

بعد أيام قليلة، جاء المدير الجديد، كان أكبر سناً من المدير القديم، بعد أن وصل صيت الجريمة إلى كُل أنحاء البلاد، قرّرت وزارة حقوق الإنسان بأن يتولى إدارة الدار شخصية كُبرى، لها تجربة كبيرة في الحياة، لا طموح لها لتولي وزارة، وبذات الوقت تستطيع أن تتعامل مع *أبناءِ الحرام المُجرمين*، كان أحد الجنود القدامى الذين شاركوا في حرب التحرر من الاستعمار، أُحيل إلى الأعمال المدنيّة لإصابة ألّمت به، ما خشيناه أن يتم تعيين شخص أشد، وتذهب جهود سمير سدى.

- أعتقد بأنهم سيتشدّدون معنا الآن.. سامح الله سمير!
- لا لا، سمير قام بما يمليه عليه قلبه، وبإذن الله نتيجة الجهود راحة في الدار.

- وأنت ما رأيك يا عادل؟
- لا أعرف، لندعو الله

"انــزلوا... المدير الجديد وصل". قالتها أحد الخادمات.

على شكل دائرة تشكّلنا، كان المدير الجديد، يمــلأه الشــعر الأبيض، تجاعيد كبيرة في وجهه، يلبس بنطالا أسود، وقميصا أزرق، متوسط الطول هزيل البنية، لا يأكل كثيرا أو أن هناك عطب مــا في معدته، عينه اليسرى أصغر من اليمنى بوضوح، ربّما هي جرّاء إصابة قديمة، سلّم علينا ثم ابتسم.

- أنا المدير الجديد، لستُ هنا لأذكركم بما حصــل للمــدير الذي سبقني، ولا أتمنى أن أخرج من هُنا وأحد أعضــائي مرميّة في أحد زوايا المكان (ضحكنا بسخرية من حالنــا)، فتابع لا أتحدث عن ظروفكم التي أدت إلى مجيئكم إلى هذا المكــان، قابلــت آلاف النــاس مــن آلاف الخلفيّــات الاجتماعية، ولا أريد إلا أن أترك الأثر الإيجابــي فــيكم، شاركت في تحرير البلاد حتى يتحرّر أمثالكم من كُل القيود بلا استثناء، ساعدوني ليُساعدكم الله.

جميعنا نُنصت له، يملك كاريزما عجيبة في الكلام، يُجبرك على الاستماع له حتى النهاية، يعلم جيدا كيف يوزع طبقــات صــوته فيتكلّم بنفسٍ موسيقي متنوّع المستويات، بعد جملته المقتضبة طلــب منا أن نجلس جميعا، لا يريد منّا أن يُتعبنا بالوقوف، بــل أن يــزرع روح الألفة من اللحظات الأولى، جلســنا ســريعا مُنقــادين لــه، وقال:

- الحُب، ماذا تعرفون عنه؟

ابتسمنا، لا نعرف عن الحُب إلا أنه شيء رومانسي، يجمع ما بين المرأة والرجل، أو أحيانا ما بين المواطن وأرضه، ما أبعد هذا المدير عن غيره، فالسابق دخل علينا بلائحة القوانين المتبعة التي يجب طاعتها، وهذا أول سؤال له عن الحُب!!.

- يا صغار الحُب منح بلا عطاء، وطني الذي أحببته، وشاركت في الحرب لتحريره لم يعطني غير التعب والهوان، ومع ذلك استمريت في حُبه، هذه الأرض العاقة لسكّانها، التي تتعالى عليهم فترمي شعبها من سهامِ عشقهم لها، وتغدر بهم مكلّلة جريمتها بالقضاء عليهم موتى في أعماقها، وبرغمِ هذه الحالة الميؤوس منها إلا أنني أواصل العمل لأجل إعلاء البلاد.

"الحُب الذي يجعلنا نضحك بلا هوادة، هو ليس بحُب، والدنيا التي لا تعطينا من آلامها ليست بدُنيا، الحُب عُمر نمضيه للإمساك به ولا نجده، تذهب مُتعة الحُب بتحقيقه!."

الحقيقة أنه لم يقُل آخر جملة يا وعد، بل أنا من قال هذا، هو توقّف عند الحديث عن الوطن والحُب، وأنا أتممت الرد لأصل لكِ برسالة، مجيئه كان سبباً مُباشراً في أن أجد الحُب في الوطن، أو أن احتفل به بعد جريمة، لا يهُم ماذا نُحب، جارحاً أو مجروحاً، ظالماً أو عادلاً، قويّاً أم ضعيفاً، وفياً أم خائناً، نحن نُحب الحُب لأنه حُب، ولا نحبه لمعناه، مثل الأبناء الذين يحبّون آباءهم لأنهم آباءهم، ومهما عشنا مع غيرِ آباءنا سيبقون هم الآباء.. المدير الجديد جاء بالحُب إلى دارنا، وما ترك الدار إلا وأنتِ في قلبي، كان يمنحني الألعاب، ويلعب معي أحيانا، علّمني الشطرنج وتكتيكاتها، أخذني إلى ملاعب كرة السلة لحضور المباريات الوطنية، نشأت بيني وبينه علاقة خاصة، لا

أعلم من أين بدأت، كان كُل يوم يحرص على الالتقاء بــي ليحادثني عن ذكرياته في الحرب، والمدى الذي تركته فيه تلك التجربة، يخبرني عن الحروب وكيف أنها تجعل الحياة قزمة في عيــون الــذاهبين إلى الموت، تُصبح الحياة عندهم لحظة مغيب لشمس، كيف كان يستقبل القدر المحتّم، ويتأهّب بكامل بدلته العسكرية ليرحلَ معززا مكرمــا، رُزق زملاءه الشهادة واستمر هو يبحث عنها، رأى النصر، وبعــدها أطلّت الهزيمة كشبح ليلي عليه، بيد أنه فخور بأن البندقيــة كانــت درع روحه في الماضي خاصة ونحن الآن في زمن الانتصار للطوائــف عوض الانتصار للأوطان.

يحكي لنا أننا نشبه أولاده في الكثير من الملامح العامة، ويستمع إلى كُل مشاكلنا مهما بلغ الملل في تفاصيلها، أو التعقيد في حلــها، كان يغرس بحق فينا الحياة، منّا اليوم من يطبق نصائحه، ومنّــا مــن نساها في دُنيا لا تمنحنا مساحة لنتذكر فيها الماضي الجميل.

لقد تغيّر الحال في الدار، أصبحنا نذهب ســويا في رحــلات جماعيّة دون أن نسمع الشتائم، هذه الفترة شعرت بأني إنسان مكتمل الأركان، نذهب إلى الملعب ونشجّع، وفي مرات أخــرى نـــزور مدينة الملاهي، إلى درجة أننا نسينا *أبناء الحرام*، الدفء أصبح الجــو السائد في الدار وكُل الفضل للمدير الجديد.

كُنت أعرض عليه خواطري التي أكتبها، فيضحك كــثيرا ممّــا أكتُب، ويقول لي حاسماً: *ستُصبح كاتباً كبيراً*، وفي أحد الأيام جــاء لي بورقة مكتوبة بخط اليد، مقطوعة من دفتر، وكُتب فيها:

"أبــي الحبيب، أُهديك في عيد الآباء وشاح الصّدق، وأطــوّق عُنقك بقلادة قلبــي، أحبّك يا كُل رجالِ الدُّنيا، وأرى في مبسمك

تفتّح وردة ربيعيّة، وعند صوتك ألمح كمان البحرِ معزوفا بمقطوعة صوفيّة، وأدسُّ جسدي في حُضنك فأرتوي من وقود أمانك، وآخذ منك وصايا الزمان، لكَ مني هذه السطور مع كُل قلبي لكْ.... ابنتك وعد".

هذا المدير الجديد هو والدكِ أنتِ...!!

.....

طرف آخر يدخُل إلى هذه القضية، رضوى صاحت: "ابن الحرام فضحك رسمياً". وعد كحالِ الغريق في مُحيط، لا مراكب من حوله تنقذه، ولا أسماك تخفّف عليه وطأة العذاب، ماذا يريد عادل من كتابة رواية فيها كُل كذباته؟ ألم يكتفِ بعد من كُل تلك الكذبات التي صدرت منه؟ ماعلاقة أحب الناس إلى قلبي والدي بهذا المجنون؟ ربطت سريعا ما بين سؤال والدها عنه، والصفحة التي قرأتها رضوى عليها.

هي علاقة قديمة ما بين عادل ووعد، لم تكُن وليدة الأول من نوفمبر قبل ثلاثة أعوام كما ظنّت هي، بل علاقة بدأت منذ زمن طويل، تعرّف عليها وهي تكتُب في حصّة تعبير رسالة للوالد، وتعلّق فيها لعدة سطور كتبتها في الحُب، شعر بأن الأوراق تخاطبه، لم يعلم والد وعد بأنه يكتُب لهما قصّة من الحُب السرّي، هو وضع حجر الأساس لها، هذا الولد الصغير، المجنون، الذي دخل السجن وهو طفل، يمتلك قلباً كبيراً يقوى على الحُب.

اللقاء الأول الذي اعتقدت وعد بوجوده، هو في معرض أُقيم لطالبات الثانوية بالمحافظة، جاء عادل وقتها، كصحفي يُريد أن يقابلها لأجل مقابلة في جريدة، كانت تعرض صناعاتها اليدوية، هل

كانت صدفة قدريّة، أم خطّة مدبّرة ترصّد فيها عادل حركات وعد وجعل اللقاء مجرّد ستار يتخفّى فيه ليجدها هذه المرة من شحم ودم، لا من كلمات وورق، في حقيقة الأمر كان عادل يخطط مليّا، استغل بطاقة العمل الذي وجده بعد جريمة القتل والخروج في الوصول لهـــا، تماما بعد الخروج من السجن بستة شهور، أراد بفعلته أن يبحث عن الفكرة التي وُجدت وحيدة في مخيلته، وهو يقترب من حُكم الإعدام، فكّر في التي قرأ لها قبل سنين ثلاث سطوراً، فأشـــعلت في حـــدوده عواطف ثائرة مدبّسة بورقة الأحوال الصعبة، الحُب المتخيّل الـــذي نجّاه بفارقِ قدر عن مصير أمجد.

في اللقاء اقترب عادل الذي يرتدي بدلة بنيّة، بشعر طويل أقصر نسبيّا من وعد، حيّاها وحلّق في عينيها، كان تحليقا لا تحديقا، قـــال لها بعد أن أصبحا حبيب وحبيبة: "نحن نحلّق في عيون مـــن نُحـــب، التحديق للغرباء فقط". كان يمتلك لسانا فصيحا، لا تعلم للآن هـــل الفصاحة أتت من معلمه رفيق أم أمجـــد، أم مـــن آخـــر؟ ضـــائعة فالرواية غيّرت لها كُل ما تعلمه، هي من تشبّثت بفكرة أنهـــا تعلـــم كُل شيء عنه، أصبحت اليوم مُدركة بأن مقدار معرفتها بعـــادل لا شيء.

في اللقاء، وجدته شابا جميلا، يمتلك من الوسامة ما يجعلها تتمنّ أن تُصبح سوارة في معصمه، رغم كُل الخذلان من إخوتها، إلا أنهـــا أحسّت أنه قريب إلى والدها في أشياء كثيرة، كـــان يســـألها عـــن المعرض، ويبتسم ابتسامة حقيقيّة، هي أنثى تستطيع أن تفـــرّق بـــين ابتسامات الصفر الكاذبة، والابتسامات البيضاء، واليوم عاجزة عـــن التمييز ما بين الحروف الكاذبة والصادقة.

مقابلتهما الأولى حوت ابتسامهما معا، نظرت إليه من مسافة أمتار، أحسّت بأنه قريب لها، لليوم هي في غاية الحيرة إن كانت ابتسامته صادقة، أم عبث ذكوري محض يمارسه الرجال للإغواء، معالم وجهه شديدة الوضوح، كان صادقا.. أبناء الحرام لا يصدقون في شيء!!.. الكتّاب لا يصدقون في شيء!.. الرجال لا يصدقون في شيء!!، ضجّة في قلبها، تخيّلته وهو في صغره دون قلب يحتويه، الآن عرفت لماذا كان يقول لها يا *قلبي*، كان يرى فيها قلباً يلوذ به للاحتماء من دقّات الماضي، يُغازلها *خندريسي*، يقصد بأنها سُكره الذي ما إن يتناول كلماتها حتى يسقط عاشقا في كؤوس الحُب، يا الله ارحم حالي!.. يا الله بصّر قلبي واجعلني أحبّه إلى أقصى اليمين، أو أكرهه إلى حد الانتهاء، مهما ارتفعت أصواتها، يبقى فيها همس الماضي مستمرا.

بعد الانتهاء من اللقاء البسيط، طلب منها عنوان بريدها الإلكتروني، أعطته إيّاه، وبعد يوم كامل، وصل لها على بريدها الألكتروني رسالة (الأخت وعد، مُبارك لكِ النجاح في معرض الصناعات اليدوية، تمنياتي بأن يحلّ الفكر علينا صديقا، فنتنفسه آناء الليل، ولننظر إلى النجوم وهي ترتكن في زوايا الكون هامسة لنا بقصائد المحبة، كوني هُنا.. فأنا هُناك!.. عادل)، كانت رسالة شاعريّة اللغة، تتذكّرها ولا تعلم كيف تفسير أن ابن الحرام هذا يستطيع الكتابة بهذه الحرفيّة، كيف يقول إنه لم يتعلّم، وكيف يدّعي أنه سجين سابق، وقاتل أيضا! وهو ذاته من كتب هذه الرسائل.. كما خدعها سابقا يستطيع أن يخدعها دائما.. أيّهما الخدعة هيَ أم هُو؟ سأل ضميرها!

- يبدو أن عادل يخبئ أشياء كثيرة، ما رأيك بمقاضاته قانونيا؟
- أريد مقاضاته قلبيّا على أتعابي يا رضوى، وهل يعيد القانون حقوق قلوبنا المسلوبة؟
- على الأقل ستثأرين منه، الآن هو سعيد لأن الجميع يقرأ روايته، لا بد أنه سيحقق أرباحاً كثيرة، ابن الحرام يستغل قصصه لأجل الشهرة والتربح، لو كان صاحب ألم حقيقي لما فعل كل هذا، غايته الوحيدة هو أن يصل إلى القمة التي يسعى لها، لأجلي لا تسكتي على حقّي.
- والله هدّدته... حذّرته... أخفته.. أرسلت له الرسائل.. ولا يتعب!.. ولا يستسلم!.. هذه المشاكل الآن صغيرة، مقارنة بوالدي الذي لا أعلم ما علاقته بالقصة.
- يكذب!!.. لا تنسين بأن الروايات فعل كذب يقوم بها أُناس يحترفون الخديعة.

طرق الباب والدها، فتحت رضوى له الباب.

- ماشاء الله رضوى في بيتنا، أهلا وسهلا.
- أهلا يا عمْ.. انظر إلى ابنتك المسكينة.

كانت في حالٍ مريعة، الدموع تغسلها، وثيابها غارقة بسائل قلبها، احمرار وجهها الذي يكاد أن يحترق بحرارة الحُزن، شرارات الكتاب داهمتْ شعرها الذي سقط على كاملِ وجهها، فتلطّخت الخصلات من نزيف الورق الصامت المُتحدّث، والذي ما إن اجتمع في غرفتها حتى نسج خيوط الذكرى من جديد كعنكبوت سريع يستعجل بناء بيته.

- وعد، من مات!.. ماذا حصل؟.

صرخ الوالد الفزع، في داخله كان يُدرك بأن الحُب وحده من يفعل ذلك، رواية عادل هي من انتجت هذا.

- لم تنطق بشيء، لوّحت إلى الكتاب كأنها تلوّح لجثّة هامدة أمام شرطي.
- توقّفي الآن، اغسلي دموعك، وعودي إلى هنا، سأخبرك بقصة عن حرب التحرير.

اعتاد والد وعد في صغرها أن يقول لها هذه القصص ليُشغل مخيلتها ولكي يكون قريبا منها ويعوّضها بُعده الفائت، كانت أحيانا ترجع من المدرسة وهي شديدة الغضب من موقف ما، أو معركة مع بعض الطلبة في صفّها، ليحتضنها الأب، كانت أمها تكتفي بالسماع من المطبخ، وتحضر ببعض التعليقات الإضافية.

- لست صغيرة، ولماذا تحكي لي؟ هل ستحكي ذات القصص التي كُنت تقولها لعادل؟.

للمرّة الأولى تخرج عن صمتها، تضرب بقوّة على ما يُشغلها، لم تعُد تتحمّل شيئاً آخر حتى وإن كان من الوالد، وعد والوالد هذه العلاقة الجميلة تُخدش بعبارة وعد، تصرخ عليه، تندم بعدها بلحظة، ذهنها مشوّش كليا وليست في حال يسمح لها بأن تحادث أحد، والدها ينظر إلى الأسفل ويعبس، هذا الوجه ذاته الذي رأته وقتما انتحر شقيقها، ذنب في نفسها *لماذا قلت هذا الكلام، كان عليّ أن أتهذّب أكثر*، كُسر الجليد المفاجئ بحديث رضوى.

- هيّا يا وعد، اذهبي إلى الحمام، وعودي.. عمّي هي في حال سيئة للغاية، وأنت جندي سابق وتعلم حالات الهلع التي يصاب بها البشر، ولا بد أن الغضب أنساها الأعراف،

لا تقلق ستكون بخير بعد لحظات.

جاءت وعد، لا تزال غير هادئة، الماء استعصى أن يغسل قلبها، لكنها جلست وسمعت من والدها الحكاية.

- بعد الحرب، وجدت أني لم أمنحك العطف الذي تستحقينه، من أجل الوطن وحده ضحّيت بداري، وأمّك، وإخوتك رحمهم الله وفرّج الله عنهم، قالوا لي أن أعود وأحمي القرية، لكن لم استجب لكل تلك الطلبات، الحرب الحقيقية كانت مُباشرة بعد زواجي، تزوّجتها بعد أن كانت رفيقة للسلاح، في إحدى المعارك القليلة ما قبل الشرارة الكُبرى جاءت لي في لحظة كدتُ فيها أن أموت بالماء، طبّبت فيها الجرح، قُلت لها: "تتزوّجيني؟"". في الوقت المتوقع أن أقول فيها: "عافاكِ الله من كُل شر". الحُب الذي لا يقوم عند اللحظة الأولى لن يقوم لاحقا، الانجذاب الذي بيننا أحسست به، لم أرد أن أدخل في متاهات العلاقات العاطفية، واخترها زوجة لي وشاء الله أن تبدأ المقاومة في إعلان حرب التحرير في كل أنحاء البلاد، وحينها التحقت بصفوف المقاتلين في الجنوب، لم أكن أرجع إلا يومين في كل شهر، أضع في أحشاءها أبنائي وأذهب، وأعود، وكبر الأبناء، واستمرت الحرب لفترة طويلة من الزمن، من شدّة اليأس كنّا على وشك أن نكفر بالتحرير، كنّا لا ننام بل نمثّل النوم، أوضاع صعبة، نحمل الموت معنا أينما رحلنا، وبقي فينا هذا الشعور لليوم.

كانت الابنة تسمع، وفي بالها عادل، قصص والدها المكرّرة ماعادت تُغني في أن تُنهي قصة عادل، هل علم الوالد بعلاقة الحُب

التي بينهما؟ هل كان يتستّر عليها؟ هل يعرف فعلا أن عادل لقيط؟!، لم يذكر عادل لها يوما بأنه يعرفه عن قرب، ربّما سقطت ذكـــرى سهوا، أخذت في البحث في ذاكرتها جيّدا، مرة واحدة ذكره بشكل عابر، قال لها إنه رأى والدها في أمسية ثقافية مصادفة حضـــرها في عيد الاستقلال، عرفه من الصورة التي أرسلتها هي له، قال إنه يخشى من عدم موافقة الوالد على هذا الـــزواج، خـــضّ قلبـــها الأرض، وجاهدت نفسها بأن لا تغرّز عجلات أفكارها في ممشى الخيبـــات، ياللقدر كان خوفهما الأول بأن لا يتزوجا لأن الوالد سيرفض، والآن هُما كتبا النهاية لأنفسهما، كانا يريدان الحُب لحد الـــزواج، والآن أرادت الحياة لهما الفراق حدّ الغياب.

- وعادل!

صرخت رضوى، هي الأخرى تخلّت عن سكونها أمام الوالـــد، خلعت عباءة التهدئة، وقالت في نفسها "ليكـــف عـــن خـــزعبلات التحرير، وليقول النهاية من هو الآن.. هو بإمكانه أن يريحنا من قراءة كل الصفحات".

- أنا أين أعمل يا وعد؟

تجاهل النظر إلى رضوى، حدّق في وعد بسؤاله، كأنه لم يسمع السؤال الذي سبقه.

- لم تُجب على سؤال رضوى!... أنت تنقّلـــت في عـــدة أعمال.

- سؤالي كان إجابة لرضوى، أحد الأعمال الإداريـــة الـــتي كُلّفت بها أن أكون مديرا لدار رعاية مجهـــولي الوالـــدين، عملت عندهم لسنة كاملة وعدة شهور، قبل أن يتم نقلي

لدار الأيتام، ومن بعد ذلك أصبحت المشرف العام على أحوال الأسر الفقيرة والمتوسطة، أعمال مدنية لكني كُنت أشبه بالمُعار الدائم من الجيش الوطني لهذه المؤسسات، برغم سمعة أبناءي إلا إنني للحمد لله واصلت الصعود في سلّم الأعمال، وجدتها فُرصة كذلك من أن لا أكون جنديّا قائدا في جيش الثورة فاقد ثوريّته.

قال جملته الأخيرة بكُل شجاعة، لم يخش أن يتنصّت أحد على كلماته.

- وعادل!!

أعادت السؤال رضوى، لم تبد مقتنعة بإجابة الوالد.

- لتُجيب وعد على السؤال.. هل تذكرين يا وعد الحفلة التي كُنتِ فيها في الإعداديّة؟ كان ذلك في ذات العام الذي تولّيت فيه دار مجهولي الوالدين، حضر حفل التكريم جمع منهم، لم تنتبهي لهم، وتوقعتِ بأن وجودي في الحفل حتى أشهد التكريم، كان ذلك صحيح، ولكن حضرت كذلك كممثل عنهم، فمدرستكِ أرادت أن تحظى بصيت إعلامي بوجودهم بينكم.
- لا.... هل يُعقل!
- بل يُعقل.. نعم كان هناك.

نعم.. هُو عادل، حُب قديم هُو، غير صحيح أنه بدأ في المعرض، في قلبه كان يخفيه كثيرا، تعمّد أن يُسقط هذه الذكرى عمدا من لقاءاتهما، وتعمّد أن لا يقول إن والدها يعرفه جيدا، لوهلة، تذكّرت رسالة منه كتب فيها (أنتِ عنيدة صغيرة وكبيرة، وجهكِ

يفضحكِ يا صاحبة الحروف الثلاث)، كان يعلـم وجههـا وهـي صغيرة، طيّب من أين عرف؟! توقّعت أنها أحد مزحاتـه، لم تكُـن مزحاته سوى أصل الحقيقة التي غابت.

لقد فهم الوالد مغزاها، تذكّرت ذلك الشاب الصـغير الـذي يوازيها عمرا تقريبا، استمر بالنظر إليها كثيرا، نظراته في غاية الغرابة، عندما كانت تكرّم كان ينظر إليها، وقبل أن تكرّم كان الوحيـد في القاعة الذي ينظر تجاهها عوض النظر للمكرمات، وبعد التكريم بقت نظراته تلاحقها، الصغير استمرت عيناها كالظل حتى وهي تحـادث والدها، لوّح للوالد، وسألت والدها ذاك اليوم عـن هـذا الولـد، ضحكَ حينها وقال: "يبدو أنه عاشق".

أفهمها الوالد بأن جميع كتاباتها في حصّة التعبير، كان يذهب بها إلى عادل ليقرأها ويتعلّم منها، قال أيضا: "كان يُحب أن يكتُـب، ويجد متعة بالغة في الكتابة، يغار كثيرا من أسلوبكِ الجميل والـدافئ في النصوص، دوما أقول له إن قلم النساء مختلف، ولا يمكن أن يكون كقلم الرجال الذي يكون غالبا مباشرا بلا زينة عاطفيّة ولغويـة، إلا إنه كان مصر، وإصراره الأكبر على أن يكتُب مثلما تكتبين، الكتب الكبيرة لم تقنعه فهي خُلقت في زمان غير زمانه، ولكن وجد فيـك النّد الذي عليه تجاوزه، طوال العام كان يسأل لما لا تأتِ وعـد إلى الدار لترى أبناء الدار، أجبته بأنه من الصعب أن أجلب أبنـاءي إلى هذا المكان، فكلمات الناس لا ترحم، وبقي يتمنّـى أن يـراكِ، وفي حفل الاعدادية قُلت له إن وعد ستكرّم، فرح كثيرا كما لم يفـرح مُسبقا، بشائر الفرح مرتسمة عليه، يغنّي كأنه عيد، اسـتعد جيـدا لليوم، لبس أجمل الملابس، وطلب مني إحضار عطر غـالي الـثمن

ليكون متجهزا، مازحته: "ماذا ستخطب ابنتي"، وأصابه الخجل، ومع بداية الاحتفال أشّرت عليكِ له دون أن تلمحين.

بعد ذلك اليوم، عاتبته لكثرة النظرات، طلب منّي صورة لكِ، لولا إنه صغير، ولقُربي منه لما وافقت، منحته الصورة، ورأيتها في يوم من الأيام وأنا أتفقد أسرّة أبناء الدار على جانب وسادته، كان يضع الصورة بجانب الوسادة، خفتُ كثيراً من هذا التطور الخطير، ولكن طمأنت نفسي بأن لكُل شيء نهاية، ولا بد أن الأمر نزوة عاطفية ستنتهي، أضف إلى ذلك أنني سأنقل من هنا.. وهذا ما حدث.

- لا أعلم ما بينكما تحديدا، أو لأترك الرواية تجيب عن تساؤلاتك.. لم أقرأها ولن أقراها.. صحيح أني لا أخشَ الرصاصات، لكنني جبان جدا أمام الكلمات.

ابتسم قليلا، وودّع رضوى ووعد، ردّدت: "كُل الرجال مخادعين.. كُل الرجال مخادعين.. لماذا لم يقُل الحقيقة منذ البداية"، وهمسَ قلبها للمرة الألف (لما أحببتك.. هل لا أزال أحبّك)، قرصت الصوت، وطلبت من رضوى الذهاب، وعادت تقرأ لوحدها هذه المرة، مختلية باعترافات عادل.

....

أشعلتُ 1200 سيجارة منذُ ساعة الرحيل، أمتص الدخّان ليُعاقب رئتي الخرِبة في بُعدكِ، تلتهمني الكحّات المصبوغة بدخّان الموت، فأواصل سحبَ الأنفاس رغبة في القصاص منّي، أتذكّركِ وأنتِ قريبة، أكاد أقبّلك، فتمنعني مخافة الله أن أفعل، أعزّي نفسي بأن الزواج قريب وحينها سأغوص فيكِ مُكتشفا أصدافك، والآن

أسأل هل يُعاقبنا الله على منحة شعوريّة قذفها في قلوبنا؟ في سجائري رغبة هربٍ حقيقي من كابوس الواقع الذي يفرض أن أكون هُنـــا، الذكريات تجعلُنا ننطفئ تدريجيا، تُسبّب لنا الذبول، تُظهر لنا لســاها في وقتِ الانـــزواء منها.

الكاذب الكاتب أُصيب بالمرض، دون أن يعلم قلبك، انسحبتُ بمرضي، وُجدت لقيطا، ومن بعدهِ كسيرا بلا عمل، والآن مريضاً بلا أمل، حقّا أنا دوّامة الألم التي انحبستُ فيها بقضبانها، الألم الذي أخذ منّي كُل شيء، ومنحني قلم وورقة، ودار نشـــر تقبـــل باعترافـــاتي الجامحة، تقبل بإبن حرام يعلم بأن أيامه في طي النسيان، يُقاتل لعلــه يرى كلماته وهو على قيدِ "الحُب"، لستُ حيّا بما يكفي لأقول بأني على قيدِ الحياة.

كان ذلك اليوم في الرابع من ســبتمبر، شــعرت أن صـــدري ينقبض، ارتعاشة هلع نغّصت عليّ صباحا يكتسيه ضباب المكـــان، حاولت أن أنظر يمنة ويسرة، لا أحد حولي، هل حانـــت اللحظـــة؟ جبِنت من الموتُ، صلواتي، صيامي، ماذا عندي لأقف في يوم القيامة أمام كُل النّاس؟ هل أستُر عريّ أعمالي بالحُب، بإهانات النّاس، أريد القليل من الحياة، انتظرت الموت والآن أخشاه، قُلـــت إلى نفســـي، وسقطت و لم أشعر بشيء.

استيقظت على أصوات أُناس، شيء يشبه المرأة أمامي، أين أنا؟ جميعهم في بياض كامل، عرفتُ بأني في مشفى، كيف وصـــلت إلى هنا؟ أحدهم سمع صوت صرختي قبل السقوط واستطاع أن يصل إلى الغرفة التي كنت فتحتها قبل أن يغمى علي، وصـــلت إلى الغرفـــة، وأدخلت إلى غرفة بيضاء كاملة لوحدي، أخيرا لي غرفـــة بتمامهـــا

وكمالها، فرحتي لم تكتمل، فهذه البقعة من العالم لا تُعطيك هديّة إلا في ساعات الاحتضار.

وجع قلبـــي لا يزال، حجرة ثقيلة جالسة عليّ وأنا في ثيـــابِ المرضى، هل كانت ضربة ارتدادیّة لترسّبات قرّرت الانـــبلاج عـــن صورها الحقيقيّة، أم هُناك شيء في قلبـــي؟ هل قلوب أبناء الحـــرام هشّة لدرجة أنها تُصاب بالمرض مع أول اطلالات للدخّان؟

- قرأت أوراقك الثبوتيّة يا عادل.

كان ذلك الطبيب، وقد أغلق الغرفة، لا أحد ســـواي ومعـــه، وثالثنا ألم يتفشّى في قلبـــي، أكتمه بالعض، أعض نفسي مخافـــة أن تقسو الضربات، كُل شيء أصبح محتملاً في هذه الغرفة.

نظر إليّ بضحكة ثم قال وكأنه يزف لي بشارة.

- لا أحد غيرك هُنا نستطيع أن نخبره بتفاصيل مرضك، لـــذا يجب أن أخبرك بالحقيقة.

أُصبت بجمود للحظة، عن ماذا يتكلّم هذا الرجل؟

- نحن لا نفعل ذلك مع المرضى عادة، ولكـــن بمـــا أنـــك ابن ح... أقصد ابـــن لا أقـــارب لـــه فيتوجّـــب علينـــا المصارحة.

(قُل يا دكتور، فسياط الانتظار أشد من لحظات النتائج).

- بك مرض غريب، حاولنا أن نعـــرف ســـبب الإغمـــاءة الفجائية التي أُصبت بها، فقمنا بتحاليلنا، أحيانا نقـــول إن السبب يعود إلى تدخينك الشره في فترة بسيطة، وجسدك ضعيف لم يتحمّل كل ذلك، وتواصـــلنا مـــع أطبـــاء في مستشفيات أخرى، ولم نجد السبب الحقيقي.

قمنا بعدة اجتماعات سريعة مع رئيس قسم أطباء المدينة الطبيّة وعرضنا حالتك عليه، احتار فيها أولا قبل أن يُخبرنا بتحليلاته التي توصّل لها خلال الساعات الأولى، وحين أفقت قرّرنا أن نمنحك بعض الراحة قبل أن نعترف لك بكُل شيء بلا كذب أو إخفاء.

توقّف الطبيب عن الكلام قليلا، أخذ ينظر تجاهي في عينيّ، يحاول تفحّص ردّة فعلي.

- مرض جديد يُصيب الكثير من الشباب، وهو مرض نادر، الاغماءة ليست لها علاقة مباشرة بأعراض المرض، ولكن حالتك غريبة فعلا، ومع هذا قال لنا الاخصائي في المستشفى بأنك أحد هؤلاءِ القلة الذين يعانون من درجة مختلفة من هذا المرض الذي لم تتفق عليه منظمات الصحة لتسميته، هو طور محدّث من مرض في الحيوانات يصيب الإنسان، وللأسف سأقول لك...

لم يبقَ من حياتكْ سوى شهور قليلة يا عادل، فحوصاتنا تثبت بأن المرض قد يجعل حياتك تنتهي ما بين مايو وأغسطس المقبلين، نحن الآن في سبتمبر أي لديك ما يقارب ثمانية شهور أو أكثر بقليل لتعيش.

ثم ذهب سريعا عني، لم يُرد أن يسمع مني أي كلمة.

كُل هذا وأنتِ غائبة، بقيت أنظر إلى السقف مثل الأطفال المشدوهين بلحظات أول الدنيا، صبّت دمعة منّي جام غضبها على كُل شيء، وبلسان مُهلهل قُلت: "يا الله، إلى متى؟ هل هنا النهاية؟". عند الموت يتساوى الجميع، ومع ذلك شعرت بأن هذا الحكم هو الإعدام الذي انتظره لجريمتي، شاءت الأقدار أن أُمنح العفو وأتجاوز

مشنقة الإعدام، ويشاء القدر الآن ليحكم الله عليّ بالموت بـــالمرض، كُل الطرق تؤدي إلى الموت.

منذ ذلك اليوم، وأنا أخف أن يهاجمني المـــوت في أي لحظـــة، تقديرات الأطباء غير جازمة، علّ الموت الذي من الممكن أن يـــأتي خلال بضعة شهور يأتيني الآن، كان والدك هو أحد من وضـــع فيّ نبتة الكتابة، فقرّرت أن أموت وأنا على وضع الكتابة، يقولون إننـــا نُبعث على هيئتنا عند الممات، فليجيئني ملك الموت وأنـــا أكتُـــب، سأقرأ عليه سطور ولهي، ومُعاناتي، سأخبره عن اللا أب، والـــلا أم، واللا قبيلة، وسأتلو عليه من نبأ الحُب، باتت رغبتي في الكتابة أكـــبر عند اقتراب الممات، أُريدهم أن يقرأوا ويبكوا، أريد لـــدموعهم أن تغسل خطاياهم ضدّنا، أريدكِ أن تبكين يا وعـــد، قـــد لا أكـــون أفضلهم حالا، ولا أكثرهم سعادة، ولكن هل الحُـــب يـــا حبيـــبتي للسعداء؟! ألا تكون دروب الشقاء كطريق الجنّة للعشّاق، يا وعـــد عند مغيبِ شمسي سيولد بدرُ الذكريات الجميلة، عندها فقط ستقفين متوحّدة بما آلت إليه الأزمان، تحملين بعضا من غبـــار الـــذكريات لتنثريهِ ماء يسقي زرع حديقة قلبك.

قرأت بأن المرض تخليص من الذنوب، والله لو كانت لي شفاعة لمنحتُها يا وعد لكِ ولوالدكِ ولمن تحبّينه، فمن اعتاد حُرقة الظلم لـــن تفاجئه صديد النيران أعترفُ لكِ اليوم بأنكِ حين تكـــونين نائمـــة، كُنت أقول لكِ في خطوط الهاتف: "وعد، أخشى أن نفترق، لا أريد لهذا الفراق أن يحدُث". فراق من نُحب أشبه باستئصال القلب مـــن أعضاء الإنسان، من لا قلب له لا حياة له، ومن لا حُـــب لـــه، لا سعادة له، أُمضي الليل يا وعد وأنا أقول أحبّك، وأعلم بأني ضعيف

في الحُب، جبان في أن أخبرك كل الحقائق، خشيتُ الفراق لحقيقتي، وجاءني الفراق على عجل، وسيجيء الفراق الأبدي راكضا ليلتـــهم الروح في مائدة العيد، يا وعد ليس هذا الكتاب فضيحة، بل هو مـــا بقي منّي لأورّثه، ولا أحد غيركِ يرثُ روائيا لقيطا، يكاد يحمل هويّة الموت، توقّعاتي تقول إن كتابـــي هذا سيُنشر في مايو أو يونيـــو، أو ربما قبل ذلك أو بعده، وما بين هذه الشهور ستحين لحظة الممـــات، سأموت مثلما كان الموت الصامت مصيري في بيت أبو سامي.

وصلت لوالدك رسالة رسميّة بها أمر فوري بأن يتحوّل مكـــان إقامتي من مبنى الدار إلى منـــزل أبـــي سامي، كان ذلـــك القـــرار موقعا من وزير حقوق الإنسان، يتوجب تطبيقه دون تأخير، ذلـــك اليوم كنت فيه في الملعب الوحيد الذي نلعب فيه أحيانا، جـــاءت لي عاملة، وطلبت مني الذهاب إلى مكتب المدير، كان يتأهب لإخباري بشيء مهم.

- عادل، كيف حالك؟
- الحمد لله بأفضل حال.
- ماهو حلمك؟
- وهل لنا حُلم يا سيّدي؟
- الأحلام ليست حكرا على أحد.
- ونحن لسنا بأحد.

أجبته غاضبا، برغم حبّي لوالدك، ولكن كُنت أشعر بالقلق من هذا النداء المفاجئ، فأجبته بعصبيّة.

- الأحلام يا عادل، هي لكُل فقير لا يستطيع أن يحقّق الواقع، احلم ودع الواقع للحياة.

- لا داعي لنكذب على أنفسنا، هل رأيت منّا من ينجح؟
- الكثير.. عموما مُبارك لك ستنتقل من الدار إلى منـــــزل أبـــي سامي، وهذه رسالة الأمر الفوري.

أبو سامي! ما الذي جعله يتذكرني بعد كل هذه المدة، ولمـــاذا يريدني أن أعيش معه؟ لا أعلم هل أفرح أم أحزن، أأفرح للخـــلاص من المكان الكئيب والموظفين الذين لا يزيدونني إلا هما بعد هـــم، أم أحزن لفراق أصدقائي وقبيلتي الوحيدة في الدنيا؟ كان وجهي خاليـــا من أي ملامح، تقاسيم مُبهمة، لم أستوعب الحقيقة، في هذا الدار لا ينتقلون منه إلا للقبر أو السجن، أما أن ينتقل أحدنا إلى قصر كقصر أبـــي سامي فهي سابقة تاريخية تحدث للمرة الأولى، لم يدر ببـــالي أبدا بأن القصر ماهو إلا ترانـــزيت قبل المضـــي قـــدما في طريـــق السجن.

لحظات وانتشر الخبر سريعا في الدار، من اعتـــدت وجـــودهم جميعا هنئوني، وقالوا: "ليتنا نذهب معك. وعـــانقوني وأنـــا بينــــهم جسدا، ومُبعد عنهم روحا، تلقوني واحدا تلو الآخر، وتمنوا نصـــيبا مثل نصيبـــي فلا شيء أجمل من البُعد الدائم عن المكان، في قلـــوبهم قصص خرافيّة عن أبناء يتامى أو بلا أهل، أصبحوا الوريث الوحيـــد لأحد كبار القوم، فتفتّح أمامهم بنفسج الحياة الكريمة، وعاشـــوا في رغدِ ربيع النصيب الوفير.

سريعا بدأت ترتيبات الانتقال، لا صور لأهل أحملـــها معـــي، وليست هُناك ملابس لأدسّها في الحقائب، ولا يوجد شيء لأشتريه، الرحيل الذي لا تتجاوز مسافته كيلوميترات قليلة بلغة القياس، هـــو رحيل لآلاف الأميال بلغة الأحوال، فمن الآن وصاعدا لن أكون ابن

الحرام الذي يعيش في غرفة مع أبناء حـــرام آخـــرين، ســـيكون لي منـــزل، وإخوة، ووالد، وسأخرج من سيّارة... هـــل هـــذا هـــو الواقع!!.. مهلا ماذا لو أن أبو سامي وجد فيني خادما جيدا له؟!، لا قانون يمنع الأطفال من العمل في هذا الوطن، والأهم لو هناك قانون فلن يتم تطبيقه على عُلية البشر، سيكون مصيري التنظيف والتمسيح وإمضاء الحياة خادما للعائلة، ذلك لا يفرق عن عيشتي السابقة سوى تحوّلي من اتجاه إلى اتجاه في ذات الطابق، هُنا ارتاعتني الصورة القاتمة، في خضم التهاني وجدت نفسي أحتج وأقول: "لا، أرفض الـــذهاب، لماذا هذا القرار!!، لم أستشر في ذلك حتى". تجهّمت الوجوه، نهرتني موظفة قريبة قائلة إن الطمع قد أصابني، وصـــل الجـــدال وتعالـــت الأصوات إلى المدير والدك، فركض مسرعا تجاه مصدرها، فهم منّي بأن هناك العديد من النقاط الغامضة، هل الذهاب لأكون ابناً بالتبني لأبـــي سامي، أم لأغراض الخير في توفير المسكن والتعليم الجيـــد، أم أنه يريد مني أن أكون آلة ضمن سلسلة الآلات التي تجيء مساء نهار في سبيل رعايته، ورعاية أفراد العائلة جميعا... *أليس مـــن حقـــي أن أعرف!؟* بكُل غضب قلتها في وجهه.

أبو سامي ماتت زوجته التي يحبّها، أصابتها طلقـــة في إحـــدى المدن الشمالية الغربية، كانت هناك تجمّعات كبيرة احتجاجا علـــى الأوضاع المعيشية للسكان من بعدِ ثورة أو تحرير لم يجلب لهم غـــير الشقاء (ثورة على الثورة.. لا ثورة نحن الثورة)، كـــان المحتجـــون يرددون، الشرارة بدأت حين قامت الشرطة بقتل أحـــد المـــواطنين لأسباب مجهولة لحد الآن، في ذلك اليوم كانت زوجة أبو ســـامي في المدينة تزور إحدى صديقاتها، الجموع مُحتشدة، فجأة صاح أحـــد

المحتجين: "إنها متبرّجة، إنها من بنات العاصمة"، فوجدت نفسها ضحيّة صراع سياسي دون أن تعي حقا أسباب الكلمة، الغريب أن ضحايا السياسة هُم أكثر البشر بُعدا عنها، أخذت تركض في الشارع، وجموع من المحتشدين يحملون المُصحف، *الكفّار الكفّار* فانتقل ميدان السياسة إلى غزوة جهاديّة كُل من الطرفين يرى نفسه وكيل الله في الأرض، هؤلاء الذين احتشدوا ذاك اليوم كانوا يعتقدون بأن أهالي العاصمة هم السبب في ما حلّ بالثورة ونتائجها، فانبطاحهم لقائد الثورة، ولهفتهم خلف الثروة دفعتهم إلى الارتضاء به حاكماً، بينما يرى الطرف الآخر أن كُل ذلك مجرّد حيل يقوم بها سكّان هذه المدن التي هي مُدن متخلّفة رجعيّة يسودها الظلام الفكري، ويتسيّدها المتحدّثون البارعون في كُل كلمة إلا تطبيقها، كان والدك يسرد هذا الكلام وأنا مُتابع له، في كلماته حكمة الجندي الخبير بأوضاع الحروب، والمدير المحنك الذي يبتغي أن يصل مفهوم القصة للجميع.

واصل سرد الحكاية قائلاً: "في الطرف الآخر من المدينة كان الجمع المؤيد للحكومة وقائد الثورة، من سوء حظ الزوجة أن اتجاه خطواتها كان للطرف الآخر فاشتبك الطرفان، ووجدت نفسها بينهما غنيمة كل منهما يريد أن يحصدها، إن ملابس أهل العاصمة معروفة فلم يكن من الذكاء الإدعاء أنها ليست منها، لقد اختار لها القدر أن تعبر الشارع في ساعة الاحتجاجات من بين كل الساعات، واختار لها القدر أن تكون نظراتها الأخيرة في أبعد الأماكن توقعا بأن تموت فيها، جاءت رصاصة لا أحد يعلم من أين، واخترقت جزء صدرِها الأيمن، وأخرى وسّطت قلبها لتُنهيها في أرضِ المعركة، دائما

يأتي الطرف الثالث ليُشاهد ويقتل وليترك الدماء وصمة عار على شوارع الوطن وكدليل على حالات التفكّك التي يعيشها، ماتت الزوجة وسقطت القلادة التي أهداها أبو سامي إلى زوجته، كانت قلادة مكوّنة من قلب كبير في إشارة إلى قلبه، وآخر يصغره يدخُل فيه، هي ذات القلادة التي أهديتُكِ إيّاها في آخر لقاء جمعنا، القلادة التي لبستِها أمامي وكُل الخجل يُحيط بك.. قلادة صُنعت من حُب وسقطت مرّتين، مرّة بغدرِ الحياة والرصاص، فاصطبغت بالدماء، المرّة الثانية سقطت حين خرّ حبّنا صريعا أمام مظاهرات الخلافات، فتلوّن بسواد الفراق، قلادة منحوسة ليتها لم تطوّق عنقك.

لقد حزن أبو سامي كثيرا على زوجته، ولم يتدخّل في ما حصل من مُتاجرة بدم زوجته، فالمتظاهرون يرونها ضحيّة الحاكم والقسم الآخر يراها دليل على بجاحة المتمرّدين، وما يقومون به من إراقة للدماء وتشويه للمناظر العامة وإفساد للدولة والبلاد، وقتما أُريق الدم انفض الجميع من مظاهراتهم، عادوا إلى بيوتهم يضحكون ويخطّطون ليوم آخر، وكأن لحظة سقوط الدماء هي نهاية المعركة.

- أبو سامي اختارك لتكون أنيسا له في لحظة حزنه، لقد اتصلت به وتأكدت.
- وما دخلي أنا في حُزنه.. رحمها الله.. لكن أنا ماذا عليّ أن أفعل؟
- سيعتني بكْ، لقد قال إنك تركت فيه أثراً كبيراً عندما رآك، وسيساعدك على تحقيق الأحلام.
- لذلك سألتني عن أحلامي؟
- نعم، الآن عدني بأن تتجهّز سريعاً للرحيل.

- "وعد"!!

ابتسمتُ وأنا أقولها... هل كان وعدا؟.. أم كان لذّة اشـــتهاء لنطق اسمك...

....

هل سيموت عادل؟ الشهر الآن هو مايو؟! قال شيئا عن الرابع من سبتمبر، يا الله هو ذات اليوم الذي أغلقت في وجهه الهاتف ومن ثمّ لم تعرف أين جرفته الأقدار؟ كُل شيء عن كذباته، ومفاجآتـــه، سقط أمام شهقة الموت، لماذا هو رفيق الموت؟ لماذا يُحب المـــوت؟ لماذا يُدمن الموت؟ أي نوع من البشر هُو؟ ولكن ماذا تفعل؟.

القلادة مرميّة في أحد الأدراج، افترسها الغبار منذ عام، هـــيَ أجمل لحظات حياتها وإن عاندها عقلها، كانت قريبة منـــه، تشـــعر بأنفاسه وهي تربّت على شفتيها، تشعر بتوتّره واضطرابه، كان يتعمّد النظر إليها بعينٍ واسعة، فتبتسم وتدّعي الغضب، أيعقل أن هـــاذين العاشقين هُما الآن في فراق وخصومة؟ صاح القمر الذي راقبهما عن كثب في عزِّ فصل حُب.

مريض يدخّن! ماذا حصل لك يا عادل؟! لم تعهده هكذا، لكن ألم يكُن ضعفه هو السبب الأول للرحيل؟ هو الذي ما استمع لها أبدا وهي تنصحه دوماً بأن يُصالح ذاته، يقبل على نفسه أن تجرفه ســـيول القدر، يُقبل له كما يُقبل الحاج لبيتِ الرب، أخذت تتخيّـــل حالـــه وهو يكتب على فراش المرض، ويدخّن ليُزيد المرض أكثر، ينتقم من نفسه، ينتقم منها، ويثأر لنفسه الجريحة من بعدِ معارك، عادل ما همّها في قلبها أن يكون ابن حرام أو غيره، أصبح جُـــل اهتمامهـــا أن لا يموت، لا تريد أن تسمع بأن ساعته قد حانت.

في جانب آخر، تذكّرت بأن الذين يكثرون الحديث عن الموت، هُم أقل النّاس استحقاقا للحُب، الحُب يحتــاج إلى حيــاة طويلــة، ومعيشة دائمة، لا إلى رجال يتلبّسون رداءات العزاء، ويهيمــون في سرادقها، هؤلاء الرجال بسوادهم يضيعون على أنفسهم أمطار عشق نسائية، ويختارون الحُزن على رفيقة عُمر.

والدها تقول إن الــذين يلــهثون خلــف الحيــاة هــم أول من يتصيّدهم الموت، تخبرها عن قصة ابن عمها الذي كــان يُحــب الحياة إلى الحد الذي جعله لا يوفر فلسا لأبناءه أو لمُســتقبله، كــان يبني في البيوت، ويعمّر في المزارع، ويُغدق علــى نفســه بالأكــل والشراب، وأخذه الموت سريعا قبل أن يُبنى كل شيء، في حــين إن السيّدة رغدة، التي كان يهرب منها الناس لكثرة ذكرهــا للمــوت عمّرت أكثر من مئة سنة، كانوا يعتقدون أنهــا مريضــة نفســية أو مجنونة، جلبوا قارئ ليقرأ عليه آية الكرسي ولكن بقت حالتها هكذا إلى حين وصولها لقرن، هذا الأمر طمأنها قليلا، ولكن هي بعيدة عنه كُل البعد وحاله غامضة بالنسبة إليها، كُل شــيء فيــك غــامض يا عادل.

هذا الغموض اتضحت معالمه، في الصدف التي كان يتعمّــدها عادل، فتراه في مدرستها الثانوية يغطّــي أخبــارا لا تُنشــر في أي صحيفة، ويُقابلها مرات عديدة ليسألها ذات الأسئلة لتُجيب بــذات الأجوبة، حتى رسالته الغريبة لم يذكرها أثناء اللقاءات، لكنه كــان يتعمد ارسال الرسائل، لم تفهمه، الرجال بالعادة هم أول من يبــوح في الحُب، والنساء هن أول من يقرر الرحيل، ولكنه استغرق شهورا ليكلّمها للمرة الأولى وعبر هاتفها.

- الأخت وعد، معكِ عادل... حصلت على رقمـــكِ مـــن المديرة، وآسف على الإزعاج مقدما.
- أهلا عادل. (وفي صوهَا ارتباك واضح).
- أحبّك!.
- .... وانقطع الخط

كانت أول مرّة تسمعها من رجل، بل هي أول مرة تسمعها من رجل غريب، كان والدها يقول لها دوماً (أحبّك)، وكذلك والدها، كان أهلها يغمروها بالحُب، حتى قائد الثورة وأثناء زيارة لمدرســـتها الابتدائية قال لها (أحبك)، ولكن وقع الكلمة من عادل كان مختلفا، بضعة لقاءات ورسائل وبعدها يمنح الكلمة مُباشرة بلا مقدمات، هل كانت الكلمة لغيرها؟ أم أنه كان يقصد وعدا غيرها.

التقاها بعدها بيوم، هربت منه، رحلت في اتجاه موازٍ، وأخـــذ يلاحقها من الخلف، كان يقول لها: "انتظري". وهـــي كانـــت لا تنتظر، تذهب مسرعة كأنما هو مُجرم، قبل أن يُمســـك قميصـــها ووقتها لم يكُن هناك بد من التوقف.

- حبيبتي
- لستُ حبيبتك، أنا وعد.. كُن حذرا في ألفاظك.

ابتسم ورحل، وتركها في حيرها، ثُم أرسل برسالة....

"قد لا يكون لنا آباء أو أمهات.. أو قد يكون.. وقد لا يكون في بيتنا سعادة.. أو قد يكون.. في كُل الحالات جميع الطرق تـــؤدي إلى الحُب، فمن لم يُحب من قبل مثل سجين وُلد في السجن و لم يـــرَ ما خلف زواياه الأربع، إن الحُب يا وعد يفتح لنا طُرق الحـــلال وإن كنّا من أبناء الحرام... عديني يا وعد بأن تعودي إلى قلبـــي".

سألته مرارا عن هذه الرسالة، كان يرفض الإجابة، مع أنها تصريح ضمني بحقيقته، كان صادقا، لقد أخبرها بكُل شيء ولكنها لم تفهم، المشكلة فيها هي وليست فيه... لا لا هو من لم يوضح أحوال حياته، لا يُعقل أن أكون مذنبة.

أغمضت عينيها، وراحت في غيبوبة التفكير.

اليوم الأول بعد دخولها كليّة الطب، تحدّت الأعراف والتقاليد، وجاهدت نفسها ليكون لها خيار الدنيا، حكمتها الدائمة بأن الرجل الذي لا يرضَ بعمل المرأة، لا يستحق شرف الطاعة، صور والدها الجريح، وجرحى الحرب الذين امتلأت بهم الدنيا هي من جعلتها تختار هذا المجال، كان في الحي الكثير ممّن يعرجون في مشيتهم، وآخرون لا يرون جيدا والبعض منهم لا يرَ شيئا، أما الأصعب على كاهل ضميرها هو الشيخ الكبير الذي لا يرَ ولا يسمع ولا يتكلّم، وكأن الدنيا قبر مفتوح له، والعذاب بدأ من لحظة الإصابة، هؤلاء كانوا عبئاً كبير على اقتصاد الجمهورية، كان وزير الاقتصاد دائما يقول: "الأحياء الأصحاء أولى بالمقدّرات الوطنية، من جنود نسأل الله لهم الشفاء، على كل حال لا أحد يشفي غير الله، أم أنكم تجحدون بالله وتعتقدون أن الشفاء من البشر؟!". هو الآخر يستخدم الدين حتى لا يتكلّم أحد، وإن تكلّم أحد فهو يشكّك بقدرات الله، وبمفعول الدعاء.

- مساكين، جرحى الوطن، مجروحون من أوطانهم ومن أعداء أوطانهم.

قال لها والدها وهو يشجعها في المضي قدما لتحقيق أحلامها، وحده من ساندها فلقد رأى دور النساء في حرب التحرير، ودائما يستشهد بأن الوطن كان بحاجة كبرى للنساء وقت الحرب، لذلك

سمح السكان لهن بالمشاركة في الطب والقتال أحيانا، وعند انتهاء السبب تم القضاء على ذلك، بل إن بعض المشاركات في الحرب اهمن زورا بالعهر والفجور، وأخذ البعض بالحديث عن مغامراهن الحمراء أثناء القتال، كانوا يخوضون في الأعراض دون أن يوقفهم أحد، ومن تلك التجربة علم الوالد بضرورة الوقوف خلفها، بينما وقفت والدهما في حيرة من أمرها وهي تراهما معا في خندق واحد، الوالدة كانت ترى في وعد الجنون، فهل يعقل لبنت جميلة مثلها، يتحدّث عن جمالها كُل أفراد الحي، أن تتخصص اختصاصاً مرفوض في قدسية التقاليد، العادات الخط الأحمر الذي يمنع تجاوزه، رفضت رفض قاطع أن تغطّي وجهها، والآن تقرّر بأن تواصل حياها بهذه الطريقة، في أكثر من مرّة جاء شيوخ الحي للوالد ليثنونه عن قرار دعم ابنته في خطواها الطائشة على حد قولهم، حذروه من أن ذلك يعني قطيعة أبدية بينهم وبينه، إلا أن المحاولات لم تُجدِ نفعا في تغيير الأفكار، بل زادت في عناد وشراسة الوالد لدعم أصغر بناته.

- أمّي، العادات والتقاليد لن تجعل جرحانا يشفون.
- لا تعتقدين أنكِ الوحيدة القادرة على مساعدهم، أم أن جراح الوطن ستُنهى على يدك؟!
- سأفتح بابا ليدخل الجميع من هذا الباب.
- اللهم لا تبارك في هذا الباب. قالتها رغم أنها شاركت في حرب التحرير كطبيبة، ترى أن الأزمنة مختلفة والمقارنة لا تجوز.

لكنها دخلته، ووجدت من ظنت أن وجوده في غياهيب المُستحيل، كان هو هناك يجلس في أحد المقاعد الدراسية الجامعيّة، لا

تعلم من أين عرف عن جدولها الدراسي ووجودها في آن، كان يأتي كُل يوم إلى الجامعة، هل يدرس فيها يا ترى؟ لم ترَ في حقيبته سوى بعض الدفاتر، الخوف الأكبر أن يكون قد جاء فقط ليحضر معها موادها الدراسية.

- حبيبي، هل أنت راضٍ عن المجال الذي دخلته؟
- نعم، البلاد بحاجة إلى طبيبات ومعلّمات، مثل حاجتها لرجال ليس همهم ماذا تفعل النساء.
- ستتزوّجني صحيح؟
- ومن قال إننا لسنا في زواج، الليل وقلوبنا تشهد على زواجنا؟!
- ما أجمل شاعريّتك.
- وما أجمل شاعريّتي حين تكون لك.

يوصيها عادل دوماً أن تُكمل دون ملل مما قد تصادفه في المُستقبل، حكى لها يوما في أحد قصصه عن قرية يُمنع فيها أن تعمل الأنثى، وفي يوم من الأيام أغار عليهم لصوص، فأخذوا وأصابوا كُل الرجال الذين قاتلوا على الحدود، وبقيت النساء في بيوقمن، صرخ الرجال يطلبون من النساء القدوم للعلاج ولكن أيا من النساء لم تقبل أن تخرج، فالعُرف يقول لا يخرج النسوة إلا بمرافق، أو في وضح نهار وهكذا مات الرجال جميعهم وآخر استغاثاقم قبيل طوفان الموت هو أن تأتي النساء للمساعدة، أصبح العُرف الذي وهبوا له كل حياقم المسبب الرئيس في انقراض الرجال، الجيل الذي تبعهم من الأطفال الذين كبروا وضعوا عرفاً آخر بأن تعمل المرأة ويعلّمن جميعا على مهارات الحياة، فالمرأة التي تُنجب الرجال فقط مثلُها مثل الأشجار

التي لا تُنجب غير الثمار، مصيرها الموت في مكانها أو القلع بواسطة فأسِ الطلاق، سيُطلّقن جميعا وهنّ ساكتات ساكنات للـــذي كـــنّ يحملن له هالات القدسية والتبعية.

غريب أمر الحياة، كيف تسقط سهوا مثل هذه التساؤلات، لم تسأله طيلة الفترة عن هذه الصدف، وعن متى كانت الشرارة الأولى، في الحُب نحن عُميان، هكذا أوردت في نفسِها، وهي تـــتفحّص مـــا حصل في الماضي، كان يشجعها كثيرا على الدراسة، وشـــعرت في جميع فصولها الجامعية وهي معه بالأمان، حين رحل ارتفـــع معـــدلها الجامعي، ولكن شيئا ما في قلبها انحسر، ضحكة المعدل المرتفع خابت نيرانها في وجه مياه الافتقاد.

تفتح عينيها من جديد، تشعُر بأن عادل بالقُرب منها، هذا هو عادل ينظر تجاهها، في سريره هادئ كعزفِ كمان، يُمسك بـــالقلم فيبتسم وهو يكتُب، تقول له: "عادل حبيبـــي". يا الله منذ مـــتى لم تقُل هذا الكلام، فتغمس في شعره أصابعها، ليضحك ولتلئم الأيدي ببعضها، لا شيء يعكر صفوهما فالعلاقة في أوج اتقادها، لا كذبات أو خذلان، لا خلاف أو شقاق، كل شيء بالتمام، فتمســـح عليـــه ليعود من جديد، عادل الذي عرفته بلا أخطاء، والذي كلّما كـــان قربه سعادة، يا الله بين ليلة وضحاها أصبح أكثر من يؤلمها بُعده، هو أكثر من يؤلمها قربه، وبقدرِ رغبتها بقربه أصبحت الرغبة في رحيلـــه ملحّة، كل ذلك تهاوى في تدافع الخيال.

تعود الساعة الواحدة ليلا، الوقت الذي ينام فيه كل العائلـــة، ليُقيما معا حفلتهما الليلية، يبدأ هو بالكلام لربع ساعة، يستنشق فيها هواء العشق، ويتحلاّ بعطرِ التلاقي من بعد نهار طويل، لتبـــدأ هـــي

بالاستماع مصغية، مُمعنة لكُل كلماته، يمتلك من المفردات ما يجعلها تقع في نشوة لا تُخرجها منه سوى صوت ضحكة يقول فيها مُتبعا: "لم أقل شيئا"، وهو قد قال كُل شيء تصبو إليه فتاة من شاب عشقها وعرف طريقتها العشقية الخاصة.

كانت ضحكتها جميلة، لا تخاف أن يسمعها أحد، ضحكة لو كانت في كهف مهجور لتحوّل إلى مدينة مُكتظة بالكائنات، ولو وصلت إلى أهل قرية لأقاموا على وقعها ابتهاجاتهم وأعراسهم، لها ضحكة خاصة ينطلق منها رذاذ من نور عاطفي، ونقي لا تشوبه شوائب التغنّج النسائي، كان كثير التغزّل بضحكاتها، عادل يُحبها أن تضحك، يوصيها كثيرا على الضحك والابتسام، وكان هو يبتسم كلّما رآها، لا يملك غير عربون الابتسامة ليدفعه ثمنا ليقابل رؤيتها، يرى دائما ابتسامتها كانفتاح باب لجنّة، أو أشبه بخروج مارد من مصباح، كانت وعد ماردته التي يُسحر بوجودها وغيابها، والتي لأجلها يحقق الأماني، ولأجلها غابت كُل الأماني.

في حقيقة الأمر هي لم تفتح أيا من عينيها، كانت تعود إلى الذكريات، تأخذ منها قبسا من حنين، بات صوت المحبة يعلو فيها، يرتفع دويّه، كيف لإنسانيتها أن لا تقبل محبّة شخص راحل من الدنيا، ألا يستحق القليل من العطف، أليس المرض هو العلّة التي أمامها يختفي الأعداء ويقبل لأجلها المتخاصمون الهُدن، لقد وقّعت هدنة خفيّة ما بين صوت عقلها الناقم عليه للحظة، وقلبها الذي ما حبّ قلبا غيره، وما دقّ له طبل حُب لسواه.

قامت لترتدي ثياب الصلاة، أرادت أن تدخُل خلوة مع ربّها، ذهبت لصلاة ركعتين في وقتِ تعامد أوقات المصلّين بالعشاق، وبعد

الصلاة راحت تستغفر قبل أن ترفع الدعاء إلى الله وتقول: "اللـــهم إن كان خيرا في قدري فأعده لي، وإن كان شرا في حياتي فأبعده عـــني، ولا تجعل في ختام حياته شقاءه، ولا بـــي عذابه". ثم قرأت من سورة يوسف آيات، السورة التي تشعر فيها بالانتماء، فالمحبين غالبـــا بعـــد اندثار قصصهم يعودون إلى القرآن محمّلين بذنوب العشـــق والليـــالي الطويلة، تذكّرهم قصّة يوسف بما حلّ بهم في الأيام الخوالي، فيجـــدون فيها أنيسهم الذي يكون بديلا عن الحبيب الغائب، تقرأ الســـورة، ثم تنهيها وتعود إلى جانب الغرفة وتُمسك كتاب عادل، وتستسلم للنوم.

دخل عليها والدها الغرفة، وجدها نائمة وفي حُضنها كتـــاب عادل، ابتسم بأسف، فهاهو اسم عادل في حُضن ابنته، كبرا سريعاً، ويبدو بأن قصة كانت خلفهما جاءت مـــن وراءه دون أن يـــدري، وانتهت من حيث لا يعلم، يشعر بنوع من جلد الذات، فعادل لولا كلماته عن ابنته، ومديحه الدائم لها لما وصل إعجابه وتقـــديره لهـــذا الحال، كل المؤشرات تدل على أن عادل فعل شيء بابنته، هو غـــير متأكد ماهو، رائحة الحُب في المكان منتشرة ورجل بخبرته وحكمتـــه لا تخفَ عليه هذه الروائح، يعلم بأن لكُل شيء ولكل حدث هُنـــاك مسبْب وعادل منذ أن كان في السجن وهو يفاجئه بالعديـــد مـــن الأمور.

- وعد، هل أنتِ نائمة؟

لم تجب، يحاول أن يرفعها من مكانها إلى السرير، كـــان مـــن السهل عليه أن يقوم بذلك حين كانت صغيرة، ولكن اليـــوم ومـــع كبرها، وشيخوخته أصبح من الصعب عليه أن يحملها، ومع ذلـــك حاول، واستطاع أن يضع بطانيّة ليمنع وصول البرد لها.

(اللهم أرحم أمجد وسامحه فلولاه لما كان ذاك الحادث) همس في نفسه ومن نفسه، وأغلق الأبواب...

....

كان صامتاً، يرتدي كفن العُتمة، يلفّها على رأسه الجـــريح في معركةِ غياب، الذي يراه يعلم بأن حبيبا قد فارقه، شيئا انكســـر في قلبه، لم تعد تلك الثريّات سوى غُرفة كبيرة تحتوي جسداً يطفو على سطحِ الحياة، مازالت الأنوار مُشعلة إلا أن إضاءة أفكاره قد ذهبت، شتّان في حال أبـــي سامي بين الوضع الذي رأيته عليه قبل شـــهور طويلة والآن، تحوّل إلى جذع نخلة يابس، جافة شفتاه، لا مـــاء فيـــه ليخرج منه دمع، هل هذا ما يفعله موت الزوجة؟ أم أن هذا وجـــه اليأس.

- السلام عليكم ورحمة الله.
- وعليكم السلام.. أهلا يا عادل تفضّل.

صوته شاحب متقطّع، لا يصل جيدا إلى مسامع الأذن.

- كيف حالك؟

سألت ولا انتظر منه إجابة، فوجهه يكفي كإجابة على كُـــل سؤال.

- الحمد لله، رغم أن الحُزن اقتلع أغلى ما عندي.
- لعن الله الحروب.
- بل لعن الله الشعب.

قالها غاضباً، أصبح تماماً كغراب أسود تضج أجنحته في بركة، ثم قال:

- لا يصنع الحروب إلا الشعوب.

سكت قليلا وأكمل: - الجنود هُم من الشعب، والقادة مـــن الشعب، والحروب يجتمع فيها بشر وبشر ليُقتل فيها بشر آخرين، إنها الفعل الذي تتقاتل فيه المصالح ليُنهك فيها الأبرياء، زوجتي ذهبـــت بإبتسامة، وقدُمت محمولة على الأكتاف، وبعد ذلـــك يقولـــون إن الجمهورية ستعوضني.. أي تعويض أُريد؟! بعد فقدان الإنسان ما من شيءٍ يُعيده، والأغرب بعد كل ذلك يطلبون مني مقابلـــة لصـــحيفة الجمهوريّة، والطرف الآخر يريد مني الظهـــور في قنـــاة الثـــورة، لم تتسرّب دماء زوجتي بعد لتُنبت نباتها في مُدهم، وهم يطلبون مـــني الحديث، ألا لعنة الله على الجميع.

وضرب الطاولة التي أمامه، سقطت الكأس وانكسر جزء منها، كُنت محافظا على صمتي، لا أعرف ما أقول، نظرت إلى الخلف عـــلّ الحارس يأتي، ولكن يبدو بأن الخدم ذهبوا وتركوني، يعلمـــون بـــأن نوبات غضب أبـــي سامي لا مهدئ لها غير النوم، عرفـــتْ بـــأن اكتئابه أوصله إلى كسر حاجيّات القصر، الرجل الذي رافق الهـــدوء في جل سنوات حياته، أصبحت دبيبة الأرض تُغضبه.

بعد الغضب، طلب مني الانصراف، وأن أذهب إلى الغرفة الـــتي سيوصلني إليها الخدم الذين يسكنون الباحة الخلفية.

وصلت إلى الغرفة، كانت مهيئـــة تمامـــا، جـــاهزة، أو هـــي مُستعملة، في جدرانها صور كثيرة لأبطال الكرة، مـــن الواضـــح أن الذي سكنها قبلي كان متيّما بنادي العاصـــمة، مصـــبوغة بـــاللون الأخضر كما هو النادي، بها جهاز ألعاب حـــديث في منتصـــفها، وشاشة تلفزيونية كبيرة الحجم، ستائر تطل مُباشرة علـــى الحديقـــة، الوقت كان ليلا فرأيت اصطفاف الأنوار من شُرفتي، منظر مهيـــب

يجتمع فيه جبروت الليل بأنوثة الأعمدة، وكأن حوارا ليليا يجري ما بينها، تُرى ما يهمس الليل للأعمدة، وهل يعلمان بأني أنظر إليهما الآن مستعلما عما يقولان، ابتسمت لهذا المنظر، وعُدت متأملا الغرفة التي تشابه النعيم في مخيّلتي، ذهب عني الخدم وأطفأت كل الأنوار، وعُدت متأملا في ما حدث لأبي سامي، وما سيحمله المُستقبل.

- قُم يا ابن الع....!

ارتعش من البرد، أحاول أن أستيقظ، سائل بارد على وجهي، يا الله ماهو! من يصرخ بالشتائم يا تُرى، لحظة تأرجحت فيها ما بين الواقع والخيال، قبل أن أفيق لأرى الوجه الغراب الحزين وهو متحوّل إلى ذئب شرس نشيط يُريد الانقضاض على فريسته، نمت على معزوفة سكينة، وصحوت على نعيق غراب جريح!

كان أبو سامي، لأول مرة أراه على هذا الحال، حال أن يكون مثل الجميع تماما، يشتمني يضربني يهينني يعاملني مثلهم كابن لاحق له في العيش، لقد سحب منّي الغطاء وصبّ ماء أعصابه عليْ، ثم أتبعها بكلمات جارحة، وقمت وأنا مفجوع لما يحدُث هذا، فالغرفة التي أنا فيها هي غرفة جميلة، وكان استقبالا جميلا، ولم يكُن حانقا عليّ بل على الحرب، كيف تتحوّل القلوب الناعمة البيضاء إلى أخرى سوداء داكنة، أيعقل أن بضع ساعات قد غيرته.

- حسنا لقد صحوت يا سيّدي.

لم يستمع لها حتى، ذهب مُسرعا من الغرفة، وتركني... جاء بعد دقائق الدهشة أحدهم.

- هذا هو حاله في كُل صباح، يُصبح معكّر المزاج، وأما في الظهيرة فيصل إلى المدى الأعلى، وكأنه يعيد ذكرى

زوجته في ذهنه فيتذكّر مع الساعات أين كانت، ويتخيل ما تفعله الآن، نُصبح على ذكرى حُزن متجددة، ونُمسي على تشييع لجنازة تعيش في عقله، الرجل أصبح ينعي زوجته يوميا، يدفنها يوميا، ويحييها يوميا، لا أحد هنا قادر على أن يتحدث أو يطلب طبيبا نفسيا، وأولاده جميعا هاجروا من الوطن وتركوه هنا، هم بالأصل لا يحبونه، وأعلم بأنهم سيعودون بعد موته، ههههه أولاد الأغنياء فجأة يظهرون ليرثوهم.

- ولماذا اذن طلب مني العيش معه؟
- لا أعلم! الاحتمال الأول لأنه يريد صبياً صغيراً يرى فيه أولاده الذين رحلوا، ورجل مثله عجوز يحتاج إلى حُب الصغار من أمثالك، ربّما يريد أن يفعل شيئا خيرا لزوجته كما قال لمديرك، ولكن قد يكون الاحتمال الآخر إنه يريد أن يصنع وحشا من جديد لنفسه، البعض من بعد الصدمات يُعيدون تشكيل نفوسهم، يكرهون ماضيهم لدرجة التخلّص منه بكامل نقاطه المشرقة في نفايات العدم، يُصبحون أشرارا، وأول من يقتلونه هو روحهم الطيبة.
- جميل، أنت حكيم.
- نعم، كيف عرفت اسمي!
- هيّا أريد عادل أن يأتي.

وصل هذا الصوت العالي إلينا ليقطع نقاشنا، كان صوته، وهو يطلب مني الحضور لتناول الطعام، ما أغربه قبل قليل يعتدي عليّ والآن يريد مني تناول الطعام جنبا إلى جنب؟ كُل ما أخشاه أن

يذهب ليرميه علي، "توقّع كُل شيء من رجل يفقد إمــرأة" قالهــا حكيم، وكأنه أحس بالذي أشعر به في داخلي.

- آسف يا عادل لم أكن أقصد، أن يحدُث ذلك لك، ولكــن أردت من خلال تصرّفي أن أثبت لك شعور الصدمة.

هل هو صادق!؟ ماذا يقول الخرف؟ أنا لا أعرف الصــدمات؟ قبل قليل ينعتي بالشتائم ويعلم بأن الحياة لي صــدمات، والاســتثناء الحقيقي أن تكون حياتي عادية.

- أتمنى أن تنسى ذلك، ولي مكافأة لك اليــوم حــتى نفــتح صفحة أخرى في حياتنا، سنذهب إلى أي مكان تريد.
- أريد الذهاب إلى الدار.

آخر مكان توقع أن أقوله هو أن أعود إلى الدار، لا بد أنه جُن، نظراته أشارت بالجُملة، في حقيقة الأمر أردت الذهاب إلى الدار لأني لا أريد الخوف من هذا الرجل، أبو سامي، ليس الذي عهدته عليــه، ولستُ طبيباً لأشفي جراحه الغائرة، ولن أكون في دور اللعبة المسليّة.

- لا.. أي مكان غير ذلك.
- الدار!
- أنت مصر إذن، حقا لك ما أردت.

كلام حكيم عن نوبات غضبه أخافني كثيرا، على الأقل ضمنت الآن بأن نوبة غضبه القادمة إن كان حكيم محقا ســتكون وأنــا في الدار، وبالتالي سأكون في أمان، ماذا سيحصل لو جُن علي وثــار في مكان عام؟ رُعب بداية الصباح مثل الظل يلاحق أفكاري وأنا جالس جانبه في طاولة واحدة لا يشاركنا فيها إلا خيال زوجته.

- عادل!!

تفاجئ بـــي والدك وقتما عُدت له من جديد، سألني عن وعد، أو عن الوعد الذي قطعته له، لم أجب، انحنيت تجاه اليسار ليقدم أبو سامي نفسه ويتقدّم في أنحاء الدار، يا الله كيف تغيّر، بشاشة اكتست معالمه، أصبح يضحك مع المُدير بلا هوادة وهو يُخبره عن شـــقاوتي وكيف أن الغرفة لم تعجبني، بل ادعى أنني أريد غرفة أكبر، يُكمـــل حكاية من نسج خياله عن طلباتي الزائدة وتحوّلي من غلام بريء إلى آمر شرس، يكملان الضحك وأنا بينهما أتضوّر جوعاً إلى الحقيقـــة، والدك صدّقه، حتى هو أكثرنا إلماما بنا ما وجـــد مســـوّغاً واحـــداً لتكذيبه، بدأت أشك في نفسي، في وجودي هُنا، في العالم فما يحدث هو شيء خارق لقوانين الاعتيادية، رجل صامت يتحوّل إلى أفعـــى سامة يعود إلى كتكوت صغير يُناغم مخلوقات الأرض، ارحمني يا الله!

- ولماذا جئت إلى هُنا؟
- أردت أن أشكرك على ما قدمته من تسهيلات لقدوم ابني عادل.

نظر إلي وكأنه يُريد مني هز الرأس موافقة.. جبنت وفعلت.

- هذا لطف منك يا سيّدي، فأمثالكم من الخيرين هم من بُني الدار على أيديهم.
- أبناء الحلال هاااا!

قُلتها من غير إحساس بالموقف، لم أستطع أن أسايرهما أكثر، له الحق في أن يشتم ثم يدعي التوبة، وله الحق في أن لا يظهر أنني مـــن جئت به إلى المكان، ولكن أن يأتي والدك ومن ثم يسكب عليه دلـــو المديح والثناء، فهنا يجب أن أقطع صخب مُجاملاتهم، بكوب صراحة يخر بردا وثلجا عليهم جميعا.

- أنت ابني.. نعم يابن الحلال... وضحك!.

شعر والدك هُنا بشيء ما، ضيقي كبير وضحكات الرجل الذي من المفترض أنه تبناه تعلو وتعلو، بإحساس الجنود طلب مـــن أبـــــي سامي أن يختلي بـــي لدقائق للحديث عن أمـــور خاصـــة وختمهـــا بـــ "لا نريد أن نـــزعجك" حتى يقطع عليه أي لهفة للتواجد وسطنا.

- إنه يكذب!!، والله يكذب.. لقـــد جئـــت إلى هنـــا لأني أخشاه، لقد شتمني في الصباح، وبالأمس شتم الدنيا كلّها، هذا الرجل متناقض، الآن سيضحك وبعد دقائق ســـيحطم الدار، انتظر لما بعد منتصف الظهيرة وسترى بأم عينك.
- سأرى ماذا بالضبط؟
- سترى انفعالاته الفجائية، موت الزوجة جعلـــه شخصـــية أخرى تود الانتقام من الكل.
- حسنا سنرى، وإن كان كلامك محقا فوقتـــها ســـأتدخل شخصياً في الموضوع.

ولكن حصل ما لم أتوقع حدوثه، في ساعة الظهـــيرة بالـــذات دوى صدى ضحكته في كُل مكان، كان يضحك كأنه رزق بولـــد، ويُلقي بالنكات، حتى زملائي من أبناء الدار تجمعوا حوله ليســـمعوا عن قصصه الطريفة، أخبرهم عن أوروبا وزيارته الأولى، وأيام تجارته عندما رحل عن البلاد أيام الحرب، هاجر لأن رزق العباد أهم كمـــا يرى، لم يبقَ يُحارب، بل ناضل في سبيل إعلاء الذات، أنا من بينهم أستمع وبداخلي تساؤلات عظمى إن ما كان حكيم كاذب، وأنـــه بالفعل كانت نـــزوة عصبيّة أو إنها اختبار من أبـــي سامي، بـــتُّ أصدقه فعلا، وأستسلم لروايته طواعية.

اختلى بــــي والدكِ مرة أخرى.

- هل أنت تكذب؟! من المعيب عليك فعل هذا، من قال لي بأن أصدق صغارا في السن؟
- وأبناء حرام أيضا!.
- أبناء حرام وأبناء حرام، خلّصنا من كذبك، أنــــت ابــــن كذب.

بغضب طلب مني أن لا أعود مرة أخرى إلى الدار وإلا فـــإن رده سيكون مغايراً، هددني بأن كُل الذي بيننا من علاقة جميلة ستنتهي، مـــا أشبهكِ بوالدك يا وعد، فوقتما تأزم الخلاف ما بيننا وبلغ مبلغه، هدّدتني بكُل عقوبات العالم، و لم تظني بأن البُعد أقسى من السجن، والهجر أمر من المُحاكمات، والفراق من بعد حُب أعظم ألما من الموت، هل هــــي خصلة من والدك نبتت في علاقتنا؟ أكان الزمن يُعيد نفسه مرّة أخــــرى؟ الصورة الأولى لرسالتكِ تلك أعادت لي منظر والدك الغاضــــب وهــــو يبصق في الأرض، دون أن يعي مشاعري التي يدهسها أمــــامي، سمّــــاني كاذبا، كما رأيتني مُستحقّا لهذه الصفة في آخر لقاء.

عُدنا إلى السيارة، وأنا بيّ حنق شديد على حكيم الذي أقسمت إن رأيته فسأستقبله بكلمة من معصمي، وبحُزن مــــن نهايــــة اليــــوم بكلمات المدير، اليوم الذي ما ارتضى أن ينتهي، وكان فيه أبعد مــــا توقعته، تماما.. بعد دقائق.. ونحن في طريق العودة الــــذي لا يبعــــد سوى دقائق قليلة، أحسست بتقلّب وجهه، أبو ســــامي انحســــرت ضحكته لتتشكّل على هيئة عبوس مُخيف.. ترى ماذا سيكون؟

وصلت السيارة إلى القصر، سارعت بالخروج من السيارة قبــــل حتى أن يخرج منها، ركضت في الممر، وجدت حكيمــــاً في غرفــــة

الجلوس، تجاهلته تماما، كان هدفي الوصول إلى الغرفـــة، والاحتمـــاء بالنوم في أسرع حال، عقدت العزم على تأجيل كل أفكار الثأر مـــن حكيم، وحتى التفكير فيما حدث هذا اليوم، ولكن كُل ذلك تبخّر.

لم يكُن لغرفتي من مفتاح، شاهدته فجأة يضرب الباب بقدميـــه بقوّة على إثرها قطعت الطيور حُب كان يُفعل على شرفتي، قلبـــي اُقتلع من مكانه، أمسك بـــي مباشرة مـــن ثوبـــــي، وحـــاول أن يرفعني، لم يستطع لكُبر عمره ولزيادة وزني، بصق فيّ مُباشرة، اشتهى أن يرى الألم في عيني، أصابته شهوة ليتلذّذ بدمعي، لا أتذكر شـــيء بعدها سوى إني قُمت قبل ساعات الفجر وحكيم بجانبـــي.

- ماذا حدث يا حكيم؟
- لقد أصابت أبو سامي نوبة غضب كُبرى، بعد أن رأيتـــه وهو متجه إلى غرفتك تبعته مُباشرة، رأيته وهو يبصق فيك، ثم ركلك بضع ركلات، قبل أن يرمي بك إلى الجدار الأيمن ليرتطم رأسك به، بعد أن رأى بعض الدم وهو يسيل مـــن رأسك ولى مسرعا، وبخطوات سريعة عـــاد إلى الغرفـــة، مُباشرة دخلت عليك وأنت على الحال، واتصلت بطبيـــب صديق أعرفه، وحكيت له عن كُل ما جرى.
- وهل عالجني الطبيب؟
- لا!!، لقد أخبرته عن أبـــي سامي، كُنت قد فعلت سابقا ولكنه لم يصغِ لي، والآن بعدما قلت إنك ضحية محتملة له، جاء ليراك ويراه، في البدء رأى أن الإصابة ليست بالبليغـــة فساعدنا بعضنا في وضع ضمادة على رأسك، ثم جلســـت معه لنصف ساعة أحكي له عن أعراض الاضـــطراب، لم

يقدم لي نصيحة فأبو سامي عنيد وثري، والثراء والعناد لا حساب لأصحابهم.

- اااااخ... عُد يا حكيم إلى غرفتك، لعل في شمس الصباح بداية.

كانت العودة إلى النوم أقرب إلى الحلم الذي لن يتحقق، كيف ينام من يرمش له إبليس ببجاحة؟ من يرقُد والأفكار تتراقص لا تعترف بحُرمة التعب، أعيش في قصر كبير تحتويه غرفتي التي تساوي منزلا ولكن في كُل ثانية مهدد بأن يجتاحني غول يدعى أبو سامي، أراه في الشرفة، ألمحه فوق الجدار، حتى تحت السرير توجد رائحته.. الآن أنا ابن حلال كما قال أبو سامي.. والله لو أبناءِ الحلال هكذا، فلا أريدهم.. أريد العودة إلى الدار.

- ماذا تقول.. تريد العودة إلى!؟

لم أشعر بأني قلتها بصوت وصل إلى حكيم الذي مازال في طريقه للابتعاد من غرفتي، عاد إلي وقال:

- الحل في أمجد.. هو من لديه الحل.. لكن علينا أولا أن نقنع أبا سامي الخرف بانضمامه للقصر!
- أمجد!... أمجد الحكيم!.

....

تُسارع أنفاسها، كانت تهب إلى أقرب حائط يحميها، رأت جثثا متفحمة من حولِها في طريق الهروب، أشلاء منثورة، وأنصاف وجوه قبل قليل صارعت القنبلة، شعرت فعلا بأن الله هباها العمر مرة أخرى.

كان انفجارا في جامعة الثورة، بالتحديد في مبنى مُقابل لكلية الطب، هرعت قوات الشرطة للوصول، ولكن بعد أن راح المفجّر

بذنبه إلى الآخرة ومعه ستة طلاب وطالبة ذنبهم الوحيد أن دفاتر علمهم كُتبت في جامعة، فمُحي حبر العلم إلى حبرِ دم، الأحوال بدأت في التبدّل ويبدو بأن الجماعات وبعد أن أصدرت بيانا أباحت فيه دم "المتبرّجات" من الطالبات السافرات الماجنات حطب النار كما ورد في بيانهم، والطلاّب الديوثين الذين يستحقون أن يصلبوا لأنهم أباحوا الاختلاط لنفوسهم، قد أصدرت بيانها العملي وعبر عمليّة انتحارية كادت أن تحطّم وعد في مسقط علمها.

حمدا لله أن كتاب عادل قد أنقذها من الموت، كانت في طريقها إلى زميلاتها في كليّة العلوم الإنسانية، ولكن في الطريق المؤدي للكليّة توقفت في الساحة التي تفصل الكليتين لمتابعة ما كتبه عادل، وبقت لساعة تقرأ في ما كتب، وبعد أن انهت فصلا آخر من كلماته، قرعت الأرض طبول الختام لزملاءها، الذين كانوا على بعدِ "موتِ متر" عن الوصول لها، خرجت ومعها الكتاب، وأبقت الحقيبة في ذات المكان الذي منه هربت كشاهد عيان على ما حدث.

مُخيف أن تُصبح الأرض فجأة نار حارقة تلسع ساكنيها من البشر، وعد استحضرت كُل دنياها في لحظات الرّحيل من مكان الجريمة، وأخذت تستغفر ربّها وتناجيه بأن يؤجل لحظات الفراق، كان من المُحتمل أن تموت هي قبل عادل المكتوب على سجلاّت الذاهبين من الحياة، بعد أن وصلت إلى الزاوية البعيدة استجمعت قواها، أحسّت بأن ركبتيها لم تعد قادرتين على أن تحمل جسدها، انساب شعرها الأسود ليُطبطب على عينيها اللتين رأتا كيف يُباغت الرحيل أهله.

- هيّا معي، كُل شيء بخير.

كان صوت رجل شرطة قد وصل إلى المكان، بدأ الأمل يعود من سُباته، أخيرا لا خطر آخر، هي في مأمن فلما كل هذه الارتعاشات التي لا زالت تحيط بها، لا تتحكّم لا بأصابعها المهتزة، وقدماها اللتان تحولتا إلى خشبتين مهترئتين تدفعاها إلى وحلِ الإغماءة.

"وردنا الآن الخبر العاجل، قام مجموعة من المتمردين بتنفيذ عملية إجرامية في جامعة الثورة، ذهب ضحيتها عدد من طلاب الجامعة وجرحى آخرين، والآن معنا شاهدة عيان لتعلّق على ما حصل".

- في البداية حمدا لله على سلامتك، هل من الممكن أن تضعينا في الصورة الكاملة؟
- كنت بالقُرب من موقع القنبلة، ولكن الأمتار القليلة فصلتني عن مصيرهم، كل شيء حدث فجأة.
- نتمنى لكِ السلامة، وحفظ الله وطننا من كُل شيطان لا تستقيم توجهاته، وضد العدالة وكل حُكم عادل.

من بعد الحادث، أخبرها رجال الشرطة بأنها الشاهد الوحيد، عدد غفير من الإعلاميين كانوا يتسابقون على تغطية ما حصل، ومن أجل ذلك تم السماح للقناة الرسمية بإجراء لقاء هاتفي معها، اللقاء الذي انتهى باسم (عادل)، وكأن القنبلة ما بين العادلين، عادل الحي في كتابه، وعادل الناطق في ألسنتهم، اسمه ما عاد حل يُجدي لإخفاءه، فهي وإن أحرقت كل الأوراق التي جمعتها منه، وبعد أن حظرت وصوله بجميع الوسائل، فشلت أن تحظر الصوت الذي يأتي من النّاس، عادل معها حتى بعد الحادثة.

لم تعلم وعد بأن عادل كان في مشفاه في تلك اللحظة التي وقع بها الإنفجار، سمع بما حصل، ورأى اسم وعـد علـى الشاشـة، لم يصدق ما يشاهده، كان يبكي... كان يهوي.. كان يحفر تجـاويف شوق في داخله، ويبتلع حبوب التكذيب لكـي لا يصـدّق، راوده شعور بضرورة الاتصال بها، يعرف أن رقمها لم يـتغير حـتى الآن، ولكن من سيشفيه بعد أن تتجاهله؟ مرضه بكاملِ أتعابه وأوجاعـه والموت الذي يُلاقيه أخف وطأة من ضربةِ تجاهل منها، ما كان منـه إلا أن صلّى في فراشه، لم يعد بمقدوره المشي، ودعا الله أن لا يغيّـر عليها أمان عيشها، خائف هو من كُل شيء، ليس متيقنا أنها لا تزال تقرأ، أو حتى اشترت الكتاب، معزول عن كُل الأخبار، والآن خـبر يُميته حيّا، يستطيع أن يتحمّل كل شيء، إلا بما يتعلق بوعد، هـي الوحيدة التي يسأل الله أن يجزيها كل السعادة والعطاء بـدلا عنـه، عادل ما علم أيضا أن وعد قاعدة الآن في مخفر الشرطة لاسـتكمال التحقيق وهي قد فقدت عقلها مهلوسة بإسمه.

الإنفجار كان دليلاً على أن الجمهورية قد دخلت مرحلة أخرى من الصراع، رغم أن الشمال الغربـي قد هدأت أحواله مـن بعـد حرب جارفة، أدت إلى تهجير نصف السكان ومقتل النصف الآخر، إلا أن روح القتال لا تزال تشب في الناس، الوجـوه الـتي ادت إلى اندلاع الحرب قبل سنين، هي ذاتها تكرّرت وهي من تُعطي لأهواءها مبرّرات لإقناع الناس بجدوى القتال، لا أحد فيهم حكيم يسأل بأي ذنب يُقاتل، وأي شريعة هي التي تُبيح إنهاء الأرواح بالإنابة، كانـت التصريحات تتوالى ما بين شجب وآخر يرى فيها عمليـة وُجـدت لأجل إعلاء كلمة الله في الكون على حد وصفهم.

والد وعد وصل إلى المخفر لإعادة ابنته إلى البيــت، في مســاء اليوم نفسه ورده اتصال من رقم لم يتصل به منذ زمن بعيــد، كــان رقم التعبئة بالقوات المسلحة.

- السيّد سعد؟
- نعم يا سيّدي، أنا سعد.
- إن إدارة التعبئة العامة تطلب منك التواجد في صباح الغد، بزيّك العسكري لأن هناك أوامر عليا بضرورة مشــاركة المتقاعدين في الحرب كصف إحتياط، ولأن خبرتكم كبيرة يا أخ سعد فالوطن بحاجة إلى أن تستغل في سبيل الحفــاظ على منجزات الدولة والثورة، وأنتم من كُنــتم ســببا في تحريرها من المحتل الغاشم.
- ولكن بــي إصابة، لا أقصد طبعا أن أخذل نداء البلاد.
- ولأنك لن تخذله ستقدم بإصابتك أو بدونها!.. نلتقي.

في قرارة نفسه، خشي الوالد من الحرب، هي حرب أهلية وهو من لم يُشارك في النــزاعات الأهلية الأولى، هي ليست كحرب التحريــر، ففي التحرير هناك علم وطني يرفعه، وجندي عدو ليس مــن دينــه ولا لغته، ولا هو بمسكين، كان مغتصباً لأرضه، وهو يطرده منها، كانــت تهلل له البلاد، وفي صدره نياشين الفخر بتحرير كل شبر وإعادته للوطن، أما الحرب هذه فيعلم بأن في كلا الجانبين أمهات ثكالى وأولاد يتــامى، وفي كلاهما سيُقتل من حارب جنباً إلى جنب في سبيل التحرير، كــل شيء بات يخذله.. الزمان والمكان ودوافع الحرب وقدمه التي يعاني منها.

في طريق العودة بالسيارة، لم تسمع وعد حديث الوالد، فهــي مشغولة بما يحصل لها، هيَ مدهوشة لأنها تكتشف الحياة من جديــد،

كيف ترى ستستقبل نبأ رحيل الوالد وإعلان حالة الطوارئ والحرب في الوطن؟ هل سيكون هذا هو الوداع الأخير، والليلة الأخيرة الـــتي تجمعهما في سقف واحد، هل سيتركها الوالد مُرغمـــا لأن روحـــه وهبها لأجل النّاس لا هي، من سيقف بجانب ابنتـــه في محنتـــها؟ لم يشهد ميلادها ويخشى اليوم أن لا يشهد زواجها في المُستقبل.. مـــن غير وعي قال: "وما فائدة التقاعد اذن".

عاد إلى بيته دائخا، وبعض من وعد يغفو على ذراعه كقطّـــة ودودة، دخلت الأم عليهما، صاحت: "الحرب الحرب"، قفز صوتها على سكينة الليل، شيءِ ما يدفعها إلى أن تمنع زوجها من المُشـــاركة في القتال.

- قُضي الأمر.

بلهجة حاسمة قالها، الهرب في ظرف مثل هذا ســـيعرّض كـــل منهم إلى الخطر، في حرب التحرير قُتل شقيقه عند مشارف الحدود، طمع أن يلوذ بالفرار من المعارك، خشي أن يموت وأحلامه على قيدِ التحقيق، ظروف الحرب لم يستسغها، لا يشعر أنه رجل بسلاح، هو لا يحمل من الأشياء سوى أقلامه وسطوره وفرجـــار يســـتخدمه في التخطيط للمباني، لم يُعر أقوال الناس اهتماما وهم ينعتونه *بالهـــارب الجبان*، "كُل الجبن أن تُصبح وليمة حرب يأكلها المجرمـــون"، يـــرد عليهم أثناء حزم الحقائب.

الخطة مُحكمة، سيستعين بأحد جنود المقاومة الذين يرابطـــون على الجهة الشرقية من البلاد، أقنعه بألف ريال نظير التعـــاون معـــه وتسهيل المهمة، القمر في مهده على وشكِ السفر، الشمس من وراء حجاب تحبس أنفاس العودة إلى سباق السماء، معه سلسلة أمه الـــتي

ماتت من العطش بعد حصار دام شهراً لمدينتهم المنكوبة، والبعض من تربتها لتحميه روحها في خطة الهرب التي يراه خلاصا.

- أشهد أن لا... وسقط مفتوح العينين، يرى أمانيه معلّقة على علاّقة المستحيل.
- لماذا أطلقت عليه النيران؟!... قال الجندي الذي اتفق معه على التعاون.
- بأي حق يرحل عن الوطن؟ نحن نستقبل الموت لأجله!.. قالها الزميل صاحب الرصاصة التي سكنت منتصف الصدر.

سعد استقبل الخبر وهو على جبهات القتال ببرود، كثرة الموت تسلبه هيبته، اليوم يفكر في الغباء الذي جعله يتخلى عن حقه بمحاكمة القاتل، دم الشقيق لم يكن مجرد أكثر من سائل مسكوب يُداس بأقدام المارة.

في المنزل داهمه ألم، وعد لا تزال تهوي في قاعِ الماضي، وهو يسقط إلى الأعلى، زوجته تولول الرحيل القريب، وعادل!.. ما دخل عادل!.. ليته يكشف السر الذي يخفيه عنهما، عزاءه أن الموت سيأتيه في معركة، لن يموت وكُل الجيران يلعنون روائحه.

- ما فائدة الجنازات العسكرية؟

مرة أخرى قالت زوجته، "لن تشعر بشيء، سواء أمتّ في حريق أو ملعونا في بحر، الجنازات غلافات فاخرة لأجساد متعفّنة"، لم تحترم الرجل الذاهب في مغامرة الموت الأخير، لم تأبه لعقاب أحد يسمع صوتها، كانت تبيع الروح، الروح ماعادت إلا مغذيا للسان أهلكه الشكوى.

- هيبة الجنازة ستورّث لأبنائي.

- عن أي أبناء تتحدّث!، عن ابن منتحر، أم مسجون، أم متمردة كادت أن تُفقد بسبب لعنة الحرب، أم...(وسكتت قبل أن تُكمل).
- كفاكِ خديجة، اليوم يومي الأخير قبل الالتحاق بالكتيبة وهذا وداعكِ؟
- بل أنت كفاك من الجحيم الذي جعلتنا نسكن فيه كُل الحياة.

(قال في نفسه لا فائدة من خير تقدمه للنساء، مهما ثقل ميزان الخير سيُنسى أمام ذرة الشر)، تجاهلها و لم ينطق ما كان يختلج صدره ويعتمر فؤاده.

راح يسبح في صغره، تربّى سعد في حارة تُدعى (حارة الأنبياء)، غادر القرية بعد أن أكمل العاشرة، بات سعد يفكر الآن في أين سيدفن؟ أيام حرب التحرير شغل تفكيره أين سيمضي فرحة التحرير؟ هل هو العمر الكبير الذي أفسد عليه تفاؤله؟ أم أن اغترابه في الحياة المدنية سلب منه وله البندقية.

دوما كان يفاخر أنه ينتمي لبلاد الثورة، اليوم يكتفي بالاعتزاز بقريته، والرائحة الغريبة التي تفوح منها زواياها، الرائحة التي بسببها عاد من سفر لإحدى الدول بعدما شتمه أحدهم.

- يبدو أنها رائحة السكان الوسخين!.

لم يتوان عن ضربه مُباشرة إلى عينه، روح الحروب حامية، مشتعلة في لاوعيه، تم إبعاده في أقرب طائرة إلى بلده بعد أن راعت السلطات سبب غضبه، عاد إلى القرية مُباشرة يتبرّك بالرائحة التي لأجلها لم يكمل رحلة عمره.

- لماذا عدت مبكرا؟
- لأني انتصرتْ لقريتي!.

قال لأهله المتبقين في القرية، اليوم لم يعد أحد يسكن المدينة، الرائحة لم تغادر المنطقة ولولا الراحة لطُمست جميع المعالم، (هل أأخذ الرائحة قبل الانتقال إلى المعسكر؟)، الفكرة تلاشت، يخشى أن يبكي على الأطلال، منزل الصغر تحوّل اليوم إلى دار دعارة يذهب إليه اليائسين من مختلف أنحاء الجمهورية، يتناسون فيه خيبات ثورتهم.

لو رآه أحدهم سيظن أنه يقوم بالمعصية الأخيرة، الأسواق مهجورة من زبائنها، كُل شيء يباع هُنا هو الجسد، لا أمل في زيارة وداع اذن، تمتم بها متحسرا.

الساعات بدأت بالانحسار التدريجي، يُريد أن يفعل شيئاً يكسر فيه جمود الختام، يرى رقبته فيها انعواج، يتحسّس قدميه لازالت مكسورة، يرى عينه بالمرآة تهلُّ عليه الشحوب، وجهه متكدّس بالخدوش، رجل بشع!، سمعته زوجته التي عادت الى الغرفة بأربع خطواتها.

- الاعتراف بالحق فضيلة!.
- الطيبون للطيبات.. الخبيثون للخبيثات.. البشعون للبشعات.
- الحلو لا يكمل.

بصيص مزاح، أليست بهذه الأشياء تدوم العلاقات الزوجية؟ فجأة وعد تمشي من خلفهم، تزبدُ نعاسا، بملابس نومها تسعى إلى إماطة اللثام عن المشهد، "ماذا يحصل"؟ كُل من في البيت يعلم عن اليوم الأخير للوالد، إلا هي جعلتها أفكارها تتجوّل في أنحاء الخيال

والأحلام، الساعة قرابة الثالثة فجراً، موعد الانطـــلاق للمعســـكر حوالي التاسعة صباحا، هي ست ســـاعات اذن، "أنـــا راحـــل"، لا يستطيع أن يقول، ذلك سيجعل ابنته ضحية وحدة قاتمـــة، صـــوت دقّات ساعة سيكسرها، كيف بصوته وهو مودّع؟

- عودي إلى غرفتك.

عادت وعد إلى الغرفة، الزوجة غضبت من إخفاءِ الأمر، هددته أن تخبرها إن كان مصراً على السكوت أمام ابنته، عليه أن يُصـــارح وعد، تعلم أن حالها أضعف من الصدمات، لكن صدمة الخـــبر ولا صدمة الفقد المفاجئ، تريدها أن تستعد قلبيّاً للرحيل، كـــل مـــن في البيت يجمع على موتِ سعد، ما تحدّث أحدهم عن احتمال عودتـــه سالما من الخطر، "هل يذهب خلسة من البيت دون أن يسمعها"، آه تنهشه الاحتمالات والخطط.

- لن أخبرها بالأمر!.

- لن تخبرها!، ه ه ه ه أنت ابن حرام!.

....

كان الشارع مليئاً بالمتشردين، معي حكيم، كنّا قد طلبنا مـــن العجوز (أبو سامي) الذهاب قليلا للتبضع، سمح لنا بذلك وهـــو في حالته الارتياحية، سارعنا في تغيير الطريق من السوق إلى حي يعيش في مكب البُعد.

- هذا الحي الذي يعيش فيه أمجد.

أحد الأطفال منفي إلى جدار، كلمات بذيئة مكتوبـــة، وهـــو مستند عليه، ينتظر العطف من مكان لن يجد فيه إلا أشرار الخلـــق، هبّ للوقوف بعد أن رآنا ونحن بملابس راقية، سارع إلينا صـــارخا

"لله يا محسنين"، أنا محتاج أريد المال لعائلتي، رفض حكيم أن يعطيه أي مال، توجهت بالنظر إليه، "لما يا حكيم"، أمسك بيدي مثل جندي، ثم قال:

- لو أعطيت أحدهم هنا لتدافع عليك العشرات في المنطقة، أنت لا تراهم، هم مكدّسين في كل مكان، ما إن يرون منفقا حتى يحاصروه فجأة، يتدافعون عليه وإن كان في سيارته، هنا لإنفاق الخير ضريبة يا عادل.

استكملنا الطريق إلى الداخل، الغربان تصطاد الفضلات، مجنون حافي القدمين يُنادي، آخر لا يقل جنونا عنه يهدي (حورية حورية)، مجموعة من السكارى يتعرّون أمام المارّة، وآخرين بأثواب قصيرة يلاحقونهم بعصواقم، حي يحوي كُل التناقضات، نساء يتأهبن لدخول الرجال إلى الحي، ونساء أخريات يتلون التراتيم، مسلمات متنقّبات يسألن الله العفو والغفران، أين أمجد؟ هل يعيش في بيت مجاور لصالح أم هو ولي صالح بثوبِ شاب.

- هاهو بيت أمجد.

ليس بيتا، هي غرفة وحيدة، باب من الحديد الصدأ لا قفل له، جميع البيوت في حال عجز تام، قاب قوسين من السقوط بأقرب عاصفة شتوية، هؤلاء محظوظون لأن هناك من لا بيت له، هم لهم بيت وأهل، وهذا يكفي في مقاييس الفقر، مهلا هُناك شيء بخط اليد.. من سوء الحظ الخط غير واضح!

حين كنّا في دار الرعاية سمعنا خبر من المدير السابق وهو يحادث الخادمات عن عمه المتزوج من مسيحيّة، في إجازته الصيفية اندلعت الأحداث، لا أحد يعلم من رسم الصورة المسيئة للقرآن، وفي اليوم

الآخر من رسم صورة أخرى تسخر من المسيح، في منطقتهم بالذات شرّد بعضهم بعضا، كانت فتنة واضـــحة أدت إلى طلاقهمـــا بـــل ونشوب حرب أخرى قبل أن تدخل السلطات لفرض حصار علـــى الطرفين، تُرى هل أمجد اقتبس من تعايش القرية أفكاره أم من أولئك المتعصبين؟

- أهلا يا حكيم!... من هذا الذي معك؟

كان أمجد، كبر قليلا، زمن طويل على التقائنا بالسجن، أنـــاس كثروا قد مروا عليه بحيث طمسوا ذكرى اللقاء، ربما حادث المئـــات منهم، الآلاف لا أدري، لم يتذكرني، أنا تذكرته لأني لا أنسَ قـــط، وأمجد تضعه في باب الذكريات فينحبس في بابها بلا خـــروج، لقـــد نظرت إليه مباشرة، حاول أن يتذكّر شيئا، فشل وبدت عليه الحيرة، وضع يده اليسرى على خده، لم يفلح أيضا.

- أنت أمجد.. أنا عادل، قابلتك في سجن العاصمة، ووقتـــها أخبرتني عن الحياة وظلمها، وأنت أول من اقترب مني.
- أنا أكرر على كُل المساجين هذا الكلام.
- ظننتك حكيم.
- هذا حكيم!.. أنا أمجد!.
- أعلم!.. ليس وقتاً للمزاح، عموما يا أمجد مازالت كلماتك ترن في أذني كأني ألتقيتك البارحة.
- بك حزن؟ بمقدار الحزن والضيقة تكون التعزية، لأن الله لا يعطي موهبة كبيرة إلا بتجربة كبيرة.
- اذن تعتقد أن الله سيمنحني موهبة جزاء تجـــربتي الآن مـــع أبـــي سامي؟

لم أعلم بأن الله سيمنحني القلم لأعوّض عن ما وجدته في منــزل العجوز، الكتابة هي جذعي، دوائي، وأحزاني ماهي إلا أسباب كتابــة أخرى، أراد الله لي الحياة هذه، لأجل أن يلد الكتاب هذا).

قاطعني حكيم: (هو لا يعلم عن تجربتك و لم نخبره بها إلى الآن)، أخبرته بكُل شيء، عن مخاوفي من المستقبل، والإنسان المتــأرجح في انفعالاته، كعادته أجاب علي.

- في اقتباسي الأول لم يكن ذاك كلامي، هو كــلام رجــل صالح يقول "كن ميّتا بالحياة، لا حيّا بالموت"، هو إســحق السرياني يا عادل، وهو من أشعر بأن في كلماته ضوء إلهي، عاش آخر حياته ما بين تقشف وتزهد، لا أستطيع الإجابة إلا بما يقول.

أصبح متديّنا كثيرا، حروفه مصبوغة بالتقوى، قياديته ظــاهرة كما السابق، لكن لما دخل إلى السجن؟ صحيح لم أسأله.

- بقيت في السجن لسنة لأني قمت بأكل رغيف خبــز دون أن أدفع ثمنه، القاضي عاقبني بعام كامل في السجن وانهى ديباجته بمزحة قائلا: "هناك رغيف في السجن". أظنك رأيت حــال القرية، معدومة الحال، الذي يملك الخبز كأنما يملك القصــور، أقصى طموحات الغلمان بعض الطعام الذي يشفي معــداتهم المرضة، لا شيء إلا الهواء، أو روائح من هنا وهناك.
- كيف تسرق وأنت صالح؟
- لستُ صالحا ولا ولي، أليس من الأولى مُحاسبة من ســبّب لنا الجوع يا... نعم يا عادل!، هل علي أن أموت لتطبــق العدالة بصحيحها؟

كان صديقي عاملا في أحد دور العبادة، استحى أن يطلب من أحد طعاما ليجده، بات الليل بأكمله يتعبّد، وفي صباح اليوم التـــالي وجدوه وقد تجمّد من البرد، ومات بسبب الجوع، لو شرب القليـــل من الماء لكان بيننا اليوم ناجحا يشار له بالبنان في المجتمع الكنســـي، حرمنا الطعام منه، تعلم بأن الحال صعب، ولا بـــد مـــن مواجهـــة الصعب بالحل الأصعب.

- طيّب، الآن يجب أن نقنع العجـــوز بأهميـــة وجـــودك في القصر.(حكيم قاطعنا مرة أخرى).
- لن أذهب من هنا، إلا وأمي معي، من المستحيل أن أجعلها وحيدة حتى وإن ذهبت إلى الفردوس، أمي معـــي وإلا لا ذهاب، أما عن مشكلتك يا عادل فأعتقد أن الحل عندي، يجب أولا أن أعرفه عـــن قـــرب وبعـــدها سنتشـــاور في الخطوات المقبلة.
- سنحاول أن نقنعه أن أمك ستعمل خادمة، هو يحتـــاج إلى أنثى في المنـــزل وإن كانت كبيرة، الأنثى لا تكبر أبـــدا، وضحك حكيم.

عُدنا إلى العجوز أبـــي سامي، من بعد الحديث العابر، خفنا أن نبقى لدى أمجد أكثر، في طريق العودة مررنا على بائع يعرف حكيم ومنحه كيساً به بعض الخضروات والفواكه، ربما أخبره أنه لن يـــأتي إليه فقام بتجهيز الحاجيات له، حكيم يعرف كل أهل العاصمة.

- وأين كنت تعمل يا حكيم قبل عملك لدى أبو سامي؟
- ولدتُ خادما يا عادل، أبـــي كان رئيس الخدم عند عائلة أبـــي سامي، وأنا ورثته من بعده، لو كان لي ابن لـــورث

مني المهنة أيضا، لم أفكر في مهنة غيرها فحدود العالم تبـــدأ
من التنظيف وتنتهي بالتنسيق، أعرف المدينة لأني في الصغر
عشقت التجوال، واستغللت فرصة الدراسة علـــى نفقـــة
أبـــي سامي، بالتعرف على الناس.

وصلنا إلى المنـــزل، أبو سامي صامت في المجلس، بســـرعة إلى غرفتي، وجدت كُل شيء محطّم، السرير الذي نمت عليـــه اليـــومين الماضيين بات مجرّد أخشاب متكسّرة، الصـــور الرياضـــيّة مقطعـــة، الوسائد كل منها في زاوية، الجدران مكتوب عليه (ابن الـــق....)، هذه المرّة عيار أكبر من الشتيمة، من غيره العجوز فعلها، من في هذا البيت مجنون سواه.

لملمت الوسائد، توسّدت الأرض البكر، وفضّلت النوم جالســـا بشرف على الصراخ، هادئ كأن شيئا لم يكُن، بلا صوت كأخرس ابتلعت ما كان مفترضا أن يكون صدمة، لا صدمات هنا، كل شيء متوقع مع الرجل.

– من فعل هذا؟

دخل أبو سامي كعادته إلى الغرفة بلا استئذان، يسحب خلفـــه حقائب الشر، ينفث دخّان الكذب، يقرّب يديه مني، أبتعد إلى أقرب حائط.

– لا تخف، فقط أود الاطمئنان عليك.

من غيره فعل ما فعل، الخدم لا يتجرأون على المساس بغرفة في قصر الرجل، الأولاد مسافرون جميعا، هل جاء لص ليكتُب ما كتب ويذهب؟ لا أعداء لي يريدون ثروة، ولا ثروة لي تجلب الأعداء، على من تكذب أيها الخسيس.

- ألست أنت من فعل هذا؟

بدا مُندهشا بحق، ردة فعل غريبة، ملامح وجهه تبيّن مدى صدمته، قال: (لاا، ولما أفعل ذلك بابني المسكين، هل أنا مجنون لأفعل هذا، أعتقد أن هناك من يكرهك في البيت ويتآمر عليك لسبب ما، ابحث عن من حولك، ستجده بينهم، أما أنا فلا أفعل، لا آذي جناح بعوضة فكيف بغرفة؟

كأنه نسي ما فعل البارحة، وما قبلها، الرجل خرف إلى درجة انه لا يتذكر ما قام به، لا.. هو يتذكر ولكن يتعامل بخبث مع الموضوع، يبتغي حاجة لا أعلمها، أعانني الله عليه.

- حسنا يا سيّدي، أنا متعب جدا، أود النوم بهذه الحال فأنا معتاد على النوم في حالات أسوأ.
- لا... ستنام معي في الغرفة لما لا؟ وابتسم.

ارتجفت، لوهلة سقطت النجوم من السماء، حاولت يد الكون أن تُمسكها، شهاب التوى رأسه إلى الأرض، دعوت في سري أن يخلصني الله من الليلة بسلام، السلام الذي يعني أن أنام هنا في البرد والعراء بلا أي شيء، كل شيء أهون علي من النوم مع مخبول عاشق.

- شكرا يا سيدي على كرمك، هذا كثير عليّ، لا بأس في أن يرافقني الحطام في الليل، على الأقل أجد أنيسا أنظر إليه، في الصباح سأخرج مع حكيم لنجد من يصلح السرير، كل شيء له حل في المدينة.
- ضحك بلا انقطاع وقال: "من علّمك التملّق؟ أهو حكيم؟ الأسواق لا فائدة لها.

تابعت خطواته وهي راحلة، بتُّ الليلة مع حكـــيم في غرفتـــه الخارجية، جاء إلي بعد أن تأكد من وجود العجوز في غرفته. في اليوم التالي، بدأنا بتنفيذ الخطة من خلال اقناعه بوجـــود أمجـــد وأمـــه في منـــزلنا.

- يا سيّدي، أعتقد أن عادل يحتاج إلى رفيق، كل من في البيت إما طاعنين في السن أو خدّام وهو من جاء للتو من دار يحفل بمن في فئته العمريّة، صديق سيشغله عن الملهيات، وســـيبقي شرارة الحلم مشتعلة داخله، لا تتركه يـــا ســـيدي فريســـة للتوحد، فهو لا ينقصه أن يبقى وحيدا في جدران مذهبة.
- وهل تعتقد أن الصديق موجود؟ أعني كل مـــن في الـــدار يريدون الالتحاق به؟
- هناك شاب في مثل عمره تقريبا، يسكن حارة النصـــارى، متديّن جدا وصاحب أخلاق رفيعة، يعرفه عادل من الدار غير أنه لا يسكن الدار، لديه أم في عمرك يا سيّدي وأظنها تصلح لأن تكون خادمة معتمدة لك، فأنت تحتاج إلى من يرعاك بعد استشهاد زوجتك غفر الله لها ذنوبها، عليك أن تفكر جيدا، هؤلاء لا يحتاجون إلى الأموال فهـــم أشـــبه بالرهّاب ولكنهم بحاجة إلى مسكن يقيهم من البرد، منـــها ستكسب الأجر الوفير من الله، وأيضا ســـيحظى عـــادل بصديق يوجهه بحكمة.

فكّر العجوز قليلاً، تفرّس ملامح وجه كل من عادل وحكيم، سأل عادل للتأكد من معلوماته، بدوره أجاب بالموافقـــة، وشـــجعه أكثر على المضي في خطوات القرار.

العجوز في حيرة شديدة، لم تكن هناك مشـــكلة في أن يجلـــب صديق لعادل، لكن ماذا عن زوجته؟ هل ســـتحل المـــرأة محلّهـــا في البيت، تبتسم له في ساعات الصباح الأولى، تودعه وقتما يرحل مـــن البيت، تجيء له بصحون الطعام وتجلس بجانبه ليحادثها عن مفـــاتن الدنيا، أيوافق وتدخل إمرأة المنـــزل بعدما كانت النساء محرّمات في شريعته، ينظر إلى السماء، يريدها أن تتكلم، أن تخرج روحها عـــن الصمت، تظهر له في حلم، تتكلّم، تخبره عن رأيها، وتتبخّر بعـــدها كقطرة، يتمنى لو أن للموت استراحات يعود فيها الشخص لحياته.

زوجته منذ أن تزوجها، لم يرَ في عينيها بصمة حقد، كانـــت تقول أن لكل شيء ساعته، سألها عن شدّة ثباتها فتقول: "ما همّـــني الموت دام أن لي ذكريات حيّة، من عاش في قلوب النّاس، ما أخافـــه الموت". هي من أنشأت مكتبة منـــزله، حرصت عليه كما لم تحرص عليه أمه، يستحيي أن يرفض شيء من أمامها، يشتاق إليها كـــثيرا، ماذا يفعل من يشتاق وطريق اللقيا موصد؟ كيف الســـبيل إلى دواء اللقاء وقتما يصبح الحنين مرضا؟ دارى دموعه عن حكيم وعادل، لم تصبه نوبة الغضب، هو في نوبة ضعف شديد، انكسار مدوّي لا تفي حقه الكلمات.

بصوت خفيض قال عادل: "يا سيّدي الوقت ليس مناسب الآن لنبقى هنا، أشعر أن القرار صعب عليك، ما رأيـــك أن تســـمح لي بالذهاب مع حكيم إلى السوق مرة أخرى؟". لم يجبه كـــان صـــمته موافقة.

عاد كلاهما إلى السوق، أخبره حكيم عن أن زوجـــة العجـــوز كانت إمرأة معروفة أنها أغنى نساء البلاد، تزوجته لأن العجوز ينتمي

لعائلة ثرية أيضا، زواجهما كان مختلفا عن أي زواج تجتمع فيه الثروات، لم يكن زواجا تقليديا بمعنى التقليدي، ففي سفرة قديمة إلى البندقية تعارفا في قارب، ومنذ ذلك اليوم وهما معاً، أكملا الدراسة قبل أن يتم الزواج، هي من جعلته يحول مجال تجارته من نبات التبغ إلى المنتوجات الحيوانية التي أصبحت اليوم تدر عليه الكثير من الربح، كانت عقيمة، جميع أولاد العجوز هم من زواج آخر له، طلق الزوجة الثانية بعد أن أطمأن لوجود ذرية من بعده، رغم عقمها إلا أنها كانت الزوجة الحقيقية له.

- رجل بمثل وفاءه تزوج عليها؟
- الوفاء أن يتزوج غيرها.
- كيف!.
- لو لم يتزوج غيرها، لانتهى مصيرهما بالطلاق، أحيانا وجود إمرأة يكون سبباً في الحفاظ على العلاقة مع إمرأة أخرى، هذه الطريقة ضمنت لها أنه لن يشكي لها باكيا عدم وجود أحفاد أو أبناء له، بذلك أصبحت في عينه قمراً عقيم لا يُنجب، فقط يمنح الحُب.
- صحيح، من لا يبتعد بإرادته عن أسباب الأهواء، تجذبه الخطية رغماً عنه.

أمجد يقتبس مما قرأه.. كان خلفنا يستمع..

....

ضربت قذيفة المُعسكر، وصلت الحرب إلى العاصمة، حضنتهم القُنبلة وحملتهم إلى لجج التراب، غنّت مواويل القدر لتُنادي هل من جندي لنقضي عليه، كان بينهم، قدمه الأخرى سلّمت وجودها إلى

ملكِ المعركة، تمنّى لو ضربت جسده عوضا عن أقدامه التي تحوّلـــت إلى ثمن يُدفع مقابل حياة عفّت عليه نفسه أن يتركها، لا مفرّ من الضربات، وصلت الجماعات لأن تنحر القليل منها ليموت الكثير، الانتصار هُنـــا سيكون على جثث الجميع، قال أحد الذين رآهم وهم يموتون جانبه.

الساعة مبكّرة، (تفجير انتحاري في مخيّم لجنـــود الاحتيـــاط في العاصمة، والمحصلة الأولية تسفر عـــن عشـــرين قتـــيلاً وعشـــرات الجرحى)، وعد تزال في الغرفة، سألت عن والـــدها في الصـــباح، لم تُجب الوالدة، قرأت ما تيسّر من عادل، وهمّت بالخروج، قبـــل أن تسمع أجراس الحرب في كُل مكان، الإنذارات عادت إلى العاصمة، كل هذا يذكرها بالصغر، في غُرفتها وصل صوت أمّها وهي تقـــول: "قُلت له، قُلت له.. لعن الله أهل الحراااام!". نهضت مـــن غرفتـــها مجددا، لما أمّها تقول هذا، شعرت بشيء ما ينحت نفسه في أعماقها، والدها هُناك.. لا بد أنه ذهب، جـــاء الخيـــال دون أن تـــدرك أن أحاسيسها شهادات واقع لا مفر من نسيانها بدفعها بعيدا بصرخة.

- والدك يا وعد... ذهب إلى المعسكر في الصباح.

لم تشعر به، قبل أن يذهب، دخل على وعد، قبّلها في خـــدّها كما كان يفعل حين كانت يرقة صغيرة، احتضنها كثيرا بهدوء، قال لها هامسا: "وعد، أحبّك يا وعد، والله والله أحبّك". غســـلها بدمعٍ هطل، وكفّن لحظات الوداع بتحايا لم تسمع منها شيئا، غارقة في التعب والنوم والاحتياج للفرح، لا حل آخر أمامه، سوى الرحيل بهذه الطريقة، الظروف الصعبة لا تحتمل العواطف، تركها في مكانها مستسلمة لنداءات النوم، وأغلق الباب للمرة الأخيرة، بداخله يـــتمنى العودة، في خارجه لا طريق إلا للعودة للمعارك.

رأته الزوجة، عانقها كثيرا، لا مجال للخــلاف علــى أبــواب السفر، مارس الحُب كقبلة طويلة منحته إحساس شبيها بقبلــة أولى منحها لابنة الجيران في الصغر، هل يموت لأجل ذنب قُبلــة محرّمــة؟ نسى ذلك وانغمس مرتويا من نبعِ أنثاه، ثمّ أوصاها خيرا بكُل شيء، "الله الله بابنتنا وعد، الله الله بكل الأبناء، الله الله بعــادل!!". آخــر كلمة قالها بهمسٍ شديد، السر لا يريد أن يسمع به حتى الجــدران، عادل حاضر بينهم، وهو الذي يُشاهد الحرب في مشفى تحــوّل إلى ثكنة عسكرية للجرحى، يده على قلبه، صادف كتابه أن يُصــدر في وقت اندلاع حرب، سيموت النّاس ويبقى هو منتظرا للضيف، ياله من ضيف يتأخر قبل أن يأتي.

ودّع الجيران، جميعهم عفو عنه في لحظة رغم القطيعة التي سبّبها تمرّد وعد على عاداتهم، شعروا بالأسف وهم يرونه بحال صعب، رجل يُفني حياته لأجل وطن لم يقدّم له سوى حطب الحروب، غيره وصلوا إلى مجلس الثورة، منهم من رقّي لأن يكون سفيرا في أوروبا، أو رئيسا لدوائر مهمة، هو تنقّل ما بين الأعمال الإنسانية، قد استباحوا طيبتــه ورهنوه لها، هم جميعهم سافروا إلى الخارج أو احتموا بمنــاطق آمنــة، وأعادوه هو بزعم الواجب الوهمي، قال النّاس في سرّهم.

في المخيّم، رأى الكثير من صغار السن المتحمّســين للحــرب، "سنقضي على أبناء الحرام"، "سنرفع راية العاصــمة"، "ســندخلهم جهنم اليوم"، يرددون الهتافات والأناشيد، استقبله أحد المســؤولين على المعسكر، كان دوره أن يكون مدربا معنويا لهم، أدخل حاجياته إلى الغرفة، قانعا بأن الحاجيات ستحيا بعد الرحيل، بعد أقل من ربع ساعة، دخل عليه أحدهم.

- قرّرنا أن نغير دورك لأن تكون قائدا للكتيبة، لـــك خـــبرة طويلة يحتاج إليها الصـــغار، وجـــودك بقـــدمك التعبـــة سيمنحهم روح معنوية إضافية، ستكون القدوة التي يحتذى بها في التفاني لأجل الثورة وأهدافها، الثورة تحتاج إلى رجال حقيقيين نراهم بعيوننا، وجودك بينهم أكبر حـــافز لمـــنح القتال، تعلم أنهم جنود احتياط، وأنـــه خـــلال ســـاعات سيصبحون جنودا أساسيين في الحرب، أتمنى لك كُل الخير في سبيل الثورة.
- أليس من الأولى أن تُسند لهم القيادة، هم الشباب ونحـــن انتهى دورنا.
- الخبرة لا تنتهي، الثورة مستمرة.
- إن شاء الله

أراد أن يجلس مع نفسه، "الثورة مستمرة"، انحـــى رأســـه إلى الأسفل، شاهد قدمه، حاله، لحيته الكثيفة، كُل ذلك من بعد الثورة، رحل الاحتلال الأجنبـــي وبقي الاحتلال مستشريا في نفوس البشر، سنستمر في الحال الأردى، لو يستطيع أن يـــرفض، الـــرفض يعـــني الخيانة، والخيانة تعني الموت أمام الجميع في منتصف العاصمة، ستنقل القنوات الحكومية مشهد الخائن الذي يُقتل وسيقولون: "انظـــروا إلى العجوز الذي وهب الحياة للشيطان". الآن يبحث عن الجائزة في مـــا بعد الموت، كّل سعيه لأن يموت سويّا، لا يغضب عليه أحـــد مـــن النّاس، الموت هنا أنواع، الموت هنا أساليب، الموت هنا تجارة.

وعد المسكينة، ستستيقظ من نومها لتبحث عنّـــي، ستســـأل زوجتي عن مكان وجودي، ستُصعق عندما تعرف أن عـــودتي لـــن

تكون إلا على نعش، حادث نفسه بأسى، وأكمل في سره قائلا: "خذلت وعد، لم أرَ تعرّفها على الحياة، لم أمنح لها لا افتتاح يليق بها، ولا ختاما يعوّض عنها سنين الخذلان، وفتح ورقة وعد التي وضعها في جيبه، لا يريد أن يموت بلغم، على الأقل إن مات برصاصة ستبقى ورقة وعد "أحبّك يا أبي" في جيبه من غير أن يمسها الضرر، يُمسك الورقة ويقرّبها إلى قلبه، لن يصدّق أحد أن من عاش ثلاثة أرباع العمر في الحروب يبكي لأجل بناته، يحسبون أنه بلا شعور، من قال إن الحروب تسلب الأحاسيس، إنها فقط تكتمها.

يلقي نظرة على النافذة، الأرض هذه ستطحنها المعارك طحنا بعد أيّام، سيكون هو مجرّد رقم في إحصائية الشهداء، سينادى شهيد الوطن وستأتي المكارم، لم يكرمه أحد بعد أن قام بعمل بطولي أثناء التحرير وقتما استطاع أن يجهز فخّا ملغما لسريّة من سرايا العدو، اليوم يعيش مثله مثل الذين عاشوا خارج البلاد، وقدموا ليأخذوا السلطة من بعدِ التحرير، أصبحت الثورة غنيمة الكُل، من صنعها هم أول من أُكلوا بسببها.

- يا سيّدي، الجنود ينتظرون منك كلمة، جميعهم في القاعة الرئيسية.

كان جنديّا، يطلب منه الذهاب للحديث مباشرة مع الجنود، أحس بالذنب لأنه الآن سيكون مسؤولا عن حياة الجميع، أغلق ورقة وعد، ثم ذهب باتجاه الغرفة مصحوبا بعدد من الجنود.

كانت عقولهم في إصغاء له، الجميع مصطفين، يلقون تحيّة عسكرية، جلّهم ممّن لم تغزوهم خصلات اللحى بعد، مازالوا صغارا، لم يشاركوا في حرب التحرير، أو أنهم كانوا صغارا، البعض منهم

كوعد، معظمهم أصغر منها، نظر إليهم قبل أن يرفع رأسه عاليا إلى علم الثورة، ثم أخذ نفسا وقال:-

قاطعه جندي، قدّم له ورقة مكتوبة معدّة سلفا، لا يستطيع أن يرفض قراءتها أمام الجنود.

- يا جنود الثورة، هناك من يقتّل الآن في الشرق والغرب والشمال والجنوب، نساء مسكينات، أطفال جوعى، يحترقون بسبب لهيب هؤلاء المتمردين، إنكم اليوم جنود الوطن، عليكم أن تقاتلوا لأجله، أن تقتلوا لحمايته، وأن تُقتلوا على...

ما كاد يُكمل الكلمة حتى انفجر كُل شيء، بدأ الانفجار من نهاية القاعة، أحدهم تسلّل إليها، ربما جندي شاب، أو مجنّد عميل لصالح المتمرّدين، رأى بأم عينه تدهور الأماني وقت الخطاب، الوقت لم يمنحهم بركة القتال، هُم شهداء قبل أن يقاتلوا.. هُم أموات قبل أن يحيوا.

شاهد قدمه الأخرى، الآن هو بلا قدمين تقريبا، غير متأكد إن كان سيمشي، مُقعد يرى صرخات الشباب، "الله أكبر الله أكبر" صيحات من كلا الجانبين، كلاهما يصيح باسم الله في القتال، من منهم جند الله حقا، لم يستطع أن يقول شيئا، كانت كل حروفه عابرة لعقله، وهو يرى النهاية التي جاءت غفلة من بينهم.

قبل قليل كان أكثر من يصيح بهم، الآن محمول على الأيدي تجاه سيارات الإسعاف التي تدافعت من ميادين الجيش الثوري إلى المعسكر، كانت ضربة في عزّ الاستعداد للحرب، بكى كثيرون وهم يرون أصدقائهم الذين غنّوا "سنحيا لأجل الثورة"، غرقى في الدماء،

أصبح المكان كشوربة دم ضخمة يأكلها القدر بملعقة المباغتة، منـــهم من مات وهو ينتظر يوم التخرّج من الجامعة، ومنهم من مـــات وفي رقبته عنق وعد تجاه محبوبة تنتظره.

بعد انتشار الخبر في أرجاء المدينة، الكثيرون نسوا أســـرارهم، السيّد سعد لازال في الإسعاف يرى البنـــات الباكيـــات، النفـــوس النازفة، الوجوه المكفهرة، والشعور المتبرّجة، جاءوا بدافع الحُـــب إلى وجوه ما فادها الحُب إلا شقاء، وما جازها الحرب إلا الدّم، رحلت الأحلام، وكانوا كلّهم يستمعون إليه، *لستُ السبب* قالتها دواخلـــه بلا صوت، لا يريد لأي تأنيب أن يتجاوز المنافذ الحدوديّة لقلبه.

في جانب آخر، تفصلهما جدران المكان.

- لماذا لم تخبريني يا أمي.

أخيرا وعد قامت من إغفاءة الصدمة، هي في مرحلة الصعود إلى الوعي.

- طلب مني ذلك، وجعلـــني أقســـم علـــى ذلـــك... آاااه يا سعد!... ااااه يا سعد!.
- هذا ليس بعذر!
- أرجوكِ يا وعد... كفى.. لندعو الله أن يكون سالما.

اتصال من قيادة الجيش الثوري...

- السيّدة خديجة زوجة العقيد سعد؟
- ن.. نع... نعم أنا هي. *تدافعت أنفاسها فلم يطلع الصوت إلا خفيفاً صغيراً.*
- يؤسفنا أن نخبركم...
- لاااااا يالللللله.. (صرخت وعد وهي من تسمع المكالمة).

- نؤسفكم أن العقيد سعد أُصـــيب في الحـــادث اليـــوم في المعسكر، لقد وقع الانفجار أثناء إلقاءه الخطاب للمجندين، وقد تم نقله إلى المستشفى سريعا بعد وقت قصـــير لتلقـــي العلاج، حالته الطبية تشير إلى جروح عميقة في القـــدمين، وربما لن يستطيع المشي مرة أخرى، عموما نحن لا نستطيع أن نوفر لكم سيارة للقدوم فالوضع الأمني متأزم حاليـــا، سنرسل لكم برقم الطبيب المشرف عليه، ومنه ستصـــلكم آخر الأخبار.. تمنياتنا له بالشفاء.

سكنت الأجواء قليلا، أصدر العصفور صوت ارتياح، لم يمُت، لا يزال على قيد الحياة، وصل رقم الطبيب إلى خديجة عبر رســـالة، اطمأنت أن زوجها قد أجريت له عملية جراحيّة مستعجلة، الخـــبر الجيد أنه حي وبعد قليل سيفيق من غيبوبة الأدوية، الخبر السيئ أنـــه سيبقى في المستشفى لفترة طويلة، ربما تزيد عن ستة شهور إلى ســـنة كاملة، لن يستطيع العودة إلى المنـــزل، والزوجة وابنتها لا تستطيعان الخروج من المنـــزل بعد إعلان حالة الطوارئ القصوى والحـــرب، الوضع الأمني يهدد كذلك قدرتهما على التواصل مجـــددا، الطبيـــب اعترف أنه ومع كثرة الجرحى من الصعب أن يرد على كل اتصـــال، المستشفى مزدحمة وليس لديها الوقت للرد على كل السائلين، قبـــل يوم كانوا يسألون يطلبون قدومه ســـريعا، والآن بعـــدما أُصـــيب تركوه.. أأأخ من أبناء الحرام، "خشيت أن تقول الزوجة".

عادت وعد إلى الغرفة، نظرت إلى التلفاز، هي التي من المفترض أن تكون خرّيجة طب بعد شهور قليلة، لم تسعف أحداً، مثلها مثـــل الآخرين قاعدين في البيوت ينظرون ويترحّمون، (لما فعـــل أبـــي

ذلك)، نظرت إلى دفتر مذكراتها الذي ملأ بالراحلين، دفتر المذكرات الذي كانت تخفيه عن الجميع، كانت تكتب عن عادل فيه، وعن أبيها، هما الإثنان الآن على أسرّة المستشفيات.

قبل أكثر من ثمانية شهور، كان عادل عند نافذتها، جاء إلى المنزل خلسة، قدّم لها صورة عن ما كتبه عنها في مذكراته، تشابهت كلماتهما الإثنين لكنها لم تبح أبدا أن نزوات من حنين راودتها في غيابه، كتبت كثيرا عن تحطّم آمالها منه، خيبتها الكبيرة، كان هو مثلها يكتب عن خيبة أمله، لا أحد منهما عرف أن الحُب هو من يخذل أصحابه، ويتركهم جرحى يلومون بعضهم على أسباب من خيال، في مذكراتها أيّام الحُب رغبة بضمّ عادل، وحدث ذلك فعلا وقتما وضعت يديها على عنقه، عانقته وأخذت نفسا من عشق، رائحة عادل موجودة، لا تُشم لكنها تُرى.

- آه يا والدي، ليتك تعود.. ليتك لم تفعل هذا.

في الطفولة حين نشأت صغيرة كانت تظن أن والدها ميّت في الحرب، وأن الهدايا والرسائل التي تأتي محاولات صغرى لأجل الضحك عليها، وعد كانت ذكية، لا تصدّق شيئا بسهولة، لكن طيبتها الكبيرة تجعلها تغض الطرف أحيانا، خافت فعلا من أن لا يكون لها والد، صمتت، تلعب مع أبناء الحي وقت الحرب في السراديب، وقلبها مغصوص لعدم وجود أحد يخبرها عن هذا الوالد، لم يكن له صورة تنظر لها، ولا ثياب، قالوا إن الثياب احترقت بعد قيام جنود الاحتلال بإحراق البيوت، وحين السؤال عن الصور أجابوها باحتراقها معها، لم تصدّق فعلا أن لها والد، إلا في يوم العودة من جبهات القتال.

- وعد ابنتي.. السلام عليكم.. أهلا بكِ إلى والدك.

كان يمشي مُسرعا نحوها، عرفها من الشبه الذي بينها وبينه، من الأوصاف التي يقولون عنها الرُّسل ما بين بيته والجبهات.

- أهلا...

لم تقل له والدي في المرة الأولى، أحسّت أنه شخص غريب مثل الغرباء، ما يجعل هذا الشخص والدي حقا؟ قامت تحاول أن تتعمق فيه، تراه طيبا أم لا.

- وعد، أنا والدك ما بك؟

- ليس بي شيء، أنا متعبة قليلا.

وذهبت وتركته، أمها ذاك الوقت خاصمتها على برودها، قالت إنها متعجرفة، كيف تقابل جندي التحرير هكذا؟ وصلت القصة إلى كُل المدينة.

بسبب هذا الموقف، تغيّر الوالد من تعاملاته، أصبح يمنح لوعد ما يُمنح للأولاد، يكسر جميع الحواجز التي بناها الماضي، يحيطها بحنانه وعطفه، منحها أهم شيء يطمح له الإنسان، الحريّة الكاملة والثقة التي لا تُخطئ أبدا، مع الزمن شعرت وعد أنها فخورة بوالدها سعد، أصبحت تقول أنا وعد سعد، وتوزّع صوره في الحرب التي جاء بها من هُناك إلى زميلاتها.

في الحقيقة منحها الحُب، وحده الحُب من يُذيب جمود الشقاقات الكبرى، كان أول من منحها الحُب فعلا، والدتها عاملتها بجفاء، فكان سعد سببا في سعادتها، لم تأبه لكُل من يقول إنها (ابنة والدها) دليل على مدى خضوعها التام له، أو خضوعه التام لها، تُجيب "وهل هذا غير صحيح، نعم أنا ابنة والدي وحبيبته".

هيَ في جبال الذكريات تُفرج عن صباها، ووالدها سعد نُقل اليوم إلى غرفة يسكنها شخص آخر.. كان ينظر له، لا يصدّق أنه هو بعد السنين هذه، رآه دون أن يحاوره في آخر عامين.. كان عادل.

....

الخدم منهمكون في تعديل الغرفة، يدخلون سريرا جديدا إلى جانبي، ومكتبة صغيرة بجانبنا، كانت رغبة أمجد بذلك، وفي الطابق السفلي تجهّز إحدى الغرف لأم أمجد التي ستسكن معنا.

كُل شيء حدث بسرعة، بعد يومين فقط وافق العجوز على الفكرة بشرط أن يتم إحضار أمجد ليختبره، بعد ساعة كان أمجد يُقابل العجوز، وبعد ساعتين أصبح فردا من عائلته.

وقف أمامه بكُل ثقة، مد يده كأنه قائده، ثم قال للعجوز: "اسأل". أنا هُنا لأجيبك عني، وعن الدنيا، وعن ما تلحث عنه، وعنك! تعجّب العجوز من لسانه الواثق، ثم قال:-

- لماذا أنت مغرور؟
- بل رحيم.
- ماذا ألا تعلم الفرق بين الغرور والرحمة.. الغرور عكسه التواضع لا الرحمة.. ما بالك!؟
- كما أن الظل يتبع الجسد، هكذا الرحمة تتبع التواضع.
- لا بد أنها من أقوال أحد الصالحين.. تدخلت بينهما.

وضع العجوز يده أسفل ذقنه، فابتسمت، لا أحد يحادث أمجد إلا ويتعجّب من لسانه، الغريب أن هذا اللسان ينقل الكلام ولا يصنعه، أمجد يروي سيرة رجل تقي للعجوز.

"لقد كان عاشقا للوحدة والتوحّد، لا يُحب معاشرة أحـــد مـــن النّاس، يتلقى علوم الدين، يرى في الاجتماعات سرقة من روح اللقيـــا فنحن عند الاجتماعات تفوح منا رائحة النفاق والاختلاط الذي يبعدنا عن الله، إن من يُحب التبحر في العلم يود العيش متوحدا، لقـــد أحبـــه فعاش معظم العمر سعيدا بوحدته، في وحدته كان يختلي بكُل أفكـــاره، ويناقشها مع نفسه، أنا مثله يا سيّدي، لا أحب التجمعات، أنا أعشـــق الانعزال، لستُ مريضا، ولكنها شخصيّتي التي وُضعت بـــي من فـــيض دراستي له، فإن كُنت تريد متحدثا ضحوكا فاعلم أنني لن أكـــون، وإن كان بحثك في دائرة الذين يقولون ويفعلون بحساب، فأنا منهم".

صمت العجوز تماما، عاصفة من التساؤلات ضربت القصـــر، تجمع كل الخدم في البيت يستمعون لأمجد، الواحد منهم يطلب مـــن الآخر المجيء ليشهد هذا الحدث الهام.. سارق الحدث أمجد الحكيم.

- لا أعلم ماذا أقول لك لأنك بالفعل شـــكلت مفاجـــأة في المنـــزل، ولكن أنت تعلم بحالي، وأني أرمل بـــلا زوجـــة، وسمعت أنك تود وجود والدتك معك، أليس هـــذا فيـــه خدش للمحبة أيها الصغير الحكيم.
- علّمتني سير الصالحين في خلوتي أن "المحبة الحقيقية هي المحبة التي يستحيل عليها إبقاء أي شيء دون أن تكشفه لمحبيها"، وأنت هنا تكشف ذلك لروح الزوجة، لا تخفي عنها شيئا فما الضير في ذلك؟ أيها السيّد كن عارفا بأني من أمـــي، ونحن لا نبتغي من الدنيا غير إرضائهن.

انتهى النقاش، بأمر العجوز أن يتم تجهيز الغـــرف للضـــيوف الجدد، الساكنين الجدد.

تم تجهيز الغرفة، العجوز هدأت نوبات غضبه في اليومين الماضيين، حمدت الله وسجدت له في صلاتي على هذه النعمة، وجود أمجد بجانبي دفع عني الخوف، أصبحت أكثر ثقة بنفسي والعالم، .بمقدوري الآن النوم ملء جفوني بلا خوف من مباغتة العجوز، أمجد استطاع أن يقنعه بضرورة المفتاح المقفل للغرفة، كانت أول غرفة في قصر أبي سامي يُسمح بها بوجود قفل، خلال نقاش واحد وفي أقل من ستين دقيقة استطاع أن يغير العجوز.

- منذ متى وأنت تعرف حكيم؟ سألت أمجد.
- أعرفه يا عادل، حينما كُنت في السجن المرة الأولى ومازلتُ صغيرا جدا.

صُدمت، حكيم سُجن أيضا! لماذا طيّب؟ ولماذا سُجن الرجل الصالح في نظري في مرة سابقة؟

- حكيم سُجن لأنه تشاجر مع أحد البائعين في السوق، أمضى أسبوعا في السجن قبل أن يتدخل أبو سامي لإخراجه، من بعد حديث بيننا، اتفقنا على الاجتماع اسبوعيا ثم اصبح اجتماعا شهريا نناقش فيه المدينة وأحداث البلاد، حكيم أحب أن يساعدني بين الحين والآخر، نهرته عن محاولات المساعدة، بيننا خصومة صامتة لكنها انهارت مؤخرا.
- لماذا عدتما إلى بعضكم؟
- لأن القدر أراد لنا أن نعود.. ربّما لأجلك...

جاء حكيم، طرق الباب أولا، أدخلناه إلى الغرفة، بشوش الوجه، سعيد بأول ليلة لنا معاً.

لم يهتم أمجد بدخول حكيم، وواصل الكلام.

- أعلم ستسأل لما دخلت السجن أول مرة؟ كُنت مظلوم.
- الكُل هنا يقول إنه مظلوم.. وضحكت لأنها ذات العبارة التي قالها لي المرة الأولى.
- قالوا إنني كُنت أبيع الممنوعات علنا، لم يعيروا انتباها لعُمري الصغير فضلا عن هيئتي التي لا تدل على ذلك، سجنت لشهرين، لا يسأل عن تهمتي أحد، بلا محاكمة أو تحقيق، فقط محبوس في أسوار السجن، ولحسن الحظ، هناك تعلمت عن سير الصالحين لأن كتابا ملقيا كان يحكي عن سيرهم وبعضا من أقوالهم، أمضيت كل الأيام قارئا لهما لكل السير، وعزمت أن تكون وحدتي دائمة، وأفعالي كُبرى كما فعل، قد تراني متعصبا، لكني أحب ديني.
- يبدو أن الحوار بينكما طويل، الأفضل أن تناموا الآن قبل أن يسمعكما العجوز.. قالها حكيم ورحل.

أطفئنا الأضواء، ظننت أن أمجد نائم، وضعت أصابعي كوسادة لمؤخرة رأسي، رحتُ أسأل لما ليس لي أم مثل أمجد، هو يرعاها ويحظى بتقبيلها، وتُكرمه بكلماتها، هل كانت لذة اللحظة تستحق أن أولد وأعذب، لحظة تجرُّ من بعدها ويلات إنسان، يا الله، أمي ربما الآن حيّة في مكان ما، لا تتذكر أنها ولدت إنسانا، مع زوج، أو مع أبي، لا أعتقد.. لا أظن أن أبي بقي معها بعد اللحظة، أنا رجل وأعرف الرجال، كُل قصصهم لأجل متعة اللحظة، ما إن تجيء حتى يأنفون البقاء، طيّب، هناك شيء دائما يراودني في الذكريات، لما ليس لي سجل ميلاد في الدار كغيري من الأبناء، أحد زملائي في الدار قال

ذلك دليل على أنه لك أم، ااخ!.. ومن تلك العجوز الـــتي كانـــت تحرص على المجيء إلي حتى وصلت السادسة، المشكلة أنني لم أكـــن أكترث لوجودها، و لم أسألها من هي، لا أعرف اسمها، ولا أتـــذكر شيئاً سوى طيف من خيال.

لا شيء معي، في حقيبتي الصغيرة ورقة وعد، سؤال آخر لمـــا أفكّر بها، أحدّق بها إلى حين النوم، حتى قبل يومين وبعد أن ضــــربني العجوز، أول ما أردته هو الورقة ومطالعة الخط، ههه سحر مـــا في الورقة، من المُمكن لأنها ورقة جاءت من العالم الخارجي، رأيتها ذلك اليوم، كانت فتاة بعمري ربّما، لست متأكـــدا، لم تتجـــاوب مـــع تلويحاتي، كانت جميلة جدا، أول فتاة أراها، ففي الدار يوجد فاصل ما بيننا، فالذكور يكون لهم مبناهم الخاص، وحافلتهم الخاصة، أمـــا للإناث فتوجد لهن دار خاصة بعيدة، و لم أرَ "بنـــات الحـــرام"، في قلبـــي أود رؤية إحداهن، لن يسمحون لي إلا إن أردت الزواج.

أخبرنا المدير السابق مرارا، "حين تكبرون، سترغبون في الزواج، لدينا الزوجات جاهزات، فهنّ ينتظرن أن تكبروا"، كان يقول ذلك وكأن الإناث لا همّ لهن سوى انتظارنا، مرة شاهدت على شاشـــة التلفاز العرس الجماعي لأبناء الدار، كانت الوجوه مخفية، لا يُريدون لأحد أن يتعرّف على شخصيّاتهم، عاملوا العرسان الجـــدد كـــأنهم مهرّبين أو مجرمين لا يظهر منهم سوى الصوت والخطوط المتقطعـــة التي تمنع الوجه عن الظهور، وبعد ذلك يقولون لنا ستتزوجون.

- عادل، لا تزال صغيراً على الحُب.

أمجد لم ينم بعد، يحدّق بـــي منذ أن تمسّكت بالورقة، الحُـــب، مجددا! أليس هذا هو ما قاله المدير والدك؟! خطر في بالي أن هنـــاك

تواردا في الأفكار، كثيرا ما يتكرر الحب على الألسنة، لكــن اليــوم أعلم أن ذاك هو قدر متعمد.

اليوم علمت أن تعلّقي بالورقة، ما كان إلا تعلقا بكِ يــا وعــد، أهرع إلى كُل شيء لمسته، أي شيء يحمل في طيّاته من عبقِ الرائحــة، تذكرين البسكويتة، في فمي يتسرّب طعمها، الشيء الوحيــد الــذي تقاسمناه بشفاهنا، وعلبة مياه صغيرة أحتفظ بها إلى اليوم، وعد أحبّــك! وإن كان في بلادي لا حُب لأبناء الحرام، الحرام أن أبقــى أراكِ دون أن أحبّك، والحرام الأكبر أن أموت وينشر كتابــي ولا أقول أحبّــك، فيّ شيء ما، صوت يُهلك المرض، يقاتله، يؤجل حــين ميعــادي، هــذا الصوت هو ما جمعنا في سنين ماضية، رغم أن حبّكِ بات عذابــــي، يكسُرني، يحطّمني، يجرفني إلى سواحل اليأس، يلقّمني طُعم الألم، ينتّــف عنّي ريش الأحلام، إلا إنه غايتي، ومنالي، في الورقة كنــت أستشــعر البصمة ما خلف السطور، وأحس بآثار أقلامك فيها، اليوم وأنا مريض، ألطم خدود الحبر، وأشق جيب الذكريات، لأمدّ قلمي الوحيد الذي ما مرض، أمجد كان من فتح الباب ليشرح معنى الشعور الذي يربطني بك.

- أي حُب يا أمجد، ورقة بها كلمات جميلة وأعجبتني، ربمــا فيها من الحنين للدار.
- بل الحنين لكاتبة الكلمات.
- وكيف عرفت أنها فتاة.
- الرّجال لا يتعلّقون إلا بشيء فيه لمسة أنثى، النســاء هــنّ جنون الذكور.

كان مصرّا على أن ما في الورقة هو دليل على الحُب، لم أستطع النوم أبدا في تلك الليلة، وقتها فكّرت عن مصداقية أمجــد، الحكــيم

الذي ما إن يقول شيئا حتى يتحقق، صدق هُو، وكــذبتُ أنــا في إنكاري، في ليلتها حلمت بك.

- هيا إلى وجبة الإفطار.

انقطع الحلم بهذه الجملة، اليوم لم يدق الباب أحد، أمجد تميمــة تقيني شر اليوم، أذكار صبح ومساء تكوّن حولي درعا سماويّا، لأول مرة أنام حقيقة بلا أي منغصات.

اليوم الجو مختلف عند الإفطار، والدة أمجد السيدة كاترين على يمين أبــي سامي العجوز، مقابلها يجلس أمجد كمكان دائم لــه، تم إزاحتي لأجلس بجانب أمجد، أما حكيم فتم دعوته لمشاركتنا الإفطار وكان مقعده بمحاذاة كاترين، من يرى الطاولة يظن أنها أسرة كاملة الأركان، لا يعلمون أنه سيّد قصر وثلّة من الخدم وابن حرام.

- سيذهب أمجد وكــاترين اليــوم إلى المدينــة ليســتكملا حاجياتهما، ليست كل الحاجيات هنا، وأيضــا أعتقــد أن زيارة واحدة للسوق ليست كافية للتبضع بشكل كامــل، أما أنت يا عادل ستبقى هنا.

ماذا يريد مني العجوز؟ أريد الذهاب مع أمجد، لا أريد أن أبقى حبيسا للغرفة وأشباح الأفكار.

- أنا سأبقى هنا، وجود حكيم معكما سيكون كافيا جدا.

هذا يعني يوماً آخر برفقة العجوز، لا أريد، وجود أمجد ووالدته كان لأجلي لكي لا أشعر بالخوف، ومن أفكار حكيم، كيــف الآن تنهار الخطة، هل يفكر العجوز في أن يستغل الحجج الوهمية للاختلاء بــي، حتما يفكر في شيء ما يخفيه عنهم، وإلا ما كان سيبقى هنا، وسيضع سببا واهيا لبقائي معه.

- حكيم، كيف ترحلون، وأنا هنا معه.. هل جننت؟!
- أنت المجنون، تريد منا أن نقول لا لتنكشف الخطة، لا مشكلة، لن نتأخر كثيرا، سنحاول الوصول قبل أي نوبة غضب محتملة.

جلست في الغرفة الرئيسية، رحلوا جميعا مبتسمين هادئين، أنا بجانبه، لا مجال أن أعود إلى غرفتي، العجوز جالس يقرأ أحد الكتب، لا ينظر إليّ البتة، نصف ساعة مرّت بهدوء تام، لا شيء يعكر صفوي، والوقت يمر، وعدوني بأن يصلوا إلى المنزل في أقل من ساعتين فالسوق قريبة، كل ما أخشاه أن يقوم الحمل الوديع بارتداء زي الوحش الهائج وعندها لن يكون هناك شيء أحتمي به إلا الدعوات، يا الله اجعل الوقت يمر سريعا، يا الله هدأ نوبات هذا الوحش الإنسان.

- عادل، لا تخاف مني. أفرجت ابتسامته عن وجه مشرق ذكّرني بوجه أبي سامي حين رآني المرة الأولى.
- لا أخاف منك سيّدي.
- بل تخاف، عموما سأقول لك شيئا، الآن أصبحت أقاوم أحزاني بقراءة الكُتب، ربما قبل أيام فعلت أشياء ندمت عليها لاحقا، تذكرت أن القراءة هي المهدئ الذي سيحميني من كُل نوبات الغضب، لا تخاف مني وأقرأ كما قرأت في اليوم الأول.
- مازال في قلبه توجّس، اقترب بحذر شديد، كمن يتفحّص المكان للمرة الأولى، لم يستطع أن يخفي ارتعاشة أصابعه، طلبت منه الكتاب ثم قرأت، قراءتي الثانية كانت أحسن بكثير من المرة الأولى التي قرأت عليه فيها.

- يبدو بأن دروس القراءة التي أخذتها قد أثرت على مستواك كثيرا، كانت زوجتي كثيرا ما تقرأ لي قبل النوم، حتى والشيب خاض فينا، في السرير تقرأ، أشتاق لها... أشتاااق لهاااا.

مرة أخرى وجدته يبكي، نظر إلي بغضب، قبل أن يعود منكسرا، كان في صراع حقيقي بين نفس تلومه على عدم الوفاء لزوجته، وآخر يبتغي الانتقام ممّا أمامه، أدركتُ حينها أنه لا يكرهني لأني عادل، كان يكره الذي أمامه صغيراً أم كبيراً، لأول مرة بيّنت التعاطف معه، قُلت له: ("هي لم تمت، بل حيّة في الكتب التي تقرأها، رفيقي أمجد رغم صغر سنه إلا أنه سيفيدك بشكل أكبر يا سيدي".

لم يدر ببالي أن يكون أمجد من سأتآمر معه للقضاء على أبي سامي، كان كُل شيء بريئاً، في غاية البراءة، يقطر صفاءً ونقاءً، قبل أن تتلبّد النوايا، لتُصبح سوداء قاتمة، وتُكشف أخيرا عن أمطارها الملوّثة تجاه العجوز، هو الذي غيّرنا، وتغير معنا، إلى هذا الحد، حاول أن يقرأ، ويقاوم كل دمعة تخرُج، ببراءة واصلت الحكي له:

- سيّدي، أنت تملك القصر الكبير، والحديقة الجميلة، وأمامك من الخدم ما يغنيك عن الزوجة، الأشياء الكثيرة التي منحك الخالق كانت منحة ربّانية، لا تُفسدها بسبب حُزن، أنا ابن الظروف الصعبة لم أكن يوما ما رهنا لكل هذا، فقط انظر إلى ما حولك، واستشعر قيمة الذي يحيط بك، أنت في جنة يتمناها الجميع.
- قاوم دموعه وقال: - "إن اختفى غنى الحُب، أصبحت كُل الأشياء فقيرة".

حرّكت رأسي بأسف على حاله المحطّم، طلبت منه بـــأدب أن أعود إلى الغرفة، دقائق قليلة حتى وصل أمجد وحكيم وكاترين بكُـــل المستلزمات، من الأشياء الكمالية التي اشتراها أمجد بضعة ســكاكين وضعها في الغرفة بالتحديد أسفل السرير.

- لماذا سكاكين يا أمجد؟

لم يُجب، تجاهل وجودي تماما، أعدت عليه السؤال وواصـــل التجاهل فتأكدت بأنه يتعمّد ذلك، كان وجه أمجد غريبا بعد الجولة في السوق، رأيت فيه شيئا ما مختلفا عن كُل مرة، دسّ الســكاكين وكان همه ألا يراها أحد، حتى حكيم الذي جاء وسألته عن سكاكين أمجد، هو الآخر احتفظ بالصمت.

- بهذه السكاكين، سيكون خلاصنا جميعا... سنقتله.. اللعنة عليه.

حكيم.. ماذا تقول يا حكيم؟!... لم أسمعك؟!.

....

رآه عادل، اشتمّ رائحة وعد فيه، لوهلة تفتّحت براعم الحُب في قلبه، ودّ أن يحضن سعد فيجمع منه روائح الحُب البعيد، ما همّه أبدا أن يراه مريضا تعبا بل كل ما يجوس في عقله خبطات القلب المريض.

يشكُّ في أنه يعرف سبب قدومه محمّلا في سرير، الشهر الأخير من حياته لن يمر مرورا عاديا، بل سيكون حـــافلا بالأحـــداث بمـــا يعوضه هدوء الكثير من الشهور الماضية، من بعدِ وعد والمرض، كُل الأيام تشابهت عليه، في الصباح يتوجّع قليلا، يتذكّر وعد في إفطاره، يتغذّى على لقيمات صوتها المنبعث من مسجّل العقـــل، ويتعشـــى بالقليل من كلماتها المصوّرة في هاتفه، قبل أن ينام لا يأبه باشـــتداد

المرض، فيدخل في نوبة خيال طويل ويراها معه، يبقى في الخيال إلى حين حلول الشمس ضيفا على اليوم، ليعود كُل شيء من بدايته.

كان يتوقع أن يأتي الطبيب ليفحصه بعض الفحوصات الروتينية، حتى هذا الاحتمال انهار فالكُل منشغل بجرحى الحرب التي ما بدأت إلا والشباب محمولين على الأكتاف، وأعضاءهم ملهاة للمارّة، كان يُدرك أنه لا وقت لهم لمجيئهم فارتضى الوحدة سبيلا، تذكّر أمجد وعشقه للوحدة، "الآن أمجد وحيد في قبره، والآن أنا وحيد في حياتي، كلانا في قبر كبير يُسمى الانعزال".

توقّفت ساعات المرض جميعها، هو والدها، "أتى إلي وأنا في أبعد مكان عن البشر"، من كان ليصدق أنه سيلتقي به في المُستشفى، قبل شهر كامل من وفاته المؤكدة، ساقه الله إليه، فهل يسوق وعدا معه، علم أن تفجيرا قد حدث، الأوضاع تأزمت، لو كان سليما لكان اليوم أحد الذين في الجبهات يقاتلون، علّ اسمه سقط سهوا من لائحة المجندين، أم استخسروا فيه أن يقضي نحبه في المعارك، كيف يكون الشهداء أبناء حرام، أبدا لا يجوز، الشهادة والحور العين حصر على أبناء الحلال وحدهم.

كثيرون يُقتلون، يمتلك الأفضلية عليهم، يسرقهم الموت، ينهبهم الروح، أما هو فقد باع الروح مسلّما له، منقادا للمصير المحتوم، وسيبقى ينتظر مآل الأحداث، ينتظر أن يرى وعده، وعد الله الحق الذي ليس منه مناص.

- هل عرفتني؟

قالها له، خشي سعد من السؤال، تظاهر بالتعب، مثّل العمى، عرف عادل حتى من قبل الدخول إلى الغرفة، الحُب يشتم من بعد

قبل أن يُرى، ابنته هنا موجودة في قلب هذا الرجل، يعلم أين غـــرس البذرة وكيف أًصبحت اليوم، استمر في إغماض عينيه عل عـــادل لا يعرفه.

- سيّد سعد، أعلم أنك سعد، لا داعي للاختفـــاء خلـــف المرض، كلّنا مرضى بالوطن، جميعنا في حال واحدة.

ليس هناك من فائدة للتخفي، هو يعلم من هو، لما الاصرار على الهرب من الواقع، هذا القدر إلهي بحت، جاء من منـــــزله ليسـكُن جوار عادل.

- أهلا عادل، المعذرة لم أتعرف عليك حقا، كيف حالك؟
- كيف حال وعد؟

لم يستح أن لا يجاوب على سؤاله، لم يسأله عن حالـــه، عنـــد اقتراب الموت تُصبح كل الأمور هيّنة، هدفه من كتابه هو أن تصـــل رسائله لوعد، أن يقول ما لم تسمح له أن يقوله، لم يكُن من حـــل آخر سوى أن يعرف النّاس جميعا بقصتهم، حضره وحبسه في البُعـــد أثقل بوحه الذي انهار على صفيحِ ورق، الآن هناك فرصة تتجدد بأن يعرف عن وعد من والدها مباشرة دون مواربة أو تخفي عن الحقيقة، هل يعلم الوالد عن الكتاب؟ لا يدرِ، في قلبه يظن أن كُـــل الأهـــالي علموا عن الكتاب، وهو أكثر من ذكرهم فيه، همس في نفسه *الكُتب فضائح كتّابها*، ونظر إلى السماء شاكيا على الأحوال الـــتي تدفعـــه للكتابة لأن دُنيا رفضت الاصغاء له.

- لا أعتقد أنها بخير، خذلتُ أحلامها.

الكلمتان الأخيرتان أصابتا ركنا دقيقا في قلبه، "أنت خـــذلتني، خذلت آلامي وأحلامي وأمنياتي، كُنت رجل الأحلام، والآن أنـــت

رجل الأوهام"، رسالة من رسائلها في عصر الفراق، لا يعلم كيف خذلها في غضبه، ترك لنفسه المُنفعلة أن تُغرقه بقوّة الكراهية في دوّامة الإهانة، لم يتوقع يوما أن يرحل عن وعد، أو أن يسبب لها جرحا، كان يتمنى أن يفعل كُل ما تريده، أراد أن يكون كُل الحلال في عينيها، من شديد الحُب نغضب! لم تسعفه مبرّراته أن يثنيها عن قرار الرحيل.

كان ذلك حين اشتدت نوبات عادل الغاضبة، يُخفي عنها أسباب انفعالاته الدائمة، يُرسل لها حروفاً مسمّمة فتشربها لتقع ساقطة من كأسِ الحُزن، عادل أراد أن يتملكها في كُل شيء، تعامل مع غضبها بسخرية، كان يسخر لحد اليوم الأخير، يظن أن الأمر مزحة ثقيلة أو غضب نسائي عابر، اغترّ كثيرا بقدراته على فهم النساء، وعد نفسها لا تفهم اليوم ما يُريد عادل منها، السماء لا تعلم لما عادل يصرُّ على الحُب قبل الموت رغم أنه خطيئة، ووعد لم تنسَ أيامها معه وهما على قيد فراق، لما يستمر الحُب في وقت الفراق، أحيانا القلوب تستعجل الرحيل، ويُصبح للعودة ثمن، لم يكن ليمرض عادل لو أن وعد معه اليوم، ولما كان لكتابه أن يكون، وما كانت وعد تقرأ له، تعود في ذاكرتها لتقارن صحيح الكتاب بخياله، لا شكّ عندها أن عادل في حبّها مستمر، ولكن من يضمن أن يُشفى من مرضه، ستعود لرجل مريض يكاد يموت في وقت حرب؟

- وما الذي جاء بك إلى المستشفى؟
- تعلم أنني رجُل حرب حتى لو عشت عقد كرجل سلام، الحروب تشتاق لأبناءها، من عاش حربا واحدة لا بد أن يُشارك بأخرى، كُنت أخطب في الجنود الصغار قبل أن

يقتلعنا التفجير عن الحياة، رأيتهم بعيوني، لو متُّ لكان أفضل من أن أكون هنا، وبالتحديد هنا هنا... (وأشار بيديه إلى كُل الغرفة).

- زمن طويل لم أرك صحيح؟

المرة الأخيرة كانت في قاعة المُحاكمة، بالتحديد في شهود النفي، ومن بعدها كان هناك لقاء آخر بعد خروج عادل من السجن المرة الأخيرة، عادل رآه عدة مرات في زيارته لوعد، لم يحصل احتكاك مُباشر، ودّ السيد سعد أن يخبره عن سر كبير، لكن هذا السر بالتحديد لا ينفع أبدا لأن يُفشى به على قيد الحياة، سيخبره قبل الموت، قبل أن يموت هو، أو يموت بنفسه، السر الذي لا يعلمه إلا إثنين في الأرض، هو وزوجته، ربّما لو قاله في فترة سابقة لتغيرت الكثير من الظروف.

- لم تُجب؟ زمن طويل؟

- طبعا زمن طويل للغاية، وأنت مريض؟ أم أنك كنت في مشاجرة؟

- أنا سأموت يا سعد بعد فترة وجيزة، أحيا لكي أتنفس الذكريات، كُل يوم فيه ذكرى متجددة، وأشعر أن الله يمهلني الأيام إلى حين انتهاء الذكريات ليُرسل النداء الأخير لي، أحيانا لا أريد أن أموت، أريد البقاء، ربّما لأن في قلبي أمل أن الحرب ستنتهي، وعندها كُل شيء سيصبح جميلا، حربي هي مع ابنتكْ، الحرب التي دخلتها مسلّحا برشّاش الفراق وأن أهيمُ فيها حبّاً، الظروف هي من تجعلنا قساة.

- تحب ابنتي؟
- يبدو أنك لم تقرأ الكتاب.
- منذ متى؟
- أنا مريض يا سيّد سعد لا أستطيع المواصلة في الكلام، اقرأ كتابــي وستعلم، أما إن كُنت لا تعلم عنه شــيئا، فهــو كتاب كتبتُ فيه حياتي باختصار، عنك وعن وعد، وأمجد، وكُل ما يخطر على بال (ابن حرام).
- مازلت تنهي عباراتك دوما بابن الحــرام!... يــا رجــل الجمهورية كلها أبناء حرام.

"قائد الثورة يعلن النفير العام، على جميع الــذكور الالتحــاق بجبهات القتال حالاً، الوطن يناديكم، الثورة تناديكم، الحــرب قــد بدأت وأنتم دروع الوطن"، تلاه خطاب لقائد الثورة الــذي غــادر لأوروبا، ترك الشعب يموجون في حربهم الأهلية، من بعدها صــور أخرى لشريط يبث لمجموعة صبيان قتلى في مدرسة.

"الحرب لن ترحم أحداً". واصل النظر إلى شاشة التلفاز وهــي تزف نبأ مقتل مئة طالب في مدرسة إبتدائية، كان الطلاب يحتمون في المدرسة، لم يستطيعوا العودة إلى المنازل بسبب حالة الطوارئ، قرروا البقاء فيها إلى حين انتهاء الأحداث، تجمعوا في الصــالة الرياضــية، كانوا يصلّون معا في صلاة العشاء، لم يدر في خلــدهم أن يكونــوا هدفا للجماعات المتمردة التي ما فرّقت ما بين جنــدي وصبــــي، أصبح الدم قوت يومهم، رغيف عيشهم.

في الصلاة كان يتلو الإمام **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُــوا فِــي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾**، قبل أن يدخل مجموعة

من المسلحين الملثمين، يحملون سلاحا من قتل في أيـــديهم، كمثـــلِ مقصلة إعدام فوريّة مُتحرّكة، داست أقـــدامهم علــى آثـــار علـــب الشوكولا "هذا حرام صناعة كفّار"، ومـــا فكّـــروا في أن ملابســـهم جاءت من أصلاب الكفّار، ثمّ راحوا يصبغون الفعل الفاحش بالنـــداء المقدّس الله أكبر وكأنهم بذلك ينفون عن نفسهم آثار الدم، وكأن كُل شيء يُصبح حلالا بعد الكلمة، أظهرت الكاميرات وجود الصبية وهم يصلّون، البعض قطع صلاته خوفا من الأصوات المتناثرة، البعض الآخر فضّل أن يلاقي الله واقفا خاشعا في صلاته، يُريد أن يقول لقتلته: "هل من الإسلام، من يقتُل المسلم المصلّي، أنتم لا تمثّلون ديننـــا الحنيـــف"، فيردّد الله أكبر عالية لتعيث فسادا في قلـــوب الأشـــرار، لتســـري في أعناقهم خانقة لضلال ما يرون، "يثبّت الله قلوب الذين آمنوا حقـــا"، يقول عادل وهو يرى مشهد تساقط الصبية متفجّرة دمائهم، كاشـــفة عن براءة لم تكتمل، قُتل كل مـــن في المكـــان، وذُبحـــت الإنســـانية بأكملها، "حتى المستعمرين لم يفعل ذلك"، متحسّرا همس بها ســـعد، وقال كأنما ينبّش جرحا قديما "لا نبرع في القتل إلا حين نقتُل نفوسنا، ما أبرع حروبنا الأهليّة، وما أشد جبننا أمام من يستحق المعاداة".

- أمي، علي الذهاب إلى مشفى الجيش، لا يُمكن أن أتحمل.. لا يُمكن.

وعد رأت مشهد الصبية القتلى، لم تتحمّل ضراوة الحـــرب، لا تصدق أنه يوجد بشر هكذا لا يفرّقون ما بين شرب الماء وشـــرب الدم، تُصبح الرصاصات ألعاباً في اليد، والدمار مشهد جميل مسلٍّ، لا تملك رخصة من وزارة الصحة إلى الآن لمزاولة العمل، لكن دراستها تكفي لتقدم ما تستطيعه.

- لن تذهبي إلى أي مكان، دعي البطولات الوهميّة، من سيعوضني عنكِ إن أصابكِ مكروه.
- سيحفظني الله.
- ولا يكلّف الله نفسا إلا وسعها.

تشعر بالخزي على السكوت، والبقاء راضية، تهوي بنظرة على كتاب عادل، تعلم أنه سيكون أول من يشجعها لو كانت معه، عادل لا يرفض شيئا حتى لو طلبت الموت لساندها، تتمنى لو كانت اليوم معه تلتئم جراحها بلمساته، أنستها الحرب كُل ما تكنه لعادل من خيبة أمل، أصبحت خطايا عادل صغيرة جدا أمام فظاعة الحرب وأهوالها، قزّمت كُل المآسي التي رأتها مآسي في السابق، غيّرت الحرب تماما من حجم الأشياء أمامها، علمت أن ما مرّت فيه من أهوال فراق، ونفي عادل بعيدا، خطأ وقعت فيه، من يستحق النفي هي القلوب التي لا تتوانى عن قتل الناس مودعة إياهم بابتسامة، لا مجهول الوالدين، أخفى عنها أشياء ولكنه ما أخفى يوما طنين قلبه.

- أمي، هل يرضيك أن يموت كُل هؤلاء الناس.. يا متخاذلة؟.

كيف أصبحت تُحادث أمها بهذه اللهجة؟ رمت بكأس وأسقطتها منكسرة، بقدميها ركلت الباب بقوة، الأم لا تعلّق، تعبس ثمّ تدعو أن يهديها الله ويعيدها لرشدها، تتمنى الأم لو لديها حل لابنتها، لا توجد أي حلول، الحرب تقتل أي حل وسط، الإمعان لطيش وعد سيؤدي إلى نتائج وخيمة، لازالت ذكرى أختها فوزية في الحرب الأولى التي فُقدت في مخيّلتها، فوزية التي كانت أشبه بأم حنون لها، أُخذت ضحيّة ولم تمنحها الحرب حتى شرف النظرة

الأخيرة، إلى أين ذهبت؟ لا أحد يعلم عنها سوى روايات مبتورة من هنا وهناك لا دليل مادي عليها.

- أختي خديجة، أنا ذاهبة لبضع ساعات وسأعود.

أصبحت الساعات يوما، والأيام أياما، والشهر شهرا، ثم أصبحت سنوات، والآن عقود، وعدتها أن ترجع سريعا لكن لم يكن هناك أثر، فوزية تحدت فرض حظر التجوال، لم يسمع أحد عن قنبلة أو رصاصة في اليوم بأكمله، فإلى أين ذهبت يا ترى؟ اعتقد بعض الجيران أن فوزية لم تكن صادقة، بل التحقت بجبهات القتال لتشارك في الحرب متنكرة بزي رجل، بعض آخر يعتقد أن فوزية سقطت بسبب لغم في منطقة، يوجد من يقسم إنه رآها في منطقة على حدود الشمال وأصبحت متزوجة ولها أولاد، كل تلك تبقى مجرد خيالات في عقول قائليها.

صورة فوزية موجودة، أخذتها من على رف المكتبة، ثمّ جلبت صورة وعد بجانبها، الحرب لن ترأف بوعد الصغيرة، رغم وصولها إلى العشرينيات إلا أنها لا تزال نبتة صغيرة، بالأمس كانت تحبو، ولا يُعقل أن تُحارب اليوم أو حتى أن تعالج.

- أنا راحلة...(ذهبت وعد باتجاه الباب غير مبالية بالأم الممسكة بالصورتين، كأنها اتخذت قرارا لا رجعة منه).

سارعت الأم بإمساكها، منعتها بقوة، دفعتها وعد بالاتجاه الأيمن للباب قائلة: "امي اتركيني، اريد الموت وأنا أعالج بدلا من الموت وأنا أبكي". تشبّثت الأم بمقبض الباب، في حالة استعداد بدفع حياتها وكبريائها ثمنا للبقاء، ثم قالت لها شيئا جعلها ترجع خطوتين:

- لأجل عادل، لا تذهبي للحرب.

حكيمة الأم، خبيرة بدهاليز الفتيات، تعلم أن الحُب هـو مـن يتسيّد القرارات المصيرية، بمراسيم الحُب تتغيّر الأفكـار والقـوانين، ابتسمت لما رأت بركان وعد وهو يخبو تدريجيا، مدها العالي انحسر، شرارات الغضب أُطفئت، والشتائم اسـتحالت إلى تمتمـات غـير مسموعة، كل القوة أصبحت ضعفا شديدا..

....

هشّمت رأسه بضربة واحدة، رأيتُ احتضاره، المـوت يبتلعـه لقمة واحدة، كان يتعذّب من أثرِها كحشرةٍ انهالت عليهـا أقـدام النّاس، محاولاته المستميتة بالحياة لم تُزده إلا تعبا بعد تعب.

- هل مات، أم أنه لا يزال على قيد الحياة؟
- أعتقد أنه مات، فحركته قد سكنت تماما، كـان يحـرّك أصابعه أما الآن بلا حراك.

ميّت والذهول متّضح على سيماه، الشبح مات، قتلناه، تخلّصنا منه بعد أن باغته من الخلف.

كان أمجد يحدثه عن بعض الذين عاشـوا في قـرون سـابقة، ويُسهب في الحديث معه، ثم أوهمه بأن له قدرة علـى التجسّـد في صورة رجل صالح قديم، ولكن الشرط الوحيد لذلك بـأن يقـوم، ويترك مكانه، عليه إغماض كل شيء، والتركيز، وإن شعر بضربة أو تحرّك أحد فلا يجزع أو يخاف فذلك يعني تأكيد نجاح التمرين.

لأن العجوز يهوى تجربة الأشياء الجديدة، وافق مسرعا، لم يـدر بخلده أنها إغماضة النهاية، تقدّمت أنا بعدما جاءت الإشارة من أمجـد، طقّ أصابعه.. اقتربت بحذر شديد، معي عصا حديدية ضخمة.. بالأمس خططنا لكيفية الضربة.. تقدّمت أكثر.. أصبحت بمحاذاته تماما.

- أشعر أن هناك شيء ما ورائي.. هل أنت متأكد يا أمجد من صدق كلامك؟. يبدو أن التمرين ينجح.

خفتُ قليلا، لو فتح عينه الآن لرآني وانتهى أمري، كان لزامـــا علي أن أتشجع فكما قال أمجد إن لم يقتلنا نحن ســنُقتل، في كلتـــا الحالتين إن قتلنا فلا يسأل أحد عن أبناء الحرام والفقـــراء، ســـيكون مجرد حادث عرضي تسبب بموتنا، لما نرتضي المصير المحتوم إن كـــان بإمكاننا أن نغير القدر، لن نبالي بما تأتيه النتائج، أمجد طمأنني أكثر أن كل شيء سيكون على ما يرام، آه أخشـــى الآن أن يحـــدث شـــيئاً مفاجئاً، هي ضربة واحدة، أحبس أنفاسي جميعها، أرفع العصـــى إلى أعلى، ثم أهوي بها على رأسه دفعة واحدة.

شهقة واحدة كانت، العصا فلقت رأسه، طـــوارئ ســـريعة في قلبه، يحاول أن يفعل شيئاً ما يدحر قوّة الضربة، ليس هُناك من مفر، صعقة هوتْ فاختفت أنفاسه من الحياة.

كُل ذلك حدث سريعا، العجوز أُصـــيب في الأيـــام الأخـــيرة بنوبات تشنج ضخمة، قبل أسبوع كان يحاول الاقتراب مني بوجود أمجد، وأنا في خوف شديد من كابوسه، حاله تردّت بشكل واضح، الأخرى كاترين تأذت من نوبات جنونه، لا يتـــوانى عـــن اطـــلاق الكلمات الخادشة، فلا يجد من يوقفه عند الحد، منذ قـــول حكـــيم (سنتخلص منه)، وشعرت أن هذا هو الطريق إلى الخلاص.

- هل علينا أن نقتله يا أمجد؟
- نعم.. لا مجال آخر، رأيت فعلته بـــك، ومـــن ثم رأيـــت ما فعله بكاترين أمي، لا تنسَ أنه طرد حكـــيم الأســـبوع الماضي.

حكيم طُرد من المنـــزل بعد كل السنين التي عمل بها لحسابه، وبعدما كان والده يعمل عنده، ببساطة طلب منـــه مــلء حقائبـــه والبحث عن عمل آخر، والسبب محاولة حكيم الدفاع عن كاترين، لم يستسغ العجوز تدخّل حكيم: "ما شاء الله يبدو أن هناك من يريد أن يظهر الرجولة على حسابـــي، لا تنسَ أنك مجرد خادم". حكيم رفض التراجع عن موقفه، وواصل حماية كاترين بكل شجاعة، كنت أنظر إليه، ما لم أعلمه أن ذلك كله مجرد خدعة للإيقـــاع بـــــي، ظننت فعلا أن حكيم بطل، وأمجد بطل، وأنا بطل! قال له أبو سامي "هذه المرة الأخيرة، إن دافعت عنها مرة أخـــرى ســـيكون الطـــرد مصيرك، ستبيت عند أبناء الشوارع". رد حكـــيم مجـــددا: "أبنـــاء الشوارع ولا المبيت عند أبناء الحرام". لم يكن يقصدني بـــل يقصـــد إهانة العجوز، عندها فقط قرر الأخير ترحيله من البيت، بكى قلـــيلا وهو يودع قصر عامر يحوي كل ذكرياته، كان إناء العالم، لم يعرف غيره، الآن يتحتم عليه البحث عن وظيفة، هل كان ذلك يســـتحق؟ سألته: "كُل شيء يستحق لأجل الحق، إن ما كنّا جديرين بقول الحق فلا حقّ لنا، الحقوق تحتاج إلى أفعال". ورحل مع أغراضـــه تاركـــا ابتسامته.

- صحيح، لكن ألا تعتقد أن غضبه مردّه لحالتـــه النفســـية، أليس ذلك سببا للعطف؟
- والمجرمون يقيمون مجازرهم لأنهم غاضـــبون مـــن مـــاضٍ تكدّست فيه الآلام، والمحاربون يمثّلون بالجثث لأن هُناك من مثّل بجثث أهلهم، والأهالي يرفعون السلاح لأن هناك مـــن رفع السلاح بوجههم، لا توجد جريمة إلا ووراءها دافـــع

حق، قد لا يكون السبب مقنعا ولكن ما من مجرم يقــول "أنا أقتل لمجرد القتل". جميعهم يضعون أســبابا، الكتّــاب يا صديقي ينثرون كلماتهم بعد قصّة حُب قاتلة، والحــزنى يثأرون بالتنفيس عن نفوسهم، إن لم يكن مستحقا للقتــل فمن يستحق؟ لولا أن الوطن هذا منشغل بالثورة الوهميــة والتحرير المزيّف لارتضيت بحكم القانون، ثم قال بــنفس واحد "نحن القانون".

لا بد إذن من تنفيذ القتل، أو القانون مثلما يسميه أمجد، جلبنا عصى حديدة غليظة نعلم أنه لا مجال للنجاة من ضــربتها، الخطــة تقتضي العمل على كل الخطوات التالية، أولا يجــب أن يصــغي إلى أمجد بحيث ينفصل تماما عن أجواء الغرفة ويكون ذلــك في وقــت سلامه، لا وقت نوبات الغضب، أنا سأكون من الخلف معي العصى، سنقوم بإقناع الخدم الآخرين بضرورة البقاء بعيدا، سنوهمه أن الشيء المهم بيننا لا يُقبل أن يتواجد الخدم فيه، على الخــدم الــذهاب إلى الحديقة، أو لشراء حاجيات للقصر، كل مكان ماعدا هذا المكان.

بعد الإشارة سأضربه، لكن ماذا سنفعل بالجثة، ســألته بحــيرة شديدة.

- سنقوم بتركها في المكان.
- أليس من الأفضل إخفاءها، ليكون مفقودا وبالتالي إلى حين البحث عنه سنكسب بعض الوقت؟
- لا، بالعكس نحن مُباشرة بعد التخلص منه، ســنتوجه إلى الحدود، سنحاول رشوتهم ببعض المال ليتم الســماح لنــا بالسفر، بعد ذلك سنبقى في بلاد الجوار ريثما يتم نســيان

القضية، ربّما سنبحث عن عمل جديد وهوية جديدة، لا تقلق لا بد أن نعود إلى البلد من جديد، طبعا إن أردت العودة، أما أنا فلا همني مسألة العودة.

- وكاترين؟
- أمي سترضى بحكم الواقع، أيضا لدينا أهل في الجوار، سأوصل رسالة لها، عموما لا تقلق لهذا الموضوع كل شيء على ما يُرام.

من بعد القتل، أربكني مشهد أن أرى عجوزا قد أصبح جثة هامدة بضربة من يدي، القتل للمرة الأولى مؤلم مهما كان الضحية شريرا ويستحق المصير، رأيت أن ملابسي فيها شيء من دماءه، لم أعلم هل أهرع بالهرب مع أمجد، أم أبدل الثياب بأخرى جديدة، دقيقة أحسستُ أنني ملتصق بالصّالة، قدماي لا تتحركان، ثقيلتان جدا، كنت أسحب قدمي لكي أنهض، لا أريد التذكّر! أصبحتُ قاتلا؟ لا هو يستحق ونحن قمنا بتنفيذ القانون الذي وضعه الله ولم يطبقه الإنسان، لا أستحق العقوبة لمجرد أنني اختصرت تنفيذ العقوبات بنفسي.

- على الأقل الآن حقق أمنية حياته والتحق بزوجته.. أليس كذلك؟

نفذت ما يُريد، لن يطمس حسناته الآن لأن نوبات غضب قد جاءته، سيلتقي بزوجته، ربّما التقاها ونحن نتحدّث.. ما فعلته كان لأجل الله.

طلبت من أمجد أن أبقى في الغرفة لأجمع بعض الأغراض. في الحقيقة، كُنت أود أن ألقي نظرة على الورقة الوحيدة التي تحمل

خطّكِ يا وعد، لم أشأ أن أرحل دون أن أنظر إليها مودعاً ذاهبــاً، كان أمجد في الأسفل يصرخ بقوة، وأنا لا أسمعه، لم أتوقــع أبــدا أن يقوم أمجد بالرحيل والهرب وتركي وحيدا، كُنت مفزوعا وقتما بحثت عن أمجد في كل القصر و لم أجد له أثراً، "لقد رحل من هنا وتركني، لما لم ينتظر قليلا". لا أعرف إلى أين أذهب.

- أمجد!... أمجد!.. لا أحد يُجيب.

أسرعت بالخروج مخافة أن يعود الخدم، لا شكّ أنهم سيمسكون بــي إن رأوا مالك المنــزل ودافع رواتبهم ميّتاً، أيضا القصر يتوسّط المدينة، من السهولة بمكان أن يزور أبو سامي أحدهم في هذا الوقت فجأة، سيحلُّ بــي العقاب وحيدا، هذا ما أخافني، كــان عليــه أن يبقى بجانبــي أو ينتظر للحظات قدومي بدلا عن التخفي حتى عــن رفيقه.

هكذا ذهب كل منّا في طريق، الورقة كانت معي في جيبــي، ملابسي مُختلفة فالملابس المضرجة بالدماء لا تزال في غرفتي، أول ما خطر في بالي هو الذهاب إلى الدار، لكني تراجعت عن الفكرة مخافة أن يبلغوا عني جميعا، لو ذهبت إلى حي أمجد فستكون حماقة، أول ما ستبحث فيه الشرطة هو المكان الذي جاء منه القتلى، إذن إلى أيــن أذهب؟ كان هناك مسجد أمامي، قررت أن أبقى فيه لساعة ريثمــا أفكر في مكان بعيد لا تصل له قوات الشرطة، لا بد أنهم ســيبدأون التحقيقات قريبا، سيعلمون الجاني حين الاكتشاف أننــا الوحيــدين الغائبين عن المكان، دخلت المسجد كان خاويا لا أحد فيه.

صلّيت لله، رجوته أن يقشع عنّي ظُلمة الطريق، سجدت لــهُ والدم كمطرٍ يهوي من رأسي، بيدين مغتسلتين بدمٍ بشري، رفعــت

كفيّ نحو السماء، ربّي إن الألم قد بلغ مبلغــه في قلبـــــي، بـــات يستقوي على روحي الضعيفة، أنت أعلمُ بالقدر، وأنت ربُّ القدر، وأنت ربُّ الرسل، وأنت ربُّ أبو سامي، وربُّ البلاد، وربُّ أبنـــاء العالم أجمع، أنت ربُّ وعد، وربُّ والـــدها، وربُّ قبيلتـــها، وربُّ مدينتها، وربُّ قلبـــي وقلبها، لا تجعل في ألمي كفْارة لذنوبـــي، ولا تجعل في فؤادي مثقال ذرّة من وجع، ربـــي إن في الفؤاد لغصّة تجولُ في أنحائي، وبالعين دمعة لا تنـــزل إلا بمطرقة ذكرى حادّة، وبالنفس وجع لا يعلمه إلا سواك، ربـــي رجوتـــك أن لا تجعـــل فيّ شـــقاء أيوب، فلا أملك من الصبر ما يشفع لي عندك، ولا من الحسنات ما يُدخلني جنّتك، فإن شئت أدخلتني جنّتك، وإن شـــئت رميـــتني إلى جحيمك.

كُنت لأول مرة أدعو الله علانية بيني وبينه، تلقائيا نطقتـــها (ربُّ وعد) اليوم كُل الدعاء هو "اللهم أعلم بوقتِ انتهاء النبضات، وتوقّف الكلمات، وجفّ الحبر، وقضاء الأمر.. يا ربـــي أنت من حملـــتني إلى الدنيا على بساط الباطل، وأنت من قضيتَ بفراقي عن وعد، فاجعـــل لي في خير العُمر فرحة تُنسيني ضيقَ المرض وهشاشة الحال، اســـتجب الدعاءِ يا الله.. استجب الدعاء يا رب"، لجأتُ إلى الله وأنا مـــوقن أن هُناك شيئاً ما سيدلّني على رحمته، كثيراً ما يكون الكُفر ســـببه الثقـــة المكسورة، أعلم أن الله فوقي، في كلماتي موجود، يعلم عطشَ القلـــب لشربةِ حُب لا أظمأ بعدها، أسأله أن يجعل قبري بلا بشر، ومكاني في الجنة بلا بشر، لا أريد لأحد أن يقول: "ألجنة تكون لأبناء الحرام".

بينما كنت أصلّي، كنت أعلم أن رجال الشـــرطة لـــن يـــأتوا للبحث في المسجد، ولكن لا يعقل أن أبقى طول اليوم وأنا لاجئ في

المسجد، حتما سيلاحظ أحد وجودي هُنا، لا جدوى من التفكير كُل شيءِ مشوّش، فتحت المصحف وقرأت ما تيسّر منه وفيّ دمعات تسقط، كُنت حزيناً هل لأن أمجد الصالح رحل وتركني حائرا هنا، أم لأني قتلت أبا سامي، فجأة أصبحت أشعر بالذنب الكبير، ماذا لو أن ما قُمت به هو عمل شيطان، لا أفرق عن القتلة بشيء، أنا أبرر لنفسي كما يبرر الآخرون، أنا مجرم، نعم أنا مجرم، وبكيتُ صامتا مخافة أن يسمعني أحد فيظن أنني لص قد جاء إلى مسجد معلنا التوبة.

بعدها علمت أنه ألقي القبض على أمجد في الوقت ذاته في السوق، هُناك فتاة صغيرة بلّغت عن وجود صبي يبيع بعض الآلات الموسيقيّة (كمان، عود، ناي)، وحينما نوت أن تشتري شيئا لاحظت وجود قطرات من الدم على الآلات، كان قد تناهى إلى سمع المدينة وجود جريمة قتل، الكُل علم بها حتى هذه الفتاة الصغيرة، لم تقُل شيئا وقتما شاهدته، لكنها قامت على الفور بالاتصال برقم الشرطة واخبرتهم أن شاباً في منتصف المراهقة تقريبا يبيع وعلى يده دم جاف عالق على آثار هذه الأدوات، يخفي رأسه بملاءة، والتوتر بادٍ عليه، بالفعل بعد دقائق قليلة أتت الشرطة وتبيّن أنه القاتل، عرفتْ أن من بلّغ عن أمجد هي وعد.

لم أخبركِ يا وعد بأنكِ السبب في القاء القبض على أمجد، والدك أخبرني أثناء التحقيقات عندما زارني للمرة الأولى، أن وعد هي من لاحظت وجود الدم العالق، كانت تتمنى أن تخدم مجتمعها بإبلاغ الشرطة وما درتْ أن الخدمة المجتمعية على حسابنا، لقد كانت وعد سعيدة بهذه الذكرى كما قال الوالد، تقول: "الحمد لله ساعدت شرطة الثورة في القبض على قاتل مجرم خطر حاقد على

المجتمع". والدك أخفى عليكِ معرفته بالمجرم، كان فعلاً لا يعرف أمجد قبل المشاركة في جلسات المحاكمة، لكنه كان يعلم أن أبا سامي قُتل بضربة من عادل أحد أبناء الدار الذي يديره.

قبل ذلك، خرجت من المسجد، لديّ من المال ما يكفي لأغـــير هيئتي الخارجية.

تجوّلت في أنحاء المدينة، فكّرت أن أذهب إلى أحد الحمامـــات العمومية لأبقى فيها فترة، لكنها لم تكن فكرة جيدة فالرائحة عفنـــة جدا، لذا فكرت بالانـــزواء في حديقة عامة... أيضا هُنـــاك مـــن سيجدني.. حسناً، هل من وظائف؟

- مطلوب عمّال للمطعم.

على لائحة أحد المطاعم كُتبت هذه العبارة، دخلت المطعـــم، ظنوا أني سأجلس لأطلب الطعام فابتسموا لي، لكن ما لبثت أن قلت أبحث عن وظيفة حتى أشاروا إلي بالدخول من الباب الخلفي، تغيرت فجأة الوجوه الودودة إلى أخرى بشعة، ما أكثر النفـــاق في وطـــن الثورة! تعوّدت على هذا الحال، ففي زيارة من زيـــارات الـــدار إلى إحدى المؤسسات الحكومية قمنا بجولة تعريفيـــة في كُـــل المكـــان، النظرات كلّها تغيّرت حين عرفوا أنها زيارة ترفيهية خيرية، حســـبوا أننا قادمون من مدرسة أهلية من أبناء قادة الثورة، طلبوا منا المغادرة فورا بحجة تعطيل العمل (الحجج دوما جاهزة).

في الباب الخلفي رأيت مدير المطعم، أخبرته عن رغبتي.

- لا وجود لرواتب هُنا، الراتب فقـــط وجبـــات الطعـــام الثلاث.

- موافق، لا أريد شيئا حتى الوجبات الثلاث!.

كان هدفي الأهم هو البقاء في المطعم لشهور، قبـــل أن تيـــأس الشرطة من البحث، لا أتوقع أنهم سيأتون إلى المطعم، لم يسأل عـــن مؤهلاتي، المُهم هو ما أبتغيه من أموال ومادمتُ موافقا فكل الأبواب مشرعة لأن تستقبلني، في ذات الساعة واليوم أصبحت نادلا جديدا، واستقبلتُ المضيف الأول الذي منحني بعض البقشيش لمعاملتي الطيبة، أعتقد أنه شعر بصدق ابتسامتي، لم أكن أبتسم نفاقا في وجهه، بـــل دليل محبّة لأنه أول من أخدمه بحق.

لم يستمر ذلك غير أيام قليلة، ثلاثة أيّام وفي منتصـــف اليـــوم الثالث، كُنت ألقي بالطعام في الحاوية الخلفية، سمعت صوتا لم أتأكد منه، "ربما أتخيل بعض الأصوات، هيّا يا عادل لا تهتم"، "غنّيت أغان تعوّدت أن أنشدها في الدار، لكن لا يُعقل أشتم أصوات خطـــوات بشريّة من حولي، هل هو خيال أبـــي سامي يعود مجددا كما تقـــول الأساطير عن انتقام القتلى من قاتليهم؟ هل يوجد أشباح في المكـــان، "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، تلفّتت يمنة ويسرة فلم أجد ما يشير على وجود أحد سوى قطط عابرة، لو كان هُناك أحـــد لصـــاحت القطط، هي صامتة كالمعتاد.

– لا تقاومْ.. مقبوض عليك!

جاء الصوت... صحوت في السجن.

....

بدأ النـــزوح الجماعي من العاصمة، الآلاف يجمعون حقائبهم، ومقتنياتهم النفيسة، يجمعون بعض الصور ويلقون بأخرى في مكـــب النفايات، حراك جماعي، البعض في سيّارات، أو علـــى دراجـــات، ومعظمهم اختاروا أقدامهم لقطع الأميال الطويلة للرحيل، طلب قائد

الثورة من الشعب البقاء في مناطقهم أو النفير للجهاد، والرباط في أماكنهم لكن السكّان كانوا يجاوبون..

- هو الآن في الخارج ويُريد منّا المرابطة في البلاد؟
- ليأتي ليكون قائدا في صمودنا.
- نصف الرجولة في الهرب.

صاح إمام المسجد ليتحدّث عبر مكبرات الصوت عن الرؤى التي فسرها أن النصر قريب، صاح في الناس "ألا إن نصر الله قريب، ألا إن نصر الله قريب"، لم يعيروه أي اهتمام، يظنون أن أحداث الحرب وصور الجثث قد جعلته محض مجنون، فالنصر يحتاج إلى عزيمة وقيادة، يبدو أن السكّان سخطوا حتى على ما ظنوه سابقا خطاً أحمر.

التغير الجذري في البلاد مرده إلى سيطرة الكثير من الجماعات المتمردة على بقع في الوطن، كان الجنود بلا سلاح يُحاربون، أًخبار التفجيرات الانتحارية، أو الألغام، أو حتى الصواريخ مثل شرب المياه، يشربه الجميع في الصباح والمساء وبكل الأوقات، بدأت عواطف الناس تهبط إلى أقل مستوياتها، في البداية كان هناك من يوزع المنشورات التي تبيّن فضل الثورة على الشعب، وكيف أن الجمهوريّة قد وفّرت كل إمكانياتها لتقاسم الثورة، بعدها بأسابيع أصبح النّاس يتعاملون مع المنشورات كجرائد توضع أسفل أطباق الطعام، وفي النهاية اختفت المنشورات، وبدأ الناس يعلنون الرحيل، من العائلة الأولى التي وُصمت بالجبن والخيانة، لتتدفّق العوائل ليصبح الهرب نوع من الحكمة، ورجاحة رأي فكيف لعوائل مترعة بالنساء والأطفال والعجائز أن تقاتل في الحرب، سيصل المتمردون

وسيقتلوهم وعندها سينقطع نسل الثورة، أقنع السكّان أنفسهم بذلك، إلا أن عائلة واحدة كانت ترتأي البقاء، وعد وخديجة كلتاهما تعيشان على أمل عودة ما لسعد، وفي آن الوقت تشاهدان نفير السكان نحو الحدود، فهل ستصمدان، أم أنهما اختارتا أن تصب دمائهما في هذه الأرض.

– سنرحل اليوم، لم يبقَ أحد في الحي سوى نحن وظلالنا.. ثم استدركت.. نحن والجدران وقريبا نحن والجثث.

تنظر خديجة نحو وعد، تعلم أن القرار صعب، هجران البيت صعب.

– من هُجر قلبا، لن يضيره هجر منزله.

فاجأت والدها بالإجابة، وعد هي الأخرى انتظرت طلب الوالدة لتوافق، وافقت سريعا دون أن تتشبث بالذكريات في البيت، الصور العديدة، والحكايات التي تربت عليها منذ نشأتها، كل شيء في البيت أصبح خرابا، صافرات الإنذار المتتالية والطائرات القريبة المحلقة حوّلته إلى خرابة، بدأت التشقّقات تداهمه من كُل مكان، السجّادات تحتضن للتراب، لا أحد يفكر في تنظيف المنزل إن كان سيُهدم أو يُهجر، خديجة تركته أسابيع بلا عناية.

– اذهبي لتجمعي الأغراض، لا يزال أبو علي هُنا، سيحمل معنا الأغراض.

– حسنا.

ذهبت إلى الغُرفة ما الذي ستحمله ستحمله، هل بيانو أهداه لها إدوارد كونز وقتما ذهبت في رحلة نظمتها وزرة التربية والتعليم للفائزات في مسابقة البيانو؟ لا تستطيع أن تحمل كُل هذا، صوت

الموسيقى لا جدوى منه، نظرت إليه بكل يأس، ثم مسحت عليه كعزيز، وبكت قُربه تستحضر المعزوفات التي عزفتها يوما لعادل، والأغاني التي أهدته إياها في أيام أُخر، كانت في الصباح تُرسل له أغنية الصباح، وفي المساء توقّر مقامه بأخرى، ترمّل البيانو، و لم يعُد له قيمة، قالت في نفسها ليست للأشياء قيمة أو سعر، معانيها هي قيمها، ثمّ انخفضت لترى إن كان هناك من مقتنيات أسفل السرير.

وجدتْ صدفة السلسلة التي منحها إياها عادل، يا الله لم تمسكها منذ زمن طويل، حسبت أنها ألقتها، ولكنها لا تزال موجودة، أعادتها إلى الصندوق الضخم، لا تستطيع النظر إليها، مدّت يدها إلى ساعة كانت هدية عيد مولدها من والدها، الساعة أصبحت قديمة ومطلية بالغبار عوضا عن الذهب، لو باعتها في السوق السوداء لما جلبت لها ثمن علكة، تأكدت أن الغرفة لا شيء فيها يستحق أن تأخذه معها، نظرت إلى مكتبتها الكبيرة وكُتبها متراصّة تُبادلها أحضان الفراق، ورأت دُماها نائمة في زوايا الغرفة إنها تعود لشخصيْات أحبتها كثيرا، كانت الدُّمى تعوضها عن دفء عادل، والكُتب كانت تثني عقلها عن التفكير به، غدر الزمن جعلها لا تحمل من الغرفة سوى كتاب عادل.. انتصر عادل!.

قبل أن ترحل، دارت حول نفسها كصوفيّة، حوّلتها الحرب إلى درويشة ترقص المولوية، تتخيّل أنها في عصر جلال الدين الرومي وترقص ناسية خديجة وعادل ووالدها سعد، وكُل هذه الحرب، كانت ترقص لتعالج نفسها الجريحة من القلب إلى العقل، وترقص إيذانا منها أنها في كامل بهاءها لاستقبال عريسها الموت، شعرت أنه رحيل أخير عن المكان، فحبّت أن لا تودعه بدموع كسائر النّاس،

بل برقصة كما المتصوّفة الذين مهما بلغت أحزانهم رقصوا في زواياهم متحلّلين من الأفكار والخيال، صابّين كُل قدراتهم في محيطات العشق، رقصت فنست أنها في أرض حرب.

- ترقصين!... والله أنكِ مجنونة.

الأم خديجة سمعت أصواتا من الغرفة وقد لاحظت تأخر وعد بالخروج، فتحت عليها الباب لتراها ترقص، لوهلة اعتقدت أنها في حلم، أو أن وعد ابنتها مستلبسة، لكنها تذكّرت أنه ليس للعاشق من حرج، فمن بعد صرختها، قالت لها برفق:-

- علينا الذهاب.. أريني الذي جمعته من الغرفة.. لا أرى شيئا.
- لا أريد سوى كتاب عادل.
- استغفر الله... هل أنتِ متأكدة أن جميع الأشياء لا قيمة لها عندك؟ ما الذي ستجنينه من الكتاب؟
- أريد أن أقرأ عادل، لم أنتهِ من الكتاب بعد، يجب أن أنهيه.. وكُل هذه الأدوات مُستغنية عنها للحرب، هذا اختياري يا أمي.
- حسناً.. الآن علينا الذهاب.. رحم الله منزلنا.
- رحم الله حالك يا عادل.

في المُستشفى اختفى الأطباء، لا طبيب يأتي ليتأكد من النبضات، ولا حُقن تضرب، ولا تحاليل، كان كل من عادل وسعد يموتان معا في غرفة واحدة، لا يعلمان ماذا ستخبئ لهما الدنيا.

- ألم أقل أنهم أبناء حرام.. بعض الأطباء هربوا، وتركونا نحن هنا، تُرى ماذا سنقول إن وصل المتمردون إلى غرف

المستشفى، هل نقول لهم إننا أبرياء مصابون، سيظنون بالتأكيد أننا رفعنا السلاح ضدهم وسيقتلونا، ليست لدي مُشكلة لأني ميّت.. ولكن أنت؟

- لا تبالي يا عادل، لقد شبعت من الحياة، وصلت إلى الكأس الأخيرة منها، والآن ما همّي إن كانت الجمهورية ستمنحني وساما لإصاباتي في كافة حروبها، أم ستتخلى عني، أم سيأتي المُحاربون باسم الثورة ليُطلقوا علي نيرانهم، كُل ما في عقلي هيَ وعد.. حتى خديجة لو ماتت لن أبكي عليها.

لا تواصل له مع عائلته، يُحزنه المصير المتفكك لأسرته، كلّما تأتي نشرة الأخبار يضع يده على قلبه وروحه، يخشى أن يسمع خبرا عن ضربات بالمدفعية على المدينة، يقول الحمد لله ألف مرة حين تأتي الأخبار بمقتل عشرين جنديا في كمين، إصابات في مواجهات مسلّحة، خفت الانتماء للوطن، وعد ابنته هي الوطن، يُريد أن يرحل وهو متأكد أنها لن تُصاب بمكروه، الآن ندم لأنه لم يختبئ عندما استدعوه، لو اختبأ فلن يبحث عنه أحد فالكل هنا مثل يوم القيامة همّه نفسه.

بدأ عادل بالغناء، لكلمات كتبها أثناء المرض، لا قافية ولا وزن ولا هي بشعر، هو شيء آخر يخترق القوافي.

أحبّكِ يا بلاء العُمر...

يا عذابَ القلبِ وجمرته الحارقة..

أحبّكِ إلى خشخشات الصبر..

إلى وقتٍ هب فيه الدنيا ضرباها الصاعقة..

إلى الجنونِ أمضي في طريق الراحلين..
نحو قبلةِ العشق العظيم..
استودع القلم وفي قلبـــي يقين..
إن الله سيُهديني الحُب الرحيم

يسمعه سعد، ويتأثر لما يقوله عادل، كيف لابنتــه أن تتــرك عاشقاً يهيم بغيابها، ويؤمن بها في حُب أزلي، سأله:

- كيف غادر الحُب قلبها؟
- يا سيّد سعد، الحُب رحلة بلا تذاكر عودة، إنه لم يغادرها لكنها دفنته في جوفها، أنا تأقلمت مع الحُب فبُحت بــه، وهي هربت منه فأخفته بقناع الكره، لعلها رأت فيّ صفات لا تحبّذها، هي صُدمت منّي في أحيــان، وقــرّرت أن لا ترجع، النساء هنّ في عداوة مع الكبرياء، قدّمت الكبريــاء على حساب حبّي فبقيتُ أنا مولعا بهــا إلى أن مرضـــت، لستُ حانقا على ابنتك يا سيّد سعد، ولكنني محزون لأنهـــا لا تعلم أنه في كُل يوم يوجد من يطمأن على حالِها، والآن وأنا مريض لا سبيل للاطمئنان فجئت أنت....

"نقطع عليكم مشاهدينا هذا البرنامج، لنُعلن لكم هـــذا النبـــأ العاجل، أفادت مصادر مسؤولة في القوات المسلحة بوقوع تفجير في حي الدولارية في العاصمة، وأكدت المصادر على وقـــوع خســـائر بشرية لم تحدد بعد، والآن وردتنا هذه الصور من موقع الحادث لآثار الدمار، وإذ تحذّر القوات المسلحة السكان من النـــزوح عن بيـــوتهم لحين هدوء الأوضاع، ونجاح الجيش في دك الجماعـــات المتمـــردة، نسأل الله أن يحفظ الثورة وأهلها".

سكت عادل، يد سعد على قلبه ويتنهّد تنهيدة من خارت قواه، كلاهما ينظران إلى الصور التي تُشير إلى خراب كبير، أشلاء جثث واضحة المعالم، هذه نظّارة، لا يُعقل.. هل هي نظارة وعد؟

تذكّر نظارتها التي كانت تضعها في آخر لقاء حُب بينهما، كانت تضعها فيهفو قلبه إلى جمالها بالنظارة، يحتفظ اليوم بصورة، يقول لها "أنتِ هكذا أجمل وأجمل.. إن كُنتِ بلا نظارة كالقمر، فإنتِ بالنظارة أجمل منه"، يتغزّل فيها كثيرا، رأى النظارة على الشاشة وقد تكسّر جزئها الأمامي، فخشي أن يرى المشهد الآخر، نعم كانت أشلاء بشرية ملقاة، شيء من أصابع، ويد مقطوعة بجوارها شيء يدل على علب الطعام، ومن هناك يظهر جزء من قدم، من هؤلاء الذين قُتلوا أبشع قتلة، إنه غضب شديد، ضربة قوية، ومشاهد.

- لماذا يعرضون هذه المشاهد؟

حاول سعد أن يسأل كأنه لا يدري، هذا الحي هو الذي تسكنه زوجته خديجة ووعد، وهذا المنزل المضروب هو منزل السيّد سعد، أراد أن لا يصدق فتظاهر أن ما يراه مشاهد عابرة، فالانكار هو أول مراحل الصدمة، ضحك بشدة مثل مشاهد يرى مسرحية كوميدية، إنها هزليّة الحرب.

- أليس هذا بيته...

لم يقدر أن يُكمل.

- لا لا، ليس هو... هذا ليس بيتي.. ما بك.. إنهم بخير أنا متأكد!.

"وردتنا الآن تفاصيل أخرى عن الحادثة، ومعنا مراسلنا من موقع الحادث عزّام سليم.. عزّام إليك الكلمة".

- نعم مُشاهدينا في صباح هذا اليوم شنّت العصابات المتمردة مجموعة من الهجمات الإرهابية، وأفادنا مصدر مسؤول أن انفجاراً وقع في منـــزل أحد العسكريين المتقاعدين، ليست لدينا حصيلة أولية للخسائر ولكن من المؤكد وجود ضحايا أبرياء في الحادث، وتستطيعون مشاهدينا أن تروا حجـــم الأضرار من خلال المشاهد الحيّة، نرجو من الأطفال أن لا يشاهدوها".
- هههههههههههه..... قالوا منـــزل عسكري متقاعد.. أنا كُنت متقاعداً ليس منـــزلي.

يضحك بشدة، الضحك وصل إلى بعض مـــن في المستشـــفى، الطبيب الذي لم يزره لأسابيع جاء مهرولا نحو الغرفة، تذكّر أخيرا أن هُناك مرضى لم يزرهم منذ زمن، جاء سائلا عن ســـبب الضـــحك الذي أزعج الجرحى المتكدسين في غرف المشفى.

كان سعد وعادل يعلمان أن المشفى لا يسع لمزيد من المرضـــى والجرحى، ولا توجد أسرّة كافية، لكنهما كانا دائما يتساءلان لما لم يُحشر شخص ثالث معهما في الغرفة، لم يعلما بأن المشفى كانت في حالة هرج ومرج كبيرين، وما من أحد يهتم بالتنسيق والترتيب، كُل شيء محصور بأن يتم إنقاذ الجرحى في اللحظة الآنية أما ما يحصـــل بعد ذلك فهو قدر من الله، الجرحى ازدادوا وسرت شائعات أن وباء تفشى لكثرة الدم الذي لم يستطع عمّال النظافة أن يزيلوه، رائحـــة الدماء في كُل مكان، ومع ذلك وبالرغم من الصراخ إلا أن ضـــحك سعد وصلهم.

- لماذا يضحك... هل جن؟

لم يُجب عادل، كانت عيناه معلقتان بالشاشـــة.. بالنظـــارة.. بالأشلاء البشرية المتناثرة.. وبالحي الذي دخل إليه سرا مرات ليلتقي بوعد.

- وأنت أخرس، أجب لعلّي أساعدكم.. لم ينتظر إجابة عـــادل وأغلق الباب بقوّة عليهما تارك إياهما في خضم الدهشة.

كانت الأخبار تتوالى.. في البداية قتيل واحد.. ثم ثلاثة قتلى.. ووصلت المحصلة في بعض الأحيـــان إلى عشـــرة، لا يتحـــدّثان إلا بالصمت، والضحك يسري في سعد، يتمسّك بالأمل الأخير في أن لا يكون ما رآه صحيحا.. ذهب ليحميهما من الشر، وفي النهاية هـــو على السرير يضحك، وأغلى ما عنده لا يعـــرف مصـــيرها، بعـــد الضحك، أغمي عليه، شعر بدوخة رأى فيها كُل شيء في حياتـــه، تذكّر يوما ما حين هرب من ساحات القتال في حرب التحرير لأجل أن يواعد إمرأة في جبهة ما، تذكّر حتى المرأة التي جـــاءت بالصـــغير تدّعي أنه ابن لابنه، ونهرها ذاهبا، هي التي قالت في وجهـــه وقتمـــا كانت ذاهبة: "اللهم عذّب قلبه بما يُحب، كمـــا عـــذّبت قلبـــي بالحُب". أيكون قد أُستجيب للدعاء بعد عقدين من الزمان، هـــو لا يجزم أصلا بأن يكون ذلك الولد من صلب ابنه، ولم يخبر بعد بالسر الذي في جوفه، كل الدعوات والمواقف التي جاءت في دنياه، جميـــع المعاصي التي ارتكبها حتى في الصغر، شعر بالضعف الشديد، أمسك قلبه وكتمة ضحكاته، ووقع مغشيا عليه.

- سعد سعد ما بك!.

هل ماتت وعد وخديجة وسعد قبل أن يموت عادل؟ سعد شيخ طاعن في السن، الحرب أنهكته ولا بد أن الصور البشعة التي عُرضت

أدمتْ قلبه، خاف عادل من أن تكون جلطة قد أصابت سعد، راح يرتاب إن كان ميتا أم مجرد دوخة ألّمت به، وضع يده علـــى قلـــب سعد، لم يكُن لديه وقت هو ليبكي أو يصيح، قرّر أن يؤجـــل كُـــل البكاء والتعازي والأفكار إلى حين أن يفيق ســـعد، كـــان يحـــاول بصعوبة أن ينقذه فهو بالكاد يستطيع أن يتحرّك.

- سعد.. أجبني.. ما من تأكيد أن التفجير استهدف بيتـــك، ربما هو في بيت شخص آخر.

"نعم وصلتنا معلومات جديدة تفيد أن المنـــزل يعود إلى العقيد سعد، وهذا الهجوم استهدف المنـــزل بالتحديد في صـــباح اليـــوم، المعلومات أفادنا بها السكّان الذين يعرفون أهل المنـــزل، لا نعلم الآن من كان بداخل البيت، وسنتواصل معكم في نشرات أخرى.. عودة إلى نشرة الأخبار".

من يُنعش من.. هل يُنعش عادل نفسه بعـــد أن تأكـــد مـــن الصدمة.. هل يُنقذ سعد من الموت لأجل موت آخر.. ترك ســـعد.. أخذ يصيح.." وعد ماتت.. وعد مااااتتت". لم يأتِ أحد.. النـــواح هو صوت المستشفيات.. لا غرابة.

....

في طريقي إلى حبلِ المشنقة، أخبروني في صباح اليوم أن علـــيّ الاستعداد للموت، لم أتفاجئ فكُنت أحضر نفسي لشهور منتظـــرا ذلك اليوم، أحد الحرّاس كان قد أخبرني في بداية الشـــهر أن أسمـــي مُدرج على قائمة الإعدامات لهذا الشهر، سألوني بابتسامة ماذا أريد كوجبة أخيرة، وماهي طلباتي الأخيرة التي سيحاولون توفيرها قبـــل موعد الإعدام.

- أمّا من الطعام فلا أريد شيئا، فقط لدي طلب واحد أُريد أن أكتُب رسالة إلى السيّد سعد.
- حسنا سنحضر لك قلماً وورقة.

جاءوا بالقلم والورقة، كتبت مئتي كلمة فيها

"إلى السيّد سعد والد وعد، إنّني أكتبُ الرسالة وأنا مُلتحق على طائرة الوداع، أكاد أُحمل على كفن إلى بلاد الآخرة، في الفجرِ بردٌ كثلجٍ يُمطر على أرض، في قلمي الآن صديد شوقٍ شديد لكُلِ ما احتوته عيناك، أشتاقُ إلى صوتِ الحياة، وأتوق إلىً حُب ينفطرُ لهُ قلبي، فأنسى أنني تجذّرت من شجرة الحرام، يا سيّدي بلّغ السلام لكُل أبناء الدار وقُل لهم أن السجن علّمني الكتابة، وأوصهم بنفوسهم لا يأتيهم الشكُّ من خلفهم، ولا الخوف من أمامهم، وأوصيكَ يا سيّدي بالحياة خيرا، فامنحْ للمحزونين من خُبز السعادة، وارويهم من ماءِ الاحتواء، ولا تتركْ محتاجا من شعبنا نحن أبناء الحرام، واذكرني بخير.

إن هذا الحُكم ليس بعادل، ولا أنا بعادل حين أرتضيه لنفسي، قتلتُ شبحا أراد الخلاص سريعا فنفّذت ما طلب، ووقعتُ فريسة خُدعة من أمجد الذي أسأل الله أن لا يُسامحه على الإيقاع بي، في آخر الوصية يا سيّدي ليس لي ميراث سوى جسدي الذي ستشفطه المقابر، ولا مال أتركه بعدما تبخّر بين دماء القصر، ولا أجر أتوكأ عليه لدخولِ الجنة، أنا لا شيء، سأعود إلى حيثما كُنت باليا عظما تحتويني أعواد رحيل، على ضفافِ الحياة وضواحيها سيكون جثماني، لا تنسَ أن تُخبر الناس بأن يصلوا عليّ، فالقاتل الذي يظنونه مطرودا من الرحمة، ماهو إلا صاحب قلب هش رحيم".

كتبتُ الرسالة وقدّمتها إلى حارس السجن، الكل يحرص بشدة على أن لا يقطع قداسة الموت، جميعهم يُريدون تقديم أجمل ما لديهم من أخلاق تجاهي لأترك الحياة وأنا مُرتاح، حمقى! يعتقدون أنني سأنسى الإهانات التي حظيت بها في الصغر، أو أن هذا المشهد سيغير العمر الذي عشته في الوطن، رغم أنني لم أطلب طعاما وحرصت على تأكيد ذلك، لكنهم جلبوا لي حساء دجاج، مع قطعة ليمون جميلة، كان الحساء ساخنا لكي يحميني من البرد، ضحكت وكأن الحساء سيقيني من زُكام لن أعيش لأراه أصلا.

- بعد ساعة سيتم نقلك إلى ساحة الإعدام.. لا تنسى الصلاة.

لم أتناول شيئا من طعامهم، ذهبت لأصلّي في مصلّى صغير بحراسة من رجال حرس السجن وأطباء كانوا على استعداد تام لأي فقدان للوعي، سمعت قصصا كثيرة عن المحكومين بالإعدام، البعض منهم يسقط ما إن يسمع الخبر، هُناك من يموت قبل تنفيذ الحكم وهو في الطريق إلى المشنقة، أحيانا فقدان الوعي يسبب تأجيلا للحُكم، أحدهم فقد الوعي أربع مرات متتالية، وفي المرة الخامسة وبعد إستشارة القضاء تم تنفيذ الحكم به رميا بالرصاص وهو فاقد للوعي، لا يُريدون مني الغضب أبدا، ومع ذلك يسترقون النظرات وأنا أدعو الله مرارا وتكرارا أن يكون هناك شيء مفاجئ.. لستُ مستعدا للحكم بعد يا رب.

- المدان عادل... الآن سنذهب بك إلى الإعدام.

رأيتُ أمجد وأنا بالطريق إلى المشنقة، اذن هو حُكم إعدام جماعي لكلينا، كانت المرة الأولى التي أراه فيها بعد انتهاء المحاكمات والحُكم بالإعدام، تحاشى أن ينظر إليّ، بالمُقابل كُنت أقول له

- لماذا فعلت هذا؟! ماذا استفدت؟!.

كُنت أُشير إلى جملة المفاجآت التي تكشّفت أثناء المحكمة، كُنت ضحيّة، كان أمجد قد اتفق مع حكيم على قتل أبـــي سامي والسبب يعود إلى خلاف ثأري ما بين والد حكيم وأبـــي سامي من جهة، لم يخبرني حكيم أن والده كان شريكا لأبـــي سامي في الثروة، وبعـــد مكيدة أصبحت الثروة بأكملها لأبـــي سامي، بينما بقي والد حكيم يعيش بين الأحياء الفقيرة، قبل أن يوافق مُجبرا خاضعا على خدمـــة من كان صديقه بالأمس، طوال سنوات أخفى حكيم رغبته بالانتقام ممّن سبب الفقر لعائلته وعقد العزم على أن يقتله، لكنه لم يكن يريد أن يبقى في السجن أو يموت بعدها، كان الخيار هو أن يستعين بأحد أفراد العصابات، وكان هناك زعيم عصابة شاب هو أمجد الأفضـــل للمهمة.

- نعم يا عادل، لم أخبرك أنني زعيم عصابة في السابق، كُنت أتستّر بملابس الصالحين للتنكر، لدي خبرة جيدة في قـــراءة الكُتب، وأيقنت أن أكثر ما تقع فيها العصابات من أخطاء اهمالها للعلم، حفظت سيرة السرياني، واستطعت أن أكوّن شبكة في العاصمة تعمل لأجلي، البعض كان يسرق لأجلي ثم أختفي لمنطقة أخرى، لم أقتل أحدا ما قبل أبـــي سامي، ودخلت السجن حين رأيتني لأن هُناك من تعرّف على أني العقل المدبر لنهب بنك، مرتان كُشف أمري، وفي السجن وصلت لي أخبار حكيم، قابلني وأقنعني بأنه سيتمكن مـــن تهريبـــي بعد أن أقوم بنهب الكنـــز الذي يخفيه أبو سامي، حين ذهبتَ أنت لغرفتك، كُنت أنا قد خرجتُ سريعا من

الغرفة، كانت الخطة بيني وبين حكيم تقتضي على أن نجتمع معا بعد الحادثة، حكيم كان خارج البلد لكنه أملى عليّ خطة الهرب، كنّا نريدك أن تكون المجرم في القضية، ويتم إلقاء القبض عليك وتنتهي الجريمة خاصة أنك ابن حرام.

هذا ما قاله لي بعد أن تمت ادانتنا، لقد اعترف أمجد بكل شيء بعد أن ثبتت عليه الأدلة، وطالب بتنفيذ العقوبة القصوى عليه وهي الإعدام، حكيم لا يزال خارج البلد ولا يُعرف له أثر، واعتقادي الكامل أنه غير أوراقه الثبوتية ولا بد أنه شخص بشكل مُختلف الآن.

لم أُصدق ما سمعته منه في قاعة المحاكمة، حسبته شخصاً صالحاً، سألته عن كاترين وكيف أنها تساعد ابنها زعيم العصابة فضحك على سذاجتي، وقال إن كاترين محترفة في مجال القوادة و لم تعترض في أن تكون طرفاً في الخطة ما دام ذلك سيمنحها الكثير من الأموال، وأنني حين أتيت للمرة الأولى كان المشهد تمثيليا بامتياز، فلا هُما يسكنان هذا الحي، ولا أمجد بصالح ولا مثقف، ولا العجوز تعبة لا تستطيع الكلام، كُل شيء مبني على ممثلين وأدوار وأنا من بينهم.

- يا قاضي، احكم على كاترين بالإعدام أيضا!!.

صرخت في وجه القاضي بعد الحكم علينا بالاعدام حين عرفت دور كاترين، أسمها ليس كاترين أصلا. تم إخلاء سبيلها بعدما رأت المحكمة أنها لم تتدخّل بشكل مباشر في القضية، وأنها باعتراف أمجد نفسه كانت تعلم أن هُناك شيئاً ما يدبر للعجوز، لكنه لم يتم إعلامها أنها خطة تهدف إلى قتل إنسان، بالإضافة إلى أنها لم تقُم بدور مساعد

في الجريمة، فقط استخدمت لتكون واجهة صامتة، وقد أدى هذا إلى عدم ادانتها لغياب الأدلة.

- "المُدان عادل، والمدان أمجد، حكمت المحكمة عليهما بالإعدام في السادس والعشرين من يناير، وتم التوقيع على تنفيذ حكم الإعدام صباح اليوم، وذلك بسبب اشتراكهما في جريمة قتل ولله الشكوى، وله المصير"، كانت تلك خطبة بسيطة من أحد ممثلي المحكمة الثورية الذين حضروا لمشاهدة تنفيذ الحكم، السيّد سعد كان هُناك لكن لم أره.

طوال جلسات التقاضي شعرت بالحنين إلى حياتي الأولى في الدار، أتذكر الجلسة الأولى وأنا لا أستطيع أن أقول شيئا، حتى لم أرد على إثبات الحضور، ظن القاضي أن بي خطباً ما، بيد أن كُل ما كان يجول في خاطري هو التساؤل إن كانت هذه هي نهاتي، في الجلسات كان هُناك شهود للإثبات وهم الخدم، وأقوالنا نحن في التحقيق، بينما شهد والدك أني بريء من التهمة باعتباري مغرّر به في القضية ولا يجوز بالمنطق أن أُحاكم وأنا مضحوك عليّ.

- لكنه كان يعلم أنه يقوم بقتل الضحية.

خاطب القاضي سعد في الجلسات.

- كان يعتقد ذلك نعم، لكنه ضُحك عليه باعتبار أن أبا سامي كان وحشاً يجب التخلص منه، هو في هذه الحال يستحق العقوبة المخففة، لا العقوبة التي تنص عليها جريمة القتل، ليس المنفذ الذي يُحاكم بل من حرّض على التنفيذ.

في إحدى الجلسات تشجّعت وقُلت في دفاعي عن نفسي:

- أبو سامي حاول التحرّش بـــي، وأمجد يستطيع أن يشهد على ذلك، كان شخصا مريضا يا سيّدي القاضي، لمن تُريـــدني أن أشكو؟ هل للعائلة؟ لا أهل لي أيها القاضي، هل أتقدم لمخافر الشرطة وأحرر محضراً بالواقعة.. يا سيّدي لن يصدقني أحد.. بل سيعاقبوني فوق ذلك، حتى الدار أخبرتهم بما حصـــل و لم يحركوا ساكناً، أأحاسب لجريمة، ويترك السبب الذي دفعـــني إليها؟ لقد قام أبو سامي بأفعال لا يرضى عليها القانون في بلد الثورة، وأطالب من هُنا سيادتكم بأن يتم التحقيق العاجل في الموضوع، وأطالب أيضا بتعويضي عن الأضرار النفسية والتي كان من نتائجها الجريمة التي أُحاكم عليها اليوم.

مرّت الأيام، و لم يستجب القاضي لطلباتي. ذات مـــرة حـــين رفعتُ صوتي متسائلاً عن سبب إهمال الشكوى، أجاب أنـــه علـــي التزام الصمت. "يبدو أني سمعتك كثيرا.. أنت في النهاية ابن حرام لا يُمكن تصديقه.. وهمس قائلاً علاوة على كونك مجرم قاتل."

- أيها القاضي، أنا متهم بريء.

ليتم اسكاته!.

وأُسكتت ومنذ ذلك الحين لم أنبس بشيء، شاهدت كُل مـــا يقال نحوي، تفاجئت بوجود أناس لا أعرف عنهم شيئا يطلبون مـــن القاضي تعويضات لأني سرقت منهم، شاب ادّعـــى أني ضـــربته في صغري، وقال آخر إن بضاعته اختفت وأنا اختفيتُ مـــن عنـــده في الوقت عينه، وجاء آخر يقول إني "عدو الله في الشارع، و لم يُشاهدني مرة أقرأ ولا أصلّي، ويجب على المحكمة أن تأخذ ذلك باعتباره خلفية أخلاقية سيئة تُضيف في الأسباب التي يجب أن أدان عليها، استمعت

وأنا أتساءل، هل هؤلاء كانوا يظهرون لــو أن أحـــدا مرموقـــا في مكاني؟ ضحكت قائلا "لو كان المرموق لا يصلّي، لقالوا يا الله تقي وورع لا يُريد إظهار إيمانه على الملأ، إنه يُحب عمل الخير في السر"، لم يتغير شيء إلى وقت اقتيادي للساحة.. اتهامات واتهامات.

في الساحة جمع غفير، بعضهم جاء للتشفي من خلفياتنا فيقولون "اقتلوا أبناء الحرام"، "القتل للمجرمين"، وجمع يصـــرخ "الله أكـــبر، القصاص القصاص"، ولا أعتقد أن أحدا منهم قريب لأبـــي سامي، كان أبناء القتيل يقيفون في صف واحد، يُسألون للمرة الأخـــيرة إن كان هُناك عفو، فالعفو هو الوحيد الذي قد يُنقذ الأعناق من حُكم القصاص.

- هل يتم تنفيذ القصاص أم تعفون على المجرمين؟
- قرّرنا نحن عائلة المجني عليه يا سيّدي، أن يتم تنفيذ القصاص على أمجد، بينما نعفو عن عادل، ونسأل الله أن يكتُب لنـــا الأجر.

عندها سجدت لله غير آباه بالقيد الـــذي في يـــدي، بكيـــتُ صارخا وحامداً لله، لم أحب الحياة بقدر تلك اللحظة التي عرفت أن لي موعدا آخر في مشاويرها، الأشخاص نفسهم الذين كانوا يطالبون بالقصاص قبل قليل صرخوا العفو عند المقدرة، وعلمت أن أكثر من يلهث خلف الموت تأتيه الحياة، لم أعلم لماذا وكيف جـــاء العفـــو؟ ليست لي أموال أدفعها ليتم العفو عني بمبلغ مادي.

كان أمجد بجواري، رأيت فيه زُرقة لم أعهدها في وجهه، قبـــل لحظات كان قويّا صلبا كجبل، والآن هشّا لولا أن الحرّاس يُمسكوه كان ليسقط، الحشود جميعها صمتت تنتظر الإعدام بأمجد، تم تغطيـــة

عينيه، ثم وُضع الحبل ورُبط على عنقه، اشتد الحبل و لم يُكمل الصرخة حتى أصبح في عداد الأموات، في اللحظة ذاتها تحوّل أمجد من شخص لا أسأل الله المغفرة له، إلى رحمه الله.. لأن الحياة علّمتني أن أكثر الأشخاص دناءة هُم من يعادون ميّتا.

علمت بعدها جميع التفاصيل، فالسيّد سعد قام بالاجتماع ببعض المتنفذين من أصدقائه مفي البلد، وأقنعهم بالتوسط أجل العفو عني، كان الأمر يحتاج إلى معجزة كبرى، فليس من المُعتاد أن لا تأخذ عائلة بثأر والدها خاصة إن كان في مقام الضحية، لكن الأحداث في البلد فرضت أمرا آخر، فالسياسة لها مُقتضياتها التي حتّمت عليهم التوصل إلى حل آخر يرضي جميع الأطراف.

كان العفو عنّي يعني أن تتناقل وسائل الإعلام إقدام عائلة رجل الأعمال على العفو عن قاتل والدهم وذلك لوجه الله، وكان يجب أن يحتوي الخبر أني "مجهول الوالدين"، أو بالبلدي "ابن حرام"، هذا الأمر سيجلب المعجبين والمُتعاطفين مع العائلة باعتبار أن سعة قلبهم وصدرهم ستحتوي شاب مُعدم ليس له والد، وبذلك يعني عفو دون أموال أو مصلحة، ممّا سيسهّل على الشارع العام تقبل أبناء القتيل الذين عُرف عنهم السمعة السيئة.

- أعلم أنّكم حزنى للمُصاب الجلل، أمجد شاب لن يدافع عنه أحد، وبالتالي هو من ستأخذون ثأر والدكم به، أما عادل فهو ابن دار الرعاية أولاً وأخيراً، لا تنسوا أن أمكم قُتلت بسبب جماعات مرتدية لعباءات الدين، العفو عن عادل سيقلّل من حدة التوتر بينكم، وسيؤدي في النهاية إلى سمعة حسنة تُساعدكم في إكمال عمل والدكم.

بهذه العبارات تكلّل العفو، وجاءت الموافقة، حمدت الله علـــى ذلك رغم أني أصبحتُ متصدرا للعناوين "الرحمة في وجه المشـــنقة، وصورة لي وأنا ساجد لله، وأخرى وأنا احتضن أبناء القتيل.

بعد العفو كانت هُناك إجراءات يجب علي القيام بها قبل أن يتم إخلاء السبيل، رأيت أمجد جثة هامدة، وضعية الـــذهول لم تُفـــارق جسده، آه يا أمجد لو فعلت فعلتك من دون أن تورطني معك، أمامه أرخيتُ رُكبـــي وتمعّنت في أني ضحية اللسان الجميل، لسان أمجـــد الفصيح هو من أوقع بـــي بسهولة في الفـــخ، بعـــض الكلمـــات كالفخاخ إن وقعنا في طاعتها أصبحنا أسرى لها، يا الله كم كُنـــت غبيا حقاً، الآن رحل أمجد، و لم أخشى أن ينتقم مني حكـــيم، علـــي الآن أن أعود للحياة من جديد، هذه المرة من دون الدار، ودون قصر فيه غرفة لي، كيف السبيل إلى الدُّنيا من جديد...

- وعد... هيَ من ستُعيد سجينا سابقا إلى الحياة.

وحصل...

....

كان الانفجار مدوّيا، كُل شيء في المنـــزل تحـــول إلى حطـــام، المزهريات واللوحات وجدران المنـــزل لا تفرّق عن الطـــين بشـــيء سوى في لونِ سوادها الداكن، جميع النازحين توقّفـــوا وهـــم يـــرون منـــزلا كان متسيّدا الحي قبل وقت، وهو مهزوم بفعل ضربة الحرب الكُبرى، صاح الأطفال، وولولت النساء، وسارع الرجال في احصـــاء الخسائر الناجمة عنه، كان السؤال الذي انتشر في كُـــل الحـــي "مـــن مات"، هل مات العقيد سعد؟ ثمّ قال من يعرفون العائلة إن سعد غـــير موجود في المنـــزل، اذن هل تكون خديجة ووعد هما ضحيتا التفجير.

- الحرب لا تعرف النساء.

كُل التوقعات أجمعت على أن الضحيتين هما خديجة ووعد، وهذه الأشلاء تعود لهما.

- ليرحمهما الله، يبدو أنه عذاب من الله.
- لا تجوز الرحمة على أصحاب الخواتم البشعة، اللهم لا تؤاخذنا بما فعله السفهاء منّا.

واختلطت الأصوات في الحي، في غضون لحظات أجمع الكُل أن الضحيتين هما خديجة ووعد، وبات صوت الترحّم أم لا هو الطاغي على الشعب، أحد الشباب الذين كانوا يتمتعون بالثقافة كان يقول لأهله:

- ويقولون لماذا لا تنجح الشعوب في البناء والإعمار؟ كيف لشعب أن ينجح في الحياة إن كان همه مصير الأموات؟

بعض من الحُلي وجدت في مكان الانفجار، تقرّف النّاس من ما يرون، جزء لم يتحمّل فأراق القياء في الشارع العام، وصلت سيارات الإسعاف بعد وقتٍ طويل، كانت الأوامر المشددة بعدم إرسال أي سيارة إسعاف في حالِ لم يكُن الجرحى أو الأموات من منتسبي الجيش، كانت القيادة تعلم أن المنزل لا يسكنه حاليا العقيد وبالتالي تأخر الوصول، في تلك الأثناء وجد من سكّان المنطقة من أخذ يسرد الحكايات عن خديجة ووعد.

- وعد ابنة حرام!، جاءت وسعد كان يُقاتل في جبهات التحرير، لا أحد يعلم إن كانت ابنة شرعية له أم لا، ولكن الموت بالطريقة هذه دليل حاسم أنها جاءت بالباطل، خديجة تستحق ما حصل لها، فهي أخفت الحقيقة عن

زوجها، وظنت أنها ستعيش طول الحياة سالمة دون أن يعلم أحد.. آه إنها عدالة الله.

- صحيح يا جماعة، أتذكّر جيداً أن فقيرة أتت إليهم في يوم من الأيام وطردوها من المنـــزل، بعد أيام ماتت الفقيرة المســكينة من شدة الجوع والبرد، لو أنهم أطعموها وقدموا لها الملــبس لكانت حيّة، جاءهم الموت على عجل وبطريقة تجعل الأطفال يتقرّفون ويشمئزون منها، الآن لن يصلي أحد عليهما الجنازة، فمن سيصلي على بقايا جثث.. ارحمنا يا الله.
- لا تنسوا.. وعد، إنها متمردة على عاداتنا وأعرافنا، كانـــت تخرج من البيت سافرة الوجه، أرادت أن تتحدّى كُل شيء، لم تعترف بنصوص الدين ولا الشرع، وكان والدها يشجعها على ذلك، لم تستفد شيئا من دراستها ما لا ينفع، لو أنهــا قرّت في بيتها وتزوّجت لكان لها اليوم الأبناء والحياة، إن الله يُمهل ولا يُهمل يا سادة.. خذوا العبرة مما ترون.

ثم جاء صوت من بعيد، يصرخ بقوّة ويقول: "خديجة ووعـــد على قيدِ الحياة، إنهما بخير... يا أهل المدينة إنهما بخير". التفت النّاس إلى مصدر الصوت، وكان أحد الجيران، الكُل في لحظة تناقش عـــن أسباب الخاتمة السيئة، والآن يجيء رجل ليهـــدم كُـــل الشـــائعات ويُخبرهم بما لديه:

- لقد خرجت السيدة خديجة وابنتها وعد من المنـــزل قبـــل ساعة كاملة من حصول الانفجار، كانتا برفقة أبـــي علي في اتجاه الحدود، لقد قرّرت خديجة أن تغـــادر المنـــــزل وتلتحق بقوافل النازحين بعدما رأت أن في بقاءها خطورة

كبرى، ولله الحمد لو أنهما تأخرتا لكان الموت مصيرهما، أما عن من مات ولمن تعود الأشلاء فأنا لا أدري حقيقة من الذي مات، ولكن اعتادت البيوت التي ينزح عنها سكّانها أن تُسرق من مجموعة عصابات تستهدف بالتحديد هذا النوع من البيوت لكونها صيداً سهلاً، غالبا لن يعود أهل المنزل، وإن عادوا لن يسألوا عن حاجياتهم ومقتنياتهم، والأغلب أن التفجير وقع بينما كانت إحدى العصابات تنهب المنزل، ما أستطيع تأكيده أن خديجة ووعد بخير، وقد وصلهما خبر تفجير المنزل.

أصاب الذهول الرجال، لم يعرفوا ماذا يقولون، في البداية لم يصدقوا، لكن كيف يكذبون المصدر الأول للأخبار في المكان، لم يتأكدوا إلا حين رأوا بأنفسهم السيارة عائدة وفي الخلف كانت تجلس خديجة وبجانبها وعد.

عاد أبو علي لأن السيارة لم تبتعد بما فيه الكفاية عن المنزل، فعندما سمعت خديجة ووعد الخبر عبر طريق الإذاعة، فما كان منهما إلا أن عادتا لتفحص الامر عن كثب فصحيح أنهما غادرتا المنزل ولكنه يبقى منزلهما الذي به ذكريات، وعد كانت ترفض العودة إلى الحطام بينما أصرت خديجة على أن تعود أدراجها لترى بعينها، حدث مثل هذا لا يُعقل أن يفوّت، متحمّسة وخائفة في الوقت ذاته، الآن بإمكانها أن تقول للنساء اللواتي ستتعرف إليهن أن بيتها انفجر، ولكنها لم تكن فيه، وتستطيع أن تضع التفاصيل التي تضخّم من الموضوع مما سيجعلها سيدة نساء النازحات، متخوّفة أن يكون عملا مقصودا قامت به الجماعات لتخويف عائلات الجنود في جيشِ

الثورة، كانت الأخبار تقول قبل ذلــك أن الجماعــات تســعى إلى إرهاب ذوي المقاتلين لينسحبوا من مواقع القتال لحماية بيوتهم، هذا يعني أن كُل خطواتها مراقبة والهدف ليس إخافتها فقط بــل قتلــها، وعد بقتْ صامتة مُغمضة عن الواقع، تقرأ في عادل طــوال طريــق العودة إلى المنــزل المحطّم.

- تقرأين في كتاب عادل، والبلد مُشتعل؟ والمنــزل فُجّر؟
- لا يهُم يا أمي، أريد أن أقرأ.. أريد أن أنشغل عن عــالمكم هذا.
- مجنونة.
- بل عاقلة.. الجنون أن أرى الجنون.

وعد تتخيّل عادل وهو في قاعات المُحاكمة، ومن ثمّ الــبراءة، معلومات أخرى لم يكن لها القدرة على استعابها، هل الرجل المبتسم في وجهها مرات ومرات كان قاتلا لإنسان؟ لما لم يُخبرها عن هــذه القصة؟ وكيف استطاع أن يهرُب من حبل المشنقة بمعجزة كــبرى؟ والأهم لما بقي والدها صامتا يعلم عن تحرّكات عادل وقربــه منــها دون أن يتدخل لإيقاف الأمر، كانت كبرى المفاجآت أنها هي مــن بلغت على أمجد، تتذكّر الحادثة وأنها كانت سببا في إلقــاء القــبض عليه، أرادت أن لا يستخف الناس بقدراتها، فالنساء يرين لكنــهن لا يتحدثن بشيء، يظللن صامتات أمام ما يُرتكب، أرادت أن تكــون أولى نساء العاصمة ممن يبلغن عن جريمة، تتذكّر أن قيــادة الشــرطة كرمتها على حسها الوطني والمسؤولية على حد قولها، من بعــدها لم تهتم بقراءة الأخبار.. لو أنها كانت تقرأ الأخبار لعرفت أن العــادل ماهو إلا محكوم بالإعدام، لكن الظروف هي من جعلته حراً طليقــاً،

لو لم يتدخل الوالد سعد لما كان هُناك عادل في حياتها، وما كانت تقرأ هذا الكتاب الذي بين يديها الآن في وسطِ دوّامة الحرب، ربما كانت في بيتِها، لا تعلم كيف هي الحياة بدونِ حُب، إلا أنها مدركة أن الظروف ستكون أهدأ بكثير.

- آه يا وعد... اتركي الكتاب.. انظري إلى المنزل... أي منزل!.. لا شيء هُنا سوى الحطام والدخّان والبقايا.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت خديجة مصدومة ممّا ترى، لا تعلم ما قاله الناس في غيابها، كُل ما رأته سحابة ضخمة وأثر لما كان منزلاً.

- لم يبق شيء للذكرى يا وعد.
- وهل هُناك ذكرى أريدها؟ لا أريد شيئا سوى نفسي.. وبصوتٍ أقل حدة لا يُسمع "وعادل".

تجمّع النّاس ذاتهم الذين تكلّموا في غياب خديجة ووعد، كانوا يحاولون أن يرأفوا بحالها، يطبطبون على الألم الذي خلفته شظايا القدر في منزلهما، صاحوا بكلمات:

- الانفجار حدث بعد رحيلكما بساعة، لا بد أنكما من أولياء الله الصالحين، لو حدث الانفجار قبل مغادرتكما لكنتما في عداد القتلى، هذا فضل من الله تعالى منّ به عليكما.

وقال آخر:

- إنكما مُباركتان من الله، بارك الله لكما أعمالكما الخيرة التي جعلت الموت يغض النظر عنكما، إن أعمالكما الصالحة هي من جعلت القدر يستجيب لدعواتكما، ادعيا الله لنا فدعواتكما مجابة.

وبدأ السكّان يتناقلون قصصا غير التي كانت في البداية، أصبحت خديجة المارقة السيّدة المبروكة بنور من الله، ووعد تحوّلت من الفاسقة المتمردة على العادات والتقاليد إلى الابنة البارة التي لها تاريخ حافل في الصدقات وأعمال الخير.

- ألم أقل لكُم أنها بنت حلال، ووعد كانت تغدق على الفقراء بكلماتها الجميلة، حتى إنها وزعت المعاطف عليهم في الشتاء، وفي الصيف تمنحهم المياه، علينا أن نتجمع عندهما جميعا لتحلّ علينا بركة الله، أما من مات في الانفجار فهؤلاء عصابة أرأيتم كيف عصف الله بهم؟ هذه نهاية الرزق الحرام، كانوا يريدون بطمعهم أن يحصلوا على متاع الدنيا فجاء الحادث ليُنهي كل طمعهم وجشعهم، لو أنهم تأنوا المغنم الحلال لما كان ما كان.. هذا الفارق بين عباد الله المُخلصين الذين ينجون من الموت بفارق برهة، وبين الخارجين عن طاعته الذين كان جزاءهم الخزي في الدنيا، خذوا العبرة يا جماعة.

أما عند رُكام المنزل، فما زالت خديجة تحدّق إلى الخسائر، تلعب بالرمل الذي حلّ محل المنزل الآن، البقعة التي احتوت زواجها وولادتها لمرات ثلاث، صورة ولدها لم تأخذها معها، الآن مجرّد ورق محروق.. صحيح ما حال ابنها؟ يقولون إن السجون فُتحت بمناسبة الحرب وتم تجنيد جميع المساجين.

- أبو علي.. تذكّرت ابني.. هل هو في السجن، أم أن العفو الجماعي قد تم؟
- ابنك سألت عنه.. نسيتُ أن أخبرك.. هو جريح الآن في إحدى المستشفيات القريبة من مواقع القتال عند الحدود

الشرقية.. أُصيب بعدما قاتل.. تحرّيت أن إصابته من الخلف.

تعلم أن الإصابة من الخلف هي عار في قوانين الجنديّة.. هل كان في طريقه للهرب.. لم تسأل.. خشيت من الفضيحة.. بدلا عن ذلك سألت:

- وهل إصابته خطرة؟
- في منتصف الظهر، ليست خطيرة، لكن لا أعتقد أنه سيكون قادر على المشي بخط مستقيم.
- في كُل الحالات هو لا يستطيع فإدمانه أثقل ظهره.. تمتمت "لعن الله الذين اخذوا ابني منّي.. ليتني أحتضنه". نست أنها رفضت احتضانه منذ أن كان صغيرا لأنها تراه عاقا، عادت تُشغل نفسها في تقاسيم منزلها متيقنة أن لا عودة للمكان، هُو رحيل أبدي وليس مؤقت، بينما وعد وكتاب عادل في سكون عزاء، وفي جوفِها سؤال تود أن تطرحه.

وعد سألت والدها:

- ماذا لو كنّا متنا في الانفجار؟ ماذا كان ليحصُل؟ واندسّت في جيبِ والدها كأنها صبيّة صغيرة.
- أنتِ كبيرة يا وعد ماهذا الذي تقومين به؟ لكنّا خبرا في قناة.

"مُشاهدينا الأعزاء، وصلنا أنه قتل في التفجير أم وابنتها الأم خديجة وابنتها وعد، رحمهما الله ذهبت دماءهما الزكية فداء للثورة وقائدها، ستبقى الدماء الطاهرة لعنات على الإرهابيين المتمردين الذين يريدون المساس بالثورة وخطها الذي لا يحيد عن الحق،

محاولاتهم السافلة لن تُثنينا عن مهاجمة حصونهم، ومباغتتهم في حجورهم، سنثأر للنساء اللواتي ذهبنَ ضحيّة الحرب.. نعدكم يا شعب الثورة، نعدكم يا أبناء الوطن".

كان هذا الخبر على القناة الرسميّة، الإشاعات تحوّلت إلى خبر عاجل على القناة، أُصيب عادل بألم حاد جدا في قلبه، ودّ أن يكون ألما للنهاية لا ألم بعده، لم يأتهِ الموت، يرى سعد إن ما كان أمامه جثّة هامدة أم إنسان شائخ أماتته الحروب وهو لا يزال حيّا، إذن وعد ماتت.. ماتت قبله... يُعزّي من الآن؟ هل ماتت وهي راضية مرضيّة عنه؟ أم قُتلت وهي تردد: "سأقتلك". التي لازال جرسُها يُزعج عادل في منامه.

ابكِ يا عادل.. ابكِ.. فالبُكاء لن يُعيد حبيبا ولن يُحيي مفقودا، ولن يُجبّر خاطرا... ابكِ.. فالدموع لا تغسلُ الهمّ بل تعرّيه، ولا تُريّح الخاطر بل تكسره.. ولا توحّد القلب بل تمزّقه... ابكِ يا عادل.. فالبللْ هُو وجعك على هيئة سائل، والملوحة هي اختلاجات النفس المُنسكبة.. ابكِ.. فالحياة ما لها من حياة بُعيد الحُب، إن لموتِ الحبيب لوعة وسكرة، وبُعده جبروت انتظار للا واقع... يقولها في نفسه، متأثراً، لا يُريد أن يُصدّق.. ما يُشاهده هو خبر في القناة الرسميّة.. يُصيب سهما في السماء قائلاً: "يا رب... احييها من جديد... وجّه أوامرك إلى حملة عرشك أن يرسلوا ملاكاً يُعيد الروح.. إن كانت لي دعوة واحدة فقط مُستجابة.. فأجبها الآن يا رب"... يقطع بكاءه متابعا خبراً آخر من القناة الرسمية.

"نعتذر منكم.. ننفي خبر استشهاد المواطنتين.. جاءنا الخبر أن القتلى في الحادث هُم أربعة من مواطنينا الأبرار الذين كانوا يحرصون

على تفقد أحوال مواطني بلد الثورة في منازلهم، ويبدو بأن البيت أُخلي قبل وقوع الانفجار.. والآن لنا لقاء حصري مع أهل المنزل الأصليين.

- أخبرينا سيّدتي ماذا حصل في المنزل؟
- تدمّر المنزل بالكامل، لم تبقَ حتى رائحة عطره.. كُل شيء انتكس إلى حُطام.. لا أمل في أن يعود المنزل.
- ولماذا لم تكونا في المنزل لحظة وقوعه؟
- الله حفظنا... إننا على حرص مستمر بأن ندعو، ونقرأ الأذكار.. وصرخ أحدهم: "إنها وليّة"، وقال آخر: "تحيا ثورتنا المجيدة، يحيا جيشنا البطل".

تحوّل اللصوص الذين قُتلوا في الحادث، إلى أبطال في التلفزيون الرسمي، عادل عادت إليه الروح، لم يُبالِ بالصرخات أو القتلى.. وعد بخير.

- وعد بخير يا سيّد سعد... وعد وعد بخير.
- كفاكم صراخا... وأنت أيها الأخرس هل عُدت للكلام من جديد.. صرخة أخرى وسترحلان من المشفى.

الطبيب عاد إلى الغرفة، صوت عادل اخترق أجواء البلد، من عُمقِ أنفاسه قالها، ولكن هل سعد حيْ أصلا ليسمع الأنباء الأخيرة.

- سأصمت لكن أيها الطبيب رجاء أن تراجع حال السيّد سعد.

وافق الطبيب على مضض، في عجل قام بالاستماع جيدا إلى نبضات قلبه.. كان ينبض، هو حي ما من شكّ في ذلك.. ثمّ نادى الممرضة أن تأتي لتمنحه حقنة مغذية، الإرهاق والتعب نالا من سعد

لا شيء أكثر من ذلك، سيستفيق بعد دقــائق.. رحــل الطبيــب والممرضة، وبدأ سعد بالحراك... يتحسّس المكان بنظراته، يُحاول أن يستذكر ما كان حاله من قبل الدوخان.. ثمّ بدأ بالتذكر أن شيئا ما عن وعد وزوجته هو الذي جعله يصــاب بصــدمة.. رأى عــادل مُستبشرا مُبتسما.. فقال بحروف غير مفهومة..

- م ا ذا ا!؟؟

- لا أعلم ما تقول يا سعد، لكن ابشــر إن وعــد بخــير.. وخديجة أيضا.. لقد ظهرت زوجتك على التلفــاز قبــل قليل.. استرح الآن.

استراح سعد... بقيَ على حاله ليومين في الفراش... لم يستيقظ إلا ووعد وخديجة وعادل معا.. هُم في غرفة واحدة.. من أين جاءت وعد؟ وعد وعادل يلتقيان... يا الله ما أدق مواعيد القدر!.

....

- تم قبولك يا سيّد عادل في الصحيفة، وستبدأ العمل بشكل رسمي منذ الغد.

استبشر وجهي كإنغلاق قوس قزحٍ على يابسة من بعدِ مطــر، أخيرا من بعدِ المُعاناة جاء القبول في الصحيفة، واستطاع مــا ظننتــه عبثا ورفاهية أن يمنحني الوظيفة التي كُنت أبتغيها، بعد رحلة طويلــة في الأمكنة فهذه المرة أريد عملاً حقيقياً لا نادلاً وهميّاً في مطعم.

كانت الرحلة ما بين السجن والعمل صعبة، في بدايــة الأيــام شرّدت إلى الشارع، لم أشأ أن ألاقي السيّد ســعد أبــداً، أردتُ أن أعتمد على نفسي، سبب آخر دفعني إلى ذلك هو خوفي من أن تريني على هذه الحال، فتى كان مسجونا لعام، وبالكاد أُنقذ من الإعــدام،

مُعدم الحال، ثياب رثّة زرقاء، وشعر منكوش لم يرتّب لزمن، كيف لفتاة تعد ابنة لسعد أن تقبل به حبيباً!؟ سألت نفسي ماذا تحب النساء في الرجل أن يكون؟ فعلمت أن الكلمة هيَ من تُسقط النساء على حلبة الحُب، هيَ من تجعلهن ينسين أكنتُ ابناً للحرام أم ابناً لأمير، النساء يتدافعن نحو الكتّاب والشعراء والأدباء خاضعات لجلالة القلم، في البداية عشتُ مشتتا في الشارع أقول أبيات الشعر للمارّة، أحصل على بعض الأموال التي كانت تكفي لوجبة واحدة في اليوم، بعدها شاركتُ مع أحد أصحاب دور النشر للاصدارات الشعرية في أمسيات تقاضيت عليها ما يكفي لشراء غطاء يحميني من الشتاء، أثناء البقاء في الشارع واجهتُ ما واجهت عندما كُنت صغيراً من إيماءات وحركات، وإشارات محاولة أن ترى فيّ مسكّنا لصداعِ الشهوة، كُنت أمثّل الصلاة أمامهم حتى يذهبون، هذا الفتى المصلّي في الشارع ليس هو الغنيمة المُناسبة، يرحلون ويجدون بسهولة من دفعَ الشرف لأجلِ العيش.

- هُناك وظائف.. يريدون فقط من يملك القلم.
- أنا لدي قلم.

في السجن استثمرتُ وقتي بالقراءة والكتابة، وتسجيل الخواطر في ما يُشبه الورق، عام كامل من الانخراط في الأدب، من الصعب البقاء أكثر في الشارع، دار الرعاية رفض أن يأويني مرة أخرى، العائق في الحصول على وظيفة هو لفظ السجين السابق، بالإضافة إلى أن هُناك من تعرّف على صورتي من خلال الجرائد السابقة، ما من حل إلا أن أعمل على إعادة هيكلة ملامح وجهي مرة أخرى.

- أيها الحلاّق، أريد تسريحة جديدة.. تُشبه شعر قائد الثورة.

- أحسنت الاختيار.. لكَ هذا مع أنه مكلف.. لكـــن لمــاذا تريدها؟
- لأحصل على وظيفة.
- وهل تعدني أن تمنحني وظيفة، إن حصلت علـــى وظيفـــة بسبب حلاقتي؟
- وعد!!.

في ذات التوقيت كان من المهم التشبّه بقائد الثورة المجيـــد، في المصطلحات التي يستخدمها، طريقة إلقاء الكلمـــات، النكـــات... المواقف المُحزنة.. حتى طريقة المشي وتصـــفيف الشـــعر، أردتُ أن أحرج من سيوظفني لكي لا يقول إنه طرد شابا شبيهاً بالقائد.

في اليوم الأول للعمل في الصحيفة كلّفت بمهمة تغطية أحداث الطلاب والطالبات سواء أكانوا في مرحلة الثانويـــة أو الجامعـــات، وجدتها فرصة للتقرّب من العالم الحقيقي، العالم الوســـطي لا أبنـــاء القصور، ولا القادمين من ترسّبات الدور، ذهبتُ إلى مدرسة ثانويـــة للبنات فصُدمت لما رأيت.

كانت مدرسة جميلة، صفوف نظيفة، طالبات مُشرقات، لا أثر لأي وسخ في المكان، عبارات تحث على طلب العلم من المهد للحد، مررتُ في الممرّات أرى رائحة العلم في الزوايا.

- يا بنت الحرام!... تعالي.
- ههههههه دعوها الق...

كُدت أن أتدخّل، أقول شيئاً لهن، أوضح كيف لهن أن يتنابزن بالعبارات ولكن من أنا لأتكلم، عليّ فقط أن أرى ولا أنطق بشيء، لو تكلّمت لذكروني بالماضي ولنبشوا فيه القصص والقصص، كمـــا

أني قاتل، ذلك يعني وصولي لأعلى مراتب الحرام والفسق، فهل أعظ طالبات العلم؟ قرأت في كتبـي وسط السجن عن أخلاق طالـب العلم، المثاليّة... التواضع في الأخلاق.. والدروس التي يقدّمها فـلا تفرّق بين طالب ومعلّمه.. مجدّدا ذكرتُ نفسي أنني سجين سـابق ومُعدم، والوظيفة هي آخر الخيوط التي تربطني بالدنيا، هل من سجين غيري يفكّر في المثاليّات؟

– أهلا بك.. هل أنت الصحافي الذي سيغطي الندوة اليوم؟
– نعم أنا.

كانت المهمة الأولى في بيئة العمل، الوضع اختلـف، لم أكـن خائفا من تحرّشات أبـي سامي، أو من لعنات أحد فقد خرجتُ من سيّارة تابعة للصحيفة لا من حافلة الدار، هُنا لن يشتمني أحد لأنهـم لا يعلمون خلفيّتي، ولن يهتموا إن كنت بالأمس في الشارع أشـحذ المال لأبقى، أو كُنت على أبـواب المـوت، الترحيـب والحفـاوة والابتسام هو كل ما أراه.. كيف تغيّرت الحياة في وجهي لتُصـبح مبتسمة؟ أيعقل أن العمل يغيّر كل هذا؟

– اشرب القهوة يا سيّد عادل، هذه أوراق الجدول المخصص للفعالية، مدير المحافظة لشؤون التعليم سيحضر الاحتفاليـة السنوية للمدرسة، قل لي هل تحتاج شيئا أيضا؟

من كان ليقول لي هل تحتاج شيئا؟ بالأمس القريـب كـانوا يقولون كفى لا تقل شيئا، شعرت بتوتري، لا تزال آثار الخجـل في لساني فلم أستطع أن أناقشها بشيء، ربما المرة الأولى التي ترى فيهـا صحافياً صامتاً لا يُشاركها الحديث بعكس الكثير منهم الذين ما إن يأتوا إلى مكان حتى يبدأ مسلسل الحـوارات والكلمـات، ألـيس

الصحافي هو سيّد الكلمة؟ كما قال لي مدير تحرير الصحيفة والـذي أراني هذه العبارة المكتوبة على جدران مكتبه.

ذهبتُ وجلست في الصف الأول للأمسية بجانب مديرة المدرسة، ومدير المحافظة للشؤون التعليمية، ورأيت التصفيق من كُل جانب بعد كل فقرة من فقرات الاحتفال، كان في القاعة عدد كبير من الفتيات يقدّمن العروض الموسيقيّة، ثمّ جاءت واحدة وتحدّثت عن أفضال الثورة ومآثر المُجاهدين في تحرير البلد من الاستعمار الأجنبي، وأخرى ألقت قصيدة ختمتها (أدام الله شعبكَ يا وطني.. أدام الله أبناء الحلال) وحلّ التصفيق من كُل زاوية، وأنا بدفتري أكتُب كُل كلمة، وأسجل الحدث ليكون موضوعي الأول في عدد الغد.

- الآن نرجو منك يا سيّدي أن تُقابل مدير المحافظة لأخذ بعض التصريحات، من بعد لقاءك سنقوم بالصورة التذكاريّة.
- حسنا لن يدوم اللقاء أكثر عن دقيقتين.
- أهلا سيّدي المدير، لي سؤال واحد فقط، كيف رأيت الاحتفال اليوم؟
- هذا الاحتفال دليل على الطفرة التعليمية التي تشهدها البلاد، خاصة أن التعليم اليوم يحظى بأولوية كُبرى، ونحن ندعم جميع المواهب وقد رأينا كماً هائلاً منهم اليوم.
- لكن يا سيّدي، سمعتُ اليوم بعض من الشتائم تُقال في المدرسة، أليس من المفروض أن تُعلّم الأخلاق؟
- يا أخي، المطلوب مني التصريح عن رأيي في الاحتفال، لا أسئلة.. اذهب.. اذهب حفظك الله ورزقك الله من حلاله.

شاركتُ في الصورة التذكارية.. حلال حلال.. أين سمعت ذلك؟ مؤمن إن علموا خلفيتي الاجتماعية لما كُنت متوسّطاً الصورة كشخصية كُبرى، لم أخف من أن يُلاحظ أحد أن الفتى الذي كان يسجد لله بعد أن تم العفو عنه، يُشارك أكتاف مدير المحافظة التعليمي. وجهي متغير بحيث لا يدع مجالاً للشك أننا الشخص نفسه.. يا للسخافة!.

عُدت إلى مقر الصحيفة، كتبتُ الخبر كاملا مع الصورة، كانت هُناك إشكاليّة وحيدة.

- لماذا وضعت اسمك عادل؟ هُناك الملايين يدعون عادل.. ضع اسم والدك والقبيلة يا زميل.

لم يكُن المسؤول عن الصحيفة يعلم أنني لقيط، بكُل تلقائية طلب مني شيئاً حسب أنه في غاية السهولة، الوحيد الذي كان يعلم هو رئيس الصحيفة أما الزملاء الآخرين فحسبوا أنني مثلهم، شاب من عائلة متوسطة الحال والتحقت بالصحيفة.

- طيّب أنا خجول.. ألا ينفع أن يصدر الخبر بإسمي عادل فقط.. سألته وتحجّجت بالخجل.

- من لا يُريد أن يُذكر اسمه رفقة الخبر... هيّا يجب أن تكتبه.

لم أعلم ماذا أكتُب، في حيرة بالغة فالإنسان الذي تبنّى وجودي في الحياة قتلته، ولا أعرف أقارب لأُنسب لهُم، حتى اسمي في بطاقتي الثبوتيّة لا أريده أن يكون على الخبر مخافة أن يُكشف التطابق ما بين اسمي ومن يعرف دهاليز القضيّة في المحكمة.. احترتُ ثم كتبتُ الاسم.

- هذا اسمي الثنائي يا زميل... عادل وعد!.

رأيتُ في الزميل غرابة، وعد؟ أليس اسماً أنثويّا؟ ملامح وجهه تشي بذلك، لم يقُل شيئاً واكتفى بالابتسامة.

إنّ انتسابنا لمن نُحب أعمق من انتسابنا من يُشاركنا فصيلة الدم، انتسبتُ إليك يا وعد، وكذبتُ في مسوّغاتي وأنا أقول أن اسمي الثاني الغريب هو لاختلاف التقاليد ما بين مدينتي ومدينتك، لا أريد أن يكون لي اسماً غيرُك بجانبي، كما اعتدنا أن نكون جانب بعضنا بعضا.. رأيتُ في اليوم التالي العدد ونزل الخبر باسمي *عادل وعد*، أعلم أن جميعهم قرأوا الخبر دون أن ينتبهوا إلى المسمى، أو انتبهوا عليه غير آبهين، وهل يهمّ العالم حُب ليس بحُبّهم؟ إننا نهتم في حقيقة الأمر بما يعنينا نحن، بما يحتوينا نحن، بالحُب الذي يعذّبنا ويخلّدنا في نعيم الجنّة، الوجه الذي تراه كُل يوم قد يكون وجها آخر يعني كُل الحياة لآخر، آه لو كتبتُ أحبّكِ مع الخبر.

- أود تغطية المدرسة الثانوية في العاصمة، لديهم غداً فعاليّة.
- لكَ ذلك.

وصلتُ إلى ما يهمّني أخيراً، بعد جولات في المدارس طلبتُ من مدير القسم الموافقة على حضور الفعاليّة، كُنت أعلم أنكِ مُشاركة، وكُنت أود أن ألتقيكِ هذه المرة بلا عُقد، قبل اليوم المنتظر جهّزت نفسي جيداً، حلقت لحيتي بالكامل، تعطّرت بعطرٍ يسبح في الهواء لساعات، عدّلت من هندامي، وقرأتُ جيداً بعض الاقتباسات التي من شأنها أن تقعي بي عشيقة، لكن في ذات اليوم وأنا بمقر الجريدة حدث ما لم يكن على بال، ثوانٍ قبل أن أغلق حاسوبي.

- أوووه أهلا بعادل... ألم تعرفني جيداً؟

كان ذاك مُراد ابن العجوز القتيل، غريب أن يكون أمامي ابــن من قتلته بيدي، يا الله هُو مبتسم، لا يُبد أي نوع مــن الكراهيــة، يا لهذه الدنيا ملامح البذخ والإسراف واضــحة، يبــدو أن أمــوال العجوز تُبدّد على الرفاهية.

- نعم أهلا بك. كنت في غاية الإرتباك لأني أراه في مكــان عملي.. أول ما خطر على بالي أنه رأى اسمــي في ملحــق الجريدة، ويريد أن يوقفني عن العمل، لابد أن الابن يطمح في ذلك، صحيح أنه عفى عني ولكن لن يتحمّل أن يــرى اسمي كُل صباح... لكن كيف عرف أصلا أنــني نفــس العادل؟ اسمي وهيئتي تغيرا تماماً. الأثرياء لهــم معــارفهم وجاههم الذي يجعلهم يتوصلون إليك.. لما أنا أسأل أسئلة معروفة إجاباتها سلفاً.
- قد تسأل لما أنا هُنا، لدي حوار اليوم مع رئيس التحرير في الجريدة حول موضوع ترشحي لانتخابات مجلس الشعب، تعلم أن الانتخابات على الأبــواب، ولأن لي اهتمامــات سياسيّة، ومن مُنطلق حبّي للوطن عليّ أن أرشح نفســي، ولأن لي فضل عليك فأود أن يكون لك تصريح مقتضــب ضمن الحوار، تُخبر الناس أنك بالرغم من قتلك وجريمتك الشنعاء بحق والدي، إلا أنني عطفت عليك ورأفت بــك، عليك أن تقول ما نصه "إن حالك اليوم هو بفضل الحنكة والحكمة الخيّرة، ويد التسامح التي مــددتُها للجميــع"... بالطبع أنت موافق!.
- نعم موافق!.

ليس لي خيار، اشترطتُ شرطاً واحداً، أن لا يُنشر في الخبر شيء عن اسمي وشكلي، ولا أن يعرف زملائي في الجريدة أنني المقصود "بالقاتل الذي عفوت عنه وأصبح صحافياً ويعيش حياة عادية"، لا أريدهم أن يعرفوا أني مجرم، والأهم أن لا يعرفوا أني لقيط، هذا المكان قد يحترمك ويقدّرك إن كُنت أكبر مُجرم، لكنّهم سيدوسون كرامتك ويحقّرونك إن لم تكُن ابن حلال، لستُ مستعداً لخسارة مكانتي الوظيفية التي حصدتها في الشهور الماضية، رفضي للطلب كان سيعني أن مُراد سيستخدم ما لديه من نفوذ لإبعادي عن الوظيفة، أيضا لن استغرب إن فضحني وبالتالي سيقضي على كُل احتمالات العودة، ما من كرامة لي، الكرامة أُعدمت مُباشرة بعد أن عفى عني، أنا الآن أسير طلباته، اللهم لا تجعله يطلب كثيراً.

جلستُ في غرفة مخصصة للمقابلات المهمة التي تجمع رئيس التحرير والشخصيّات المهمة، استمعت لما يدور في الحوار.

- لماذا ترشحت للانتخابات؟
- الوطن بحاجة إلى الشخصيّات الوطنية، وفي الواقع لم أكن أنوي أن أشارك في انتخابات مجلس الشعب ولكن هُناك من نصحني ودفعني لخوضها، الثورة تحتاج إلى مجلس شعب ثوري قوي يساعد على البناء والتعمير، ونحن بحاجة ماسة إلى تفعيل المؤسسات المدنيّة، إن والدي رجل أعمال صاحب سيرة عطرة وورثنا منه الكثير من الصفات الحميدة، كان دائماً يطلب منّا أن نذهب إلى السوق ونختلط بالناس بشكل مُباشر وينهانا عن التكبر أو الإسراف والبذخ.

نظرت اليه مستغرباً، فالبذخ فاضح على بدلته الــتي تســاوي ثلاثين ألف دولار، والساعة، وخاتم الزواج، وربطة العنق، وعن أي والد يتحدّث، وأنا ما رأيته أبداً عند أبيه، أول مرة رأيته في قاعــات المُحاكمة.. سحقاً لمراد.

- بمناسبة الحديث عن والدك، سمعنا الخبر جميعاً عن العفو.. ما أسباب العفو؟
- إن الله يُحب كل عفو.. والله العفو الغفور فكيف لنــا أن نُخالف له أمراً.

ثم قلّب الورقة التي كُتبت عليها الإجابات سلفا باتفاق مســبقا ما بين رئيس التحرير ومُراد.. وبعد صمت التقليب ذهب وأكمــل كلامه...

ومن مُنطلق شريعتنا الإسلامية وسيرة الرسول المصطفى صـــلى الله عليه وسلّم كان منّا أن عفونا عن قاتل الوالد، في لفتة لوجــه الله تعالى، لا نبتغي منها منصباً، أو جاهاً، أو مالاً... وكرّرها مرة أخرى لوجه الله تعالى فقط.

ابتسمتُ سخرية.. لوجه الله، وأبو سامي كان في كُــل مــرة يتحدث عن ابنه مراد وما يقوم به من فضائح في مراقص أوروبــا... الآن لوجه الله!.. ما أجمله وهو يلبس ثياب التقي الــورع.. آه مــن زمن يُلبس فيه الدين كثياب، لا الدين يلبسُنا كأخلاق... وتابعــت الاستماع.

- وهل هناك من شيء إضافي حول ما قمتم به من عفو؟
- نعم إن الشاب الذي عفونا عنه، أصبح اليوم صــحافياً في إحدى الجرائد، وكما يعلم الكُل وأقولها للتذكير أن هــذا

الشاب ليس له عائلة، هو لقيط، ولأنـــني أحـــب الـــوطن وأبناءه أكانوا من بني القبائل أو مجهولي الوالدين حرصـــتُ على الالتقاء به، والاطمئنان على حالته، فمـــن لا يـــرحم الناس لن يرحمه الله... أنهى الجُملة وعاد بنظراته إلى رئيس التحرير.. لم يذكر جملة إجابة خارجة من الورقة.. كُـــل شيء معد.

ثُم قُلت ما قُلته من مُنافقات.. مُجـــاملات.. دعـــوات لله أن يوفقه في مجلس الشعب.. وخرجتُ من الغرفة، وألقيتُ كُل أفكـــار مراد جانبا.. ليقول ما يقول.. لأقول ما أقول.. لن يُغيّر شيئا إن فاز أو خسر.. نمتُ في شقّتي البسيطة، وعانقني الصـــباح.. بـــالطريق.. باتجاه وعد.. إلى الحُب سرْ...

....

أخيراً، يلتقيان في غرفةِ المُستشفى، كرويّة الأرض استحالت إلى بساط يحوي قلبيهما، هي مُرتدية بنطالها الأزرق، متوشّـــحة بلـــونٍ عنّابـــي، ويغطّي نصف شعرِها إيشارب، هُو بلباسِ المرضى يتقوقـــع على نفسه، لا يصدّق ما يرى، هل هيَ فعلا، أم أن علامات المـــرض فتكتْ به فأصبح ما يراه كسراب عند الاقتراب منه يختفي.

هيَ هواء تغلغل في بقايا نفسه، والآن أمامه، تُطالعه، في عينيها دمعة، محزون وجهها، نحل جسدها كثيراً عن آخر مرة رآهـــا فيـــه، خشي أن يمد يده فينقشع الخيال، لو كانت خيالاً لمـــات فجـــأة.. خشي أن يكون الموت قد حان وما يراه سوى احتضار ذكريـــات.. أليس المحتضر يغرق في محيطات ذكراه قبل أن يسلّم الروح، ماعـــاد الصمتُ يفيده.

- وعد؟.. بصوت مُرتجف، حائر.. يشكُّ في نفسه.
- نعم أنا يا عادل.

أخيراً حرك سعد الذي وقع في غيبوبة طويلـــة جفنـــه، سمـــع الصوت الذي ما إن يهبط على مكان حتى ينهض من مكانه، صوتها دواء المحرومين، صوتُها شربة العطشين في صحاري المرض، نبرتُهـــا عجّلت من إفاقة المشفى، التصدّعات في الجدران تبدّلت إلى خيـــوطٍ وردية مثل هديّة مغلّفة، هذا الصوت الذي صام عنه لفترة لا يعملها إلا الله، في غيابِها كان يستجمع صوتها من مسجّلات عقلـــه، أأأأأخ منها كيف لصوتٍ واحد أن يُحيي ورود القلب بعد ذبولها؟.

....

- سنذهب إلى المشفى يا أمي.
- ماذا تقولين يا وعد؟

سأمت وعد من حالِ الحرب، بعد أن رأت المنـــزل قرّرت أن لا تهرب، لا يمكن لها أن تتراجع، الموت كان سيجيئها في بيتها فلما الهرب من الأجل المحتوم؟ الحرب ستصل إلى منافذ الحدود، حينها لن يُنجيها أحد من طوفانِ المتمردّين، لن تسمتع لأمها خديجـــة.. أمهـــا تملك شهوة الحياة، انسدّت دواخِلها، لا شيء يُغري في الأيام.

- أمّي سنذهب إلى المشفى الذي به والدي، أريـــد أن أراه، وسنبقى هناك معه.. إما أن نموت معا أو نحيا معا.
- هل تعتقدين أن والدك سيريحه أن تموتي معه، أم تعتقدين أن المقاتلين سيرحمون فتاة شابة؟ لابد أن كتاب عادل أصابكِ بالمرض والجنون.. كفّي عن هذه الأفكار وهيّا بنـــا مـــع أبـــي علي.

كان المشهد رهيباً، آلاف النّاس يواصلون النفير إلى الجوار، آخر الأخبار أشارت إلى تقهقر كبير لقوات الجيش الثوري، وتقدّم للمتمرّدين، المناطق التي سيطرت عليها قوى التمرّد اقتربتْ، يقولون الآن: "من لم يمت في الحرب سيموت سعيا للحياة"، أبو علي من جديد ينادي عليهما بأن يركبا السيّارة فالمكان خطير ولا يأمن أن يبقى أحد، الوقت ضيّق ولا يتسع لمناقشات، المدينة تناقلت كذلك أخباراً عن وجود جواسيس في المكان، يسترقون أخبار السكّان خاصة الذين لديهم أقارب في الجيش، يتتبّعون خطواتهم، الوضع خطير فربّما أحد العملاء بينهم ويراقبهما.

- وما أدراكِ أن أبا علي ليس بعميل للمتمردين؟ لا أحد يعلم.
- كيف يكون عميلاً وهو من كان معنا، ولولا نقله لنا بسيّارته لكنّا وجبة دسمة للانفجار؟

حلّ عليها شلل، أرادت أن تتكلّم أكثر، أبو علي ربّما طُعم زرعه المتمردون بينهم ليكون الموت الحقيقي منه، الانفجار لتطمئن قلوبنا عليه أكثر، صوتٌ آخر حذّرها أن تفقد إيماها بمن حولها، بدتْ أنها كافرة بالنّاس، في الحروب الكُل متّهم لحين أن تُثبت براءته.. لا براءة كاملة في الحروب صاحتْ.

- لن أتزحزح... سأبقى ثابتة... والله ما من رحيل يا أمي!.

سمعها أبو علي... كان شخصا بسيطا، لا يخاف منه بُرعم صغير، يحتفظ بزيّه التقليدي، أيام حرب التحرير كان ممّن انشغلوا بتقديم الطعام والأسرّة للجنود، لا يعرف كيف يحمل السلاح أو هو يعرف لكن لا يُريد، لم يسأل أحد لما لا يُشارك في الحروب، كان

ذلك لا يهم لشخص لم يسبب الضرر لهُم يوماً، اقترب من وعد يقول.

- يا وعد، هل تشكّين بي أم ماذا؟ أنا رجُل مسكين بسيط، أعلم أن الدمار الذي حلّ بكما كبير، وأتفهم جيدا الحال النفسية الصعبة، هيّا تعالي معي.

لم تقتنع وعد بما يقول، شيء ما ينهاها عن الاستجابة للطلب، أرادت أن تختبره، فقالت:

- لعن الله المتمردين.. هؤلاء حتما أبناء حرام!.

في عُرف المدينة لا شتيمة أكبر من النعت بهذه الصفة، كان أبو علي يتجنّب أي حوار مع الأهالي عنهم، لاحظت وعد النقطة فأرادت من خلال عبارتها أن ترى ردة فعله.

- بل أنتِ بنت الحرام!.. ثمّ هاجم خديجة ووضع يده على عنقها مهدداً أنه سيخنقها إن اقترب أحد منها.

صدقت وعد!.. أبو علي لم يتحمل الإهانة وفقد صوابه، انكشف انه عميل لهؤلاء، أو موالٍ متعاطف على الأقل، ماذا تعمل ووالدتها تستغيث منه.

قام الأهالي بالتراجع قليلاً، أحد السكّان المعروف عنهم باقتناص الأهداف البعيدة صعد على سطحِ مبنى، لم يره أبو علي لتركيزه على الأهالي الذين أمامه... لا إله إلا الله.. سقط أبو علي برصاصة جاءت في رأسه مُباشرة، بينما ولّت خديجة من بين يديه تركض إلى وعد التي احتضنتها سريعاً، حصل كُل ذلك في دقائق، البلد كلّه يحمل السلاح بسبب الحرب، أبو علي بقي يقاوم غرغرات النهاية، وماتَ سريعا متطيّبا بالدماء، لا أحد يأمن ما يحُل بالبلاد حقاً. فأبو علي

الرجل الهادئ البسيط هو من كان يحاول أن يقتلهما، إحساس وعد يُصيب مرة جديدة، خديجة شاهدت الموت بأم عينيها، والآن سلّمت أن ترتضي بقرار وعد.

- حمدا لله على سلامتي، لم أتوقع أن يكون أبو علي كذلك وهو من كان جاراً لنا لسنوات طويلة، كيف جاءك الإحساس؟
- الهادئون هُم أول من أخشاهم، أبو علي هدوءه مريب، دوماً يدعو الناس للخروج من المنطقة بدعوى الأمان ولكن في كُل المرات لم يتحدّث عن المتمردين والسياسة، كان يحذر من وصولهم من غير أن يُظهر كراهية، وإن أظهرها فهي بشكل خجول، بصراحة رأيته مُبتسماً أثناء صدمتنا ونحن ذهول بآثار المنزل، توقّعت منه أن يبكي، لا أن يوزّع ابتسامات من طرف عينيه، الرجل كان يُخفي الكثير، والآن تخلصنا من كوبرا فتّاكة.

المُشكلة لا أحد سوى أبي علي سيرحّلهم إلى الحدود، باكتشاف أمره لم يعد هناك أحد، راحت خديجة تطلب المساعدة من بعض المارّة أو المستعدين للرحيل، جميعهم رفضوا أن يستقبلوا خديجة معهم في الرحلة لأن الكُل يعلم أنها زوجة العقيد الذي تفجّر منزله، ولأنهم يعلمون أنها نجت بالكاد من محاولة قتل قبل وقتٍ بسيط، القبول بذلك يعني التعرض لتهديد مُحتمل، السكّان بسطاء لا يتحمّلون أعباء أخرى من شأنها تهديد حياتهم.

- أمي ألم تثقي بي.
- بلى.. أثق بكِ يا وعد الآن.. لكن كُنت أبحث عن من يقلنا إلى المشفى.

- لا داعي لطلب المساعدة من النّاس.. طأطأت رأسها إلى الأسفل، وأكملت "النّاس لن يُساعدوك لأنك تشكلين خطراً عليهم، علينا أن نمشي إلى المشفى لا يوجد حل آخر... علّمني عادل أن الحق لا يحلُّ على الناس ضيفا، الحق نحنُ من نحج إليه.
- يا ابنتي.. وأصبح في لسانكِ حكمة.. ومن عادل ليعلّمك.." لا نعلم حقيقته"..."ظنت وعد أن أمها تقصد بالحقيقة كذبه من صدقه، لم تعلم أنها تقصد شيئاً آخر سيشكْل لها مفاجأة مدوّية".
- اذن هيّا لنمشي.

الوصول إلى المشفى ليس بالسهل، يحتاج المرور على عدّة نقاط تفتيش، للمرور السريع يجب أن تدفع المال للتخلص من الإجراءات المُعقْدة، جاءت خديجة بورقة، طلبت من ابنتها أن تحدّد هي مسار الخطة، عجيب تحوّلت خديجة من الأم صاحبة الكلمة الواحدة، إلى أم تراعي حق ابنتها في المشورة.

الخطة تقتضي بأن يتم الذهاب بالحافلة إلى منطقة الصلايد وهي منطقة معروف عنها أنها مركز الحافلات في البلاد، كُل الحافلات تذهب إلى هناك للتزوّد بالوقود، المال الذي يملكانه يكفي أن يجعلهما تذهبان من المنطقة ومن خلال سيّارة إلى المنطقة العسكريّة، تحمل خديجة بطاقة سعد التي تثبت أنها زوجة لعسكري، ومن هُناك ستذهبان إلى الطريق.

الأمر لم يكُن في بساطة الطريق، المُشكلة أن عليهما المرور بمنطقة من المعروف أنها تحت سيطرة المتمرّدين.

- لن يفتّشوا النساء، سيكون ذلك عيباً كبيراً عليهم.
- كُل شيء متوقع أن يحدُث.

ذهبتا في الحافلة، ووصلتا إلى المنطقة، من هُناك اقنعتا سائقاً من خلال المال بالذهاب إلى المنطقة العسكريّة، لا يزال هناك أناس يخاطرون بحياتهم من أجل المال، في الطريق كانت هناك النقطة التفتيشية الخاصة بالمتمرّدين.

- ما صلة القرابة بين النساء وبينك أيها السائق.

كان شعره كثيفاً، يبدو أنه لا يحلق اللحية، غُبار كبير في ملابسه ويحمل البندقيّة بيساره، بجواره زميله، لا تكاد ترى إلا سنّا واحداً منه، في صدرِهما شعار "لأجلكَ يا الله"، لم تقدر أن تهمس "الله يحُب الجمال، وهما لأجل الله ربّما لم يستحمّا منذ شهور طويلة"، مع ذلك كُانت في خوف شديد أن يُكشف أمرها.

قبلها بساعة مرّت السيّارة التي تقلّهما على حاجز حدودي تابع لجيشِ الثورة، الوضع مُشابه فالجنود مُتعبين، في بال وعد تساؤلات إن كان هناك داعي حقيقي للحرب، كل من جيش الثورة والمتمردين يحمل اسم الله على صدره، وكلاهما يتحدّثان باللغة نفسها مع اختلاف اللهجات، يصوّبون بنادقهم تجاه الآخرين، في قرارة نفسها مُنحازة لجيش الثورة وإن لم تكن مؤمنة بقائده، هؤلاء أهل مدينتها يحاربون.. ماذا سنجني من الحرب؟ تبخّرت التساؤلات بكلمة المتمرّد.

- ما هذا الكتاب الذي تحملينه يا أختي؟
- إنها رواية.
- أعوذ بالله من الروايات، إنها شر مستطير، خذي كتاب الله واقرئيه فمنهُ الهُدى والفلاح، أما الروايات وأنتِ في حرب

لا تأمنين الحياة فيها فهو ضلال مُبين.

أليس هذا ما قاله الجندي في جيش الثورة، كلاهما حذّراها من الروايات، ضحكتْ من الداخل، من الأولى تحذيري من القتل والحرب والانفجارات، الضلال في الحرب هذه وليس في كتابات مسكينة، لولا أن الجندي يخزها بنظراته لقرّبت رواية عادل من قلبها محتضنة إياها، حسنا، هداني الله وإيّاك، رافقتكم السلامة قال الذي لم يستحم.

وعد كانت تتوقّع أن ترى والدها بعد ساعات قليلة، أبدا لم يدُر في بالها أن يكون عادل إلى جانبه، حسبتْ أن عادل في مشفى آخر، صحيح أين هو؟ هل نزح بسبب الحرب وترك مشفاه، أم مات بمرضه، عاد العبوس إلى نفسها مرّة أخرى، لم تتبق سوى صفحات قليلة وينتهي كتاب عادل، الآن هو قال كُل شيء، الآن تأكدت أني ما عرفتُ عنه إلا اسمه، حتى اسمه ما دريتُ أنه مُستعار، تغوص السيّارة في الطرقات... صحاري شاسعة.. دبّابات محروقة، اشلاء شرية... حيوانات نائمة... لا ماء.. الشمس تتآمر ضدّهم.. لا بد أن هذا المكان شهد معارك ضارية ما بين الجيش والتمرّد، لم يبقَ سوى ظلال الحياة.

- أتذكر هذا المكان ذهبنا إليه أنا ووالدك، كان المكان مزدانا بالأشجار الخضراء، بدل هذه الأعشاب القاحلة (وأشارت إلى مجموعة من الأعشاب الميّتة)، حديقة كبيرة تُعد من أجمل الحدائق في البلاد، (ثمّ حولت اتجاه نظرها إلى الجهة اليسرى)، وهذه الصحراء التي تظنينها صحراء كانت من أكثر الأماكن خُضرة، الجميع قصد المكان للاستجمام، "ترينَ الدبّابة المُحترقة" صحيح؟

- نعم إنها دبّابة محروقة بالكامل... كيف احترقت؟
- لا يهُم كيف... لكن كانت هُنا مدينة ملاهــي كــبيرة، كُنتِ معنا ذات مرة... يبدو أنكِ لا تذكرين.. لكن كان مكاناً جميلاً جدّاً.. والدكِ حين كان مديراً لــدار الرعايــة كان يأتي بعادل إلى هنا.
- ماذا!!.. عادل!!..

ماذا عادل؟ أنا قُلت عادل!؟ تغيّر وجه خديجة، شعرت بخــوف شديد طغى على خوفها من الموت، فقدت السيطرة على كلماتهــا، وبدأت بالبوح بما تخشى أن تقول.. السر يجب أن يبقى مُــدرجا في صندوق كتمانها، حينها عمدت إلى تغيير الموضوع.

- وماذا سنفعل إن التقينا بوالدك.
- لا أعلم ولكن أريد أن أعرف لما ذهب والدي من دون أن يودعني، موجوعة منه، ليته احتضنني قبل أن يذهب، كُل ما يُشغل بالي أن نلقاه فعلا في المشفى وأن لا يكون نُقــل إلى مشفى آخر.. أخشى كثيرا عليه من هــؤلاء الأطبــاء، لا يحتاجونه في شيء، من الوارد جداً أن يتم إخراجــه مــن المشفى بحجّة التضحية لأجل حُب الثورة، مغفّل والــدي سيستجيب بسهولة، وسيبقى على كُرسي خارج المشفى.
- ارتفع صوت الأخبار مــن المــذياع، "نــــزفُّ إلــيكم البشرى.. نــزف إليكم البشرى... بســم الله الــرحمن الرحيم.. فإذا جاء نصر الله والفتح... إن نصر الله جاء إلى بلادنا وثورتنا.. قائد الثورة يُعلن أنه قد دحر أوكار التمرد جميعها، وعادت البلاد إلى ما كانت عليه، لا يوجد فيهــا

من يعكّر صفوها ولا أمنها.. أيها الشعب العظيم اخرجوا للاحتفال في كُل مناطق الجمهوريّة، فالبلد اليوم لا يوجد فيه متمرّد واحد، وبمناسبة النصر العظيم نهنئكم جميعاً، ونثمّن دعمكم الكبير لاستمرار الثورة في معاركها ضد التمرد الجبان.. لقد بان الحق.. وانتصرنا.. الله أكبر".

- هذا دليل على خسارتنا للحرب، قالها السائق وبدا عليه التجهّم الشديد.
- لماذا تقول هذا الكلام.. سألت وعد بسذاجة.
- لأن النصر لا يُعلن إلا في حالات اليأس الشديد، لا يوجد نصر.. أتذكّر في أيام حربِ التحرير، الاستعمار في لحظاته التاريخية أعلن عبر إعلامه أنه استطاع الانتصار وأن الشعب كله يرفع رايات البلد المُحتل، وبعدها بساعات قليلة سمعنا عن طرد آخر جندي محتل لبلادنا، هذا البيان دليل على وجود ارتباك، فلو كان النصر حقيقي لتحدّث إلينا القائد من مكتبه، لا أن يأتي بيان تتلوه مذيعة.. الله يستر من الأخبار القادمة.
- كيف طُرد المتمردون، وهُناك نقطة تفتيش للمتمردين تفصلها ساعة عن المنطقة العسكريّة؟ قالت خديجة.

التفّت السيارة سريعا، اااااه اندفع الصوت من داخلها، السائق فتح الباب وقفز إلى الجهة المُقابلة، كل من خديجة ووعد تمسكتا ببعضهما وخرجتا من السيّارة قبل أن تهوي إلى المنعطف الحاد، لم تعلما ماذا حصل، فجأة هما في الصحراء الخاوية التي كانت قبلاً حديقة.

كان هُناك مُفرقعات على الطريق، حسبها السائق ألغاماً فالتف بالسيّارة وخرج منها، الآن هُم الثلاثة بلا سيّارة.. عشرة كيلومترات ما بين المكان والقاعدة العسكريّة.. عليهما المشي.. السائق يبكـــي سيّارته، وهو لا يملكُ هويّة..

– ساعداني.. لا يمكنكما تركي هنا.

– اذهب معنا إلى المنطقة العسكرية.

– سيُمسكوني لأني من المفترض أن أكون جندياً معهم.

– أن تُمسك وتُسجن خير من أن تموت وحيداً يا أخي.

أخيراً قبل واقتنع بعد جهد جهيد أن يمشي معهمـــا إلى مقـــر المنطقة، وعدته خديجة أن تفعل ما بوسعها للتوسّط له أمام الجنود، لا يزال لزوجها مكانة على الأقل للشفاعة في أن يُترك من ساعدنا..

– هذا الشاب لا نعرفه، ساعدنا في الطريق، أما أنا فزوجـــة أحد المصابين في المشفى وهذه ابنتي.

صمتت وعد وهي ترى خديجة تنسى ما عاهدت عليه الشاب، خديجة من بعد الحادثة مع أبـــي علي لا تثق في أحد سوى عائلتها، همستْ لابنتها "ما أدرانا أن لا يكون عميلاً وكُل هذا عمليّة مخططة ليقوم بهجوم داخل المنطقة أو المشفى؟ تذكّري أننا لا نعلم عنه شيء، لم تأبه وعد كثيرا، المهم هو رؤية والدها عاجلا.

– هل هو مُصاب مدني أم عســـكري.. تعلمـــين أن مشـــفانا للجميع.. المدنيين لا نسمح لهم بالدخول منذ اندلاع الحرب.

– بل هو عقيد، العقيد سعد أُصيب في حادث من الحـــوادث ونُقل إلى مشفى المنطقة ولا ندري أين هـــو بالضـــبط.. انقطعت الاتصالات معه منذ اشتداد المعارك.

تأكد من البيانات، ثم أشار إليها نحو بوابة المشفى.. كانت المشفى في منطقة كُبرى سمّيت المنطقة العسكرية بعد الحرب.. حوّلت إلى عسكرية لمكانها الاستراتيجي الذي يسع أن تبدأ العمليّات منه.. عادل بواسطة رئيس التحرير دخل إلى هذا المشفى. وصلتا إلى غرفة ما يُفترض أنها غرفة سعد.. لكنها كانت في الحقيقة غُرفة عادل أولاً.

....

هرعت خديجة إلى زوجها الذي لقّمه صوت وعد الحياة مرّة أخرى، أما وعد فلا تزال تنظُر إلى عادلها.. كم مضى من المدة سنة؟ سنتان، لا يهُم قدر الغياب في الحُب، الغياب موحش موجع وإن كان للحظة، لتوّها انتهت من قراءة الصفحات الأخيرة من كتابِ عادل، قرأت وهي تنتظر أن تدخُل إلى غرفة سعد.

....

- هذه أموال لكَ هديّة من أحدهُم.
- من أنت؟

جاء إلي رجل لا أعلم من هُو، ثيابه أنيقه، شعره مرتّب جداً، قال إن لديه أمانة من إمرأة، وهذه المرأة تُهديني السلام بشكل خاص، وأنها تعرفني ولكن ليس من المهم أن أعرفها.

- مثلما قُلت لكْ أنا مجرّد ساعي أمانة، المرأة قالت لي بشكل مباشر إنها تعرفك جيداً، وأنها تعرف ما حصل لك منذ بداية حياتك في الدار ومن ثم انتقالك لعائلة أبي سامي، والجريمة، وعملك في الصحافة، وقالت أيضاً أنها سعيدة لأن حالك الآن أفضل في الحياة.
- اعترف، هل هي مكيدة، ماذا تخسر لو أخبرتني؟

- أقسمت على المُصحف أن لا أُخبرك بشيء عنها، الـــذي أستطيع قوله نقلاً عنها أن المال أمانة وكان يجب أن تأخذه وأنت صغير، ولكن كانت الظروف صعبة بحيث لم تستطع أن ترد المال في وقته، وتطلّب الأمر كل هذه السنين لترجعه من جديد، وحمدا لله أنها استطاعت.

لا أتذكر أني مدين لأحد بشيء، إمرأة في حياتي تظهر فجـــأة بشكل مجهول، هي المرأة تلك التي كانت تأتي وأنا صغير في الـــدار دوماً؟ ظننتها عجوز في ذلك الوقت، اهمم كانت ترتدي النقـــاب، لا دليل إن كانت عجوز أو شابة، لا أعرف لماذا تذكّرتها الآن!، ومـــا علاقتي بها.. شيء غريب يحصل فعلا.

لم أشأ أن أجعل الرجل يذهب، أمسكته بقوّة.

- أنا قتلت من قبل وأنت تعلم، ليست لدي مشكلة أن أقتل مرة أخرى.

(لم أقصد ما أقول، لكن أردت أن أعرف جيداً كُل التفاصيل، فالمبلغ كبير لمثلِ حالتي، هل يظن أنني أقبل المال الحرام؟!).

- هل أنت متأكّد أنه ليس لكَ أم، أعني الكثير في هذه الـــدنيا يظنون أنهم بلا أحباب مثلا ويجدون حبيباً في الصـــمت، أو ربّما يعتقدون أن الدنيا ضدهم وفجأة يُدركون أن ما يحدُث فيها لصالحهم، هل أنت متيقّن للحقيقة التي تعتقدها؟

سؤال دقٌّ صميم نفسي، ما أذكره أنه وُجدت في الدار لأنـــه ليس لي أهل، لو كان هناك أهل لسألوا عني حتما، يوجد في الـــدار أحيانا أيتام يأخذهم بعد مدة قصيرة أقاربهم، ويوجد قســـم آخـــر يقعدون لفترة بسيطة، وأما أنا وإن سألت إلا أنني لم أحصـــل علـــى

إجابة، منذ زمن بعيد توقفت عن سؤال نفسي هذا السؤال... أجبتُ غاضبا وأنا أشعل سيجارة.

- لو كان لي أهل لأخذوني منذ السنين الأولى لوجـــودي في الدار أو مهلاً سأذكرك، لقاموا بأخذي قبل ذهابـــــي إلى منـــزل أبـــي سامي.. أو لحضروا وداعـــي في المحاكمـــة، كنت سمعتُ منهم شيئا... لا أهل لي سوى نفسي يا سيّد.
- لن أدخل في التفاصيل، ولكن فكّر مرة أخرى، لا توجـــد إمرأة تعرفُ كل أخبار الرّجـــل إلا إن كانـــت والدتـــه يا عادل، لا أقول إني أدّعي أن لكَ والدة أو لا، عُد وفكّر من جديد، ربّما تكتشف أحداث أخرى.
- يبدو أنك مجنون، المال لا أريده أبداً، أعتقد أنك بحاجة إليه لكي تُعالج في مشفى الأمراض العقلية، كما أنه ليس لـــيلاً موضوعياً أنك تعرف أهم نقاط حياتي، إنني لأصدق مـــا تقول، أنا لن آكل إلا المال الذي تجلبه لي الوظيفة، ربّما لو كُنت مُعدماً لقبلت. شكراً على كُل حال.

سمحتُ للرجل بالرّحيل، ثُم عدتُ لمحادثتكِ يا وعد بالهـــاتف، وتكلّمت عن حبّي الشديد لكِ، أهملتُ الموضوع، ولكن هل لي أم؟ أمن المعقول أن تظهر الآن؟! لأني على قيدِ المرض آثرت أن أكتُـــب هذا، ربّما تقرأ السيرة ويحنّ قلبها.

لا أعلم ماذا سأفعل لو قابلتُ أمي، لكن من المؤكد أن لي أمـــاً شاهدتني حين انبثقتُ من بطنها، بالتأكيد لم أولد من العدم، لو كانت تتابع أخباري لليوم فكُل ما أريده سؤالها إياه لماذا فعلت ما فعلـــت؟ لا يوجد سبب يجعل من الأم تتخلّى عن ولدها حتى لو كان الفضـــيحة..

ثمّ تابعتُ ساخرا (ماشاء الله من المُحتمل أن لا أكون ابن الحرام).

....

استغربتْ وعد وجود هذا الحوار في آخر رواية عــادل. مــاذا كان يقصد؟ شعرتْ أن خللاً ما في هيكلها، هل كانت صــفحة في منتصف الرواية، ومن ثمّ وُضعت في آخرها لخطأ في الطباعة، أم أنـــه حوار هامشي على جانب الأحداث. لم تأبه لاستغرابها كثيراً، وقرأت النص الأخير وفي قلبها حماسة شديدة لمعرفة النهايـــة، كـــان ذلـــك مُباشرة قبل السماح لها بالدخول إلى الغرفة.

....

"أتمُّم عليكِ محبّتي، وأبعثُها مُغلّفة في وريقاتٍ مطبوعة، يا وعـــد تقصّدتُ أن أجيء لكِ وأعرفك، وتقصّدتُ أكثر أن أهـــل عليـــكِ هلال كلماتي وإن غمّ علينا الفراق، ما لا تعلميه أن في القلبِ لقصرٌ مُشيّد يقال لهُ العشق، وفي العقلِ لممرٌّ يُسمى الجنون، فإن أخــذَ الله العشقَ من فؤادنا، جاء الجنون على عجلٍ راكضاً، فيستبدُّ بنا ضارباً سياطه.. الشوقُ هُو صوتٌ خفيْ يخترقُ أغلفة الأفكار، الحنين هُـــو صمتٌ موكبـــي يطوفُ بنا في كعبةِ الماضي، الكتابة هـــي جـــرحٌ عاري يضمّده القرّاء، والحُب... ما هو الحُب؟ الحُب يعـــني حروفـــاً ثلاثة تعيثُ في القلبِ فتشلُّ حركته، وتتمشّى في جنانِ الجسد لتغرسَ بذرة الأمان. الحُبَّ أنتِ يا وعد. إنّكِ مطليّة بنورِ دعواتي. وما كُـــل الكلام، وكُل القصص، وكُل السير، وكُل المـــواعظ، وكُـــل هـــذه الكتابة إلا سقفٌ ضخم أدّعيتُ فيه سبباً لكتابة سيرة. سبب يجعلـــني أكتُب لكِ على خفاء".

....

جميعهم في غُرفة واحدة؛ خديجة ووعد وسعد وعادل، القـــدر جمعهم، خديجة تنظر إلى سعد بكُل أسى على زوجها الذي أمضـــى عقودا في الحروب من غير أن يهب لنفسه شيئا من جمـــالِ الحيـــاة، ووعد أنهت الكتاب بعدما أيقنت أخيراً أن الكبرياء مصيره الزوال في معركته أمام الحُب، لا بد أن ينكسر الكبريـــاء وأن يعلـــو صـــوت المشاعر مرة أخرى، لا يهمّها اليوم إن كذب، أو خدع، أو قتل، لا يهمها إن كان ينظر إليها نظرة الوداع، أو سيموت بعد ساعة أو مئة سنة، الآن تُدرك أن حُبّها لعادل هو حُب سماوي لا نهاية له، حُـــب يترفّع عن الزلاّت فما وهبها من سعادة معه يُغنيها، كانت تبتسم لـــه من جديد. وأخيراً عادت البسمة لعادل.

- قرأتُ كتابك، قالت وعد محاولة أن تفتح موضوعاً للكلام، كُل شيء ضائع مع خضم الشوق.
- بل هو كتابكِ يا وعد، في وقتِ البُعد مُنحت الوقت الكـــافي لأكتُب، لم يكُن ببالي أن أموت مخلّفاً كتاباً منحوتاً عليه اسمي في غلافه، بالقدر الذي وددتُ أن يحتضن اسمي يـــدكِ مـــرّة أخرى، شيء ما يجعل النّاس يُدركون أن أكبر همومنا لـــيس الحياة بل الوجدان، انتعلتُ الصمت يا وعد عندما أدركت أن لإطلالتي الألم، أخشى أن لا يكون الكتاب قد آلمك.
- اطمئن يا حبيبـــي، الألم أن أراك متألّماً.

عادت حبيبـــي، ما استحتْ من قولها أمام أمّها ووالدها، كُل رعشة الحب سرت في جسدها، من قال إن الحُـــب يخبـــو بابتعـــاد الوجوه؟ من قال إن الحُب لا يعود إلى القلوب من بعـــد الفـــراق.. كانت كبوة قلب.

- كُل الألم يزول ونحن جوار من نُحب، لم أُمنح الفرصة الكافية لأن أعتذر، الآن أستطيع القول إنني أعتذر على كُل ما لم أقله لك، وأعتذر على تصرّفاتي الحمقاء، وأشكر الله لأنه وهب لنا الفراق لنُعيد شتات نفسينا، تطلّب الأمر منّي شهوراً كثيراً لأدرك أخطائي ولأبوح بها مرة واحدة... بالمُناسبة نسيت أن أقول أحبّك.

نظرت إليه بكُل حياء، شعرت أن شيئاً ما تغيّر في عادل غير وجهه، عادل ابن دوّامة الآلام استعاد قليلا من البشاشة، توقعته أن يكون أضعف، لكنه كان مُبتهجاً رغم حال المرض، خشيت أن تقول شيئاً عن مرضه.. أو حتى عن ماضيه كابن غير شرعي، لم تسأله عن أي حدث، فقط ضمّت أصابعهُ إليها، وقبّلت جبينه، وهي ترى أمّها تقبّل جبين سعد.

علا صوت التلفاز في البداية كانت رقصات وأغاني وطنية مُستميتة "الله الله حيّ على ثورتنا"، "حيّ على الجهاد"، "جيشنا المُنتصر"، ما إن انتهت الأغاني حتى انقطع بث القناة الرسميّة، بدأ مشوشاً، ثم انتهى إلى غير رجعة، المتمردون سيطروا على مقر الإذاعة والتلفزيون، هكذا كانت الصرخات في المشفى، يبدو أن الجيش خسر الحرب.

- ما قاله السائق صحيح، هذا دليل على أن الحرب قد انتهت بالنسبة إلينا، كيف خسرنا مبنى الإذاعة والتلفزيون؟ أخشى الآن أن يصلوا إلى المشفى، كانت خديجة تلطمُ الحال أمامها، غير أنه ما من أحد كان يستمع إليهما، جميعهم يحلّقون في لغة اللقيا من بعدِ شوق.

....

- لا يُمكن أن يكون هذا صحيحاً
- أبداً أبداً... هل أنت مجنون يا والدي.

المُفاجأة كبرى على كُل من عادل ووعد، سعد أفاق من الإغماءة واحتضن ابنته، وطلب منها أن تسمعه إلى نهاية كلامه دون أي مقاطعة، وجه كلامه لعادل أيضا لأن الحديث يخصه:

- وعد، تُذكرين المرأة التي كانت تحتضن الصبي الصغير مدّعية أنه ابن شقيقك الذي انتحر؟

راحت تنبشُ الذكريات، نظرت إلى السقف، ثُم هزّت رأسها دلالة على نعم.

- بعد رحيل المرأة ولعناتِها تابعت أخبارها، في حقيقة الأمر لم أساعدها بدرهم لأني كنت أخشى الفضيحة أو أن يوصّل الخبر أحدهم، تتبّعت أين ذهبتْ ورحلتْ، علمتْ أن المرأة قامت بوضع الصبي في أحد دور الرعاية لأنها لا تستطيع أن تتحمّل نفقات ومشقة العناية به، وصلت إلى مرحلة لا تقدر أن تصرف فيه على نفسها فما بالها بصبي صغير، كلّفت صديقي أن يُراقبها عن كثب، رآها تشحذ في الشارع، كان من الصعب أن يُقنعها بالتخلّي عن الولد. ولكن بعد أن شرح لها مميّزات أبناء الدار والتي تعد نسبيّا أفضل من أبناء الشوارع، اقتنعت وقدّمت هذا الصبي للدار، عرفتُ اسمه، وحرصتُ جيّداً على أن أتأكد إن كان بخير أم لا.

أنزلت خديجة دمعة رغم محاولاتها المستميتة أن لا تبكي، كانت أيضاً تعلم أن زوجها سعد يُتابع الطفل، هذا السر المخفي الذي حاولا دوماً إنكاره.

- هذا الصبـــي نشأت بيني وبينه علاقة خاصة، حرصتُ على أن أوليه اهتماماً مغايراً عن باقي زملاءه، في قلبـــي تأنيب للضمير مخافة أن يكون ادعاء تلك الأم صحيحاً، كُل شيء عبارة عن شكوك غير مؤكدة، ولكي أزيل عن نفسي مـــا علق من شوائب الماضي أردتُ أن أساعده بحيـــث يكـــون معتمداً على نفسه.

هُنا شهق عادل... تكوّرت يدا وعد على نفسِها.

- كان صديقي يُرسل أخبار الصبـــي إلى والدته التي تزوّجت مرة أخرى، غير أنها لم تنس ابنها الأول، وقبل فترة بسيطة التقى الصديق به ليُعيد له مال كُنت قد منحته إياها نظـــير سكوتها درءا للمشاكل.

تذكّرت وعد الذي قرأته في الكتاب.. قصّة اللقاء مع الرجل.

- أنا صحيح!!.. لي أم!!.

وعد دخلتْ في حالة شرود... هل يُعقل أن يكون عادل ابـــن شقيقها المُنتحر!؟ لا شيء يؤكد، ولا دليل ينفي.

رفسَ الطبيب باب الغُرفة مُناديا:

- المتمردون وصلوا إلى المشفى، قوموا قوموا لعن الله أبنـــاء الحرام.

ناصر متعب الجابري

أبوظبـــي

2015/1/3